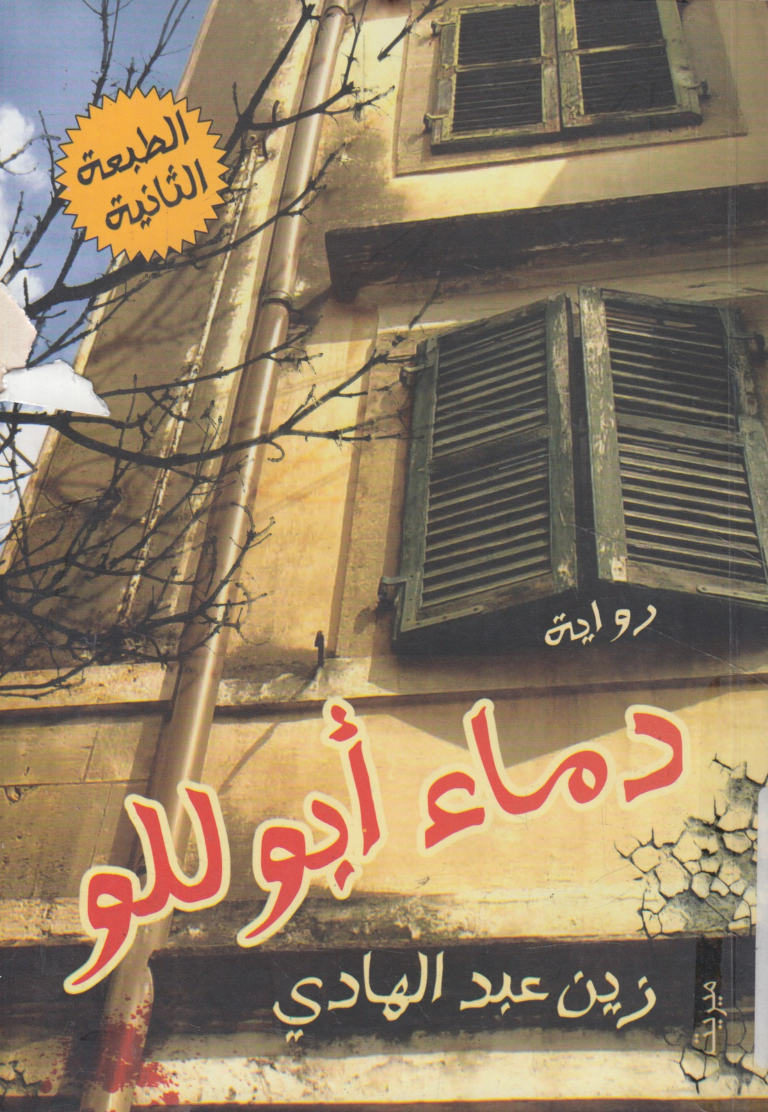


الطبعة الثانية
رواية
دماء أبوللو
زين عبد الهادي
ميريت

# " دماء أبوللو "

دماء أبوللو

رواية

زين عبدالهادى

الطبعة الثانية ٢٠٠٩



٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

www.darmerit.org

merit6@hotmail.com

الغلاف: أحمد مراد

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٤٥٢٢

الترقيم الدولى :0-389-351-977

د. زين عبد الهادي

# "دماء أبوللو"

رواية

دار ميريت

القاهرة ٢٠٠٩

"الأسطورة كالماء.. هى كل شئ"

زين

# المقطع الأول

## عصر الجنيات

## (١)

تترنح خطواتي الصغيرة فوق حجارة الشارع المربعة السوداء فتكاد لاتترك أثرا فيها، تتجمع فوقها قطرات الندى فى الصباح الباكر فأراها لامعة الحواف كنجوم متلألئة متراصة بجوار بعضها البعض فى نظام دقيق، تبدو متماسكة الجوانب، حتى النتوءات السوداء الصغيرة اللامعة بارزة، لاتلاحظها العين للوهلة الأولى، تبدو كأنها صنعت هى الأخرى بإحكام مطلق كأن صانعها لايمت للبشر بصلة.

حتى المنازل الخشبية القديمة المترعة بالرطوبة ورائحة البحر ولمسات واحتكاكات أجيال لم يعد لها أثر تبدو كأنها تنتمى لعصور ماقبل التاريخ، لونها البنى الغامق وبعض الشروخ التى انبثق منها لباب الخشب كل ذلك يوحى بأن هناك شيئا ما تحس به ينتمى لحقبة موغلة في الزمن، إن لم يكن حتى الوجود، إحساس يقطعه فجأة صوت صافرة سيارة الإسعاف يملأ الجنبات، مقتحما الفراغ فى إصرار غريب، أو صراخ لامرأة خلف أحد الأبواب لايمكنك أن تحدد مكانه على الإطلاق، أو مواء قطة فقدت

صـــاحبها، لا أرى أحدا، فقط ألمح بعض الأدخنة المتصاعدة هنا وهـــناك، لامكـــان محدد لها، كأن المدينة كلها تحترق، أحدق فى الأركـــان يواجهني صمت مريب، الصفحة العلوية الزرقاء يقترب لـــونها مـــن الاحمرار، لا أدرى سببا لاضطرابي، لكننى أدركت فجأة أن هناك شيئا ما قد حدث لأبوللو!.

(٢)

صـــوت موســـيقى شـــرقية راقصة مكتوم، آت من مكان ما غامض، كأنه يتمرد على صوت الموسيقى العسكرية الزاعقة التي أصـــرت الإذاعة على بثها يوميا فاختفت أغاني الحب لتحل محلها أغانـــي لعبد الوهاب وعبد الحليم وأم كلثوم ووردة وفايزة ونجاة، لاتـــتحدث سوى عن الوطن، كأن الوطن لم يعد يعرف الحب في ذلك الوقت، الوطن لايسمع سوى صوت الرصاص والمدافع التي كـــان يجـــب أن نـــسمعها جميعا، لكننا لم نسمع شيئا، أما صوت المذيـــع المـــتجهم ببـــياناته العـــسكرية المتلاحقة التي كانت تعلن الانتـــصارات تلو الانتصارات فكان قد خفت فجأة خلال الساعات الماضية، لا أصادف وجوهاً هذا اليوم أيضاً، لم أجدها في المنزل رغـــم مروري عليها لليوم الثالث بعد أن أعلن عبد الناصر النكسة

، وكـــان الـــسؤال القابع في عقلي المنهك، والذي تطفو فوقه تلك الأفكـــار الباهـــتة الخالية من الملامح على فترات متباعدة، سؤال واحد فقط استطعت أن أخرج به، ترى أين ذهبت ؟ !

(٣)

طبول الحرب لم تدع لنا فرصة للتفكير في أي شئ، فقد كان كـــل شـــئ يتم في عجلة، تسيطر العشوائية ومعها الطيش وخوف المـــوت، الجـــنون يمسك بخناق كل شئ، أصوات المدافع لاتكاد تـــتوقف، أصـــوات بعـــيدة مكتومة تأتي من كل مكان، متسارعة أحيانا، على فترات بعيدة في أحيان أخرى.

كـــان الزمن المحدد للهجرة قصيرا للغاية كما يبدو، وفى هذا الـــزحام كان البحث عن التفاصيل ضرب من الغباء، أرى نزوح عـــائلات بأكملها عبر عربات النقل القديمة المتهالكة، وقد جلسوا فوق أسطحها، لاأتبين ملامحهم، والتاكسيات التي تترنح تحت ثقل الأثـــاث، والحقائـــب والبقج والوجوه الشاحبة التي تتصبب عرقا غزيـــرا فـــي هـــذا الـــصيف القائظ، وعربات الكارو التي تسير مـــتلاحمة، حتى عربات الحنطور لم تسلم من الأمر، فمالت على جوانبها من كثرة الأشياء التي تم حشرها فيها، ولا حتى المراكب

الغائــصة بحمولاتها، ولا البسكليتات التي تترنح تحت الأثقال التي وضــعت علــيها، كانــت أى وسيلة متاحة كافية للخروج، وقبل الحــرب بقليل، كان أبي قد غادرنا إلى القاهرة ، وربما رحل معه (حامــد الفاروقي) أو ربما قبله أو بعده، لا أتذكر ذلك جيدا الآن، كــان أبــى قد تم ترحيله، نعم أتذكر ذلك الآن، كأنه حدث أمامى البارحة، تم ترحيل أبى فلم يرحل بإرادته، ولا أظن الآن أن "حامد الفاروقــى" قــد رحــل بإرادته هو الآخر، ولا أظن أحدا من أهل بورســعيد قد رحل بإرادته فى ذلك الوقت على وجه التحديد، كان كــل شئ يسير فى تلك اللحظة البعيدة ضد الإرادة، لاأدرى السبب الحقيقــى وراء تــرحيل أبــى فى تلك العربة المقفلة الجوانب، لم أستطع حتى الآن تذكر عينيه فى الظلام.

كان قابعا فى قلب العربة من الداخل وبجواره عسكرى غابت ملامحه أيضا، وكانا مربوطين ببعضهما بهذا القيد الحديدي، كنت أقــف علــى بعد عدة أمتار أحاول التحديق فى داخل العربة دون جــدوى ، كــان هناك شئ ما ليس صحيحا، كنت أشعر بالغرابة والحماقــة فــى آن واحد، الغرابة لأننى لاأفهم ولا أعى لماذا كان يحــدث ذلك ، وكنت أصغر من أن أستطيع مواجهة الأمر بعنف، وكــان كل شئ أحمق أيضا، كانت الحماقة هى التى تسيرنا جميعا فى تلك اللحظة، ليست هناك سوى صور باهتة تتأرجح فى عقلي بــين الــشك واليقين، وكان هو بعد انطلاق العربة لم يتتعتع من مكانه داخلها، وكان يخيل لى أحيانا أنه يبتسم، منذ عدة ليال وهو

بالكـــراكون، وهاهـــو الآن يـــتم ترحيله لاستكمال التحقيقات معه بالقاهـــرة، أو أن الـــسجن كان ينتظره هناك، ربما لشهر أو عدة شهور قليلة ثم يعود كما فهمت من أمى، كان يرتدى تلك العفريتة الـــزرقاء، وكانت لحيته قد طالت قليلا، رأيته وهو يصعد العربة، لـــم يكـــن هناك شئ قد تغير فيه، كانت عيناه تلمعان بشدة، وكان ســـعيدا علـــى نحـــو مـــا، لاأدرى لماذا كنت اشعر بذلك في تلك اللحظـــة، إحساس لم يفارقني أبدا بأنه سعيد، رغم كل ماحدث له، ووطـــدت عزمـــي علـــى أن أسأله عن هذا الأمر حين أقابله مرة أخـــرى، لكنـــى لا أعتقد – لسبب ما غامض – أنني سأفعل ذلك أبدا!.

كان حامد قد أتى من اليمن منذ عدة ليال، وقد رحلا فى وقت متقارب تقريبا، لكنني فهمت أنه ذاهب أولاً للقاهرة ثم إلى سيناء، لـــم يجلس طويلا مع خالتي حنان، فقط عدة أيام قصيرة، فقد ترك علـــى الحائط صورة له هو وبعض زملائه في اليمن وهم يتكئون فـــيها على دبابة روسية كما قال، سرت معه وكان يرتدى رداءه العسكري حتى محطة القطار، وكنت أشعر بفخر شديد داخلي، فقد كان بطلاً من أبطال الشوارع، لكن ملامح وجهه كانت قد تغيرت، ربمـــا بفعـــل ملابسه الكاكية، فلم أكن أراه قبل ذلك إلا بقمصانه البيضاء النصف كم، والسراويل (الدنجريه)* أو (الواتر بروف)**

*الدنجريه : القماش الجينز وربما تكون هناك علاقة لهذا الاسم باللغة اليونانية!

الزرقاء، والأحذية (الكريب)*** البيضاء، وكانت كل الدلائل تشير إلى أننا انهزمنا، ومع الهزيمة يشتد الصمت، أي كلام كان يثير السخط، كان الكلام نوعاً من الرذيلة التي تتم في عرض الشارع، فيراها كل الناس، فعل فاضح، فحين تكتشف أن كل صرخاتك للفرح والحياة، كانت إيذاناً بالموت، فإن أفضل ما تفعله يكون الصمت، صمت ونحيب غير مسموع، لا شيء سوى النحيب، وظلال الموت الذي يخيم على المكان والبشر والحيوانات والنبات والزمن، ذابل كل شيء؛ الأفكار والقدرة.

هكذا كنت أفكر، وكنت قد تعديت العاشرة بقليل، كنت أعيش داخلي فقط، لاحظت وقتها تلك الشعيرات الخضراء النابتة فوق شفتي وأسفل ذقني، وكان جسدي يمتلئ بالشعر يوماً بعد آخر، حتى ظننت أنني سأتحول إلى قرد، وكنت شبيها بجدي إلى حد كبير، فقد كان كتلة من الشعر برأس صلعاء، لكن لونى كان مختلفا، كنت أدقق فى ملامحه ونحن نقف أمام الشاطئ فى كل فجر نذهب فيه لصيد السمك، كان يستند إلى الفلوكة الخشبية القديمة بساقه، يشعل سيجارته، وهو يحاول مرات ومرات إشعالها متقيا تلك الرياح العنيفة، كانت تنعكس على عينيه بعض الأضواء القلقة للحظة قصيرة، كانتا صافيتين زرقاوين عميقتين، فكان يبدو

**الواتر بروف : نوع من القماش اللامع يقال أنه كان لا يبتل، ولا أدري الآن إذا كان ذلك حقيقة أم لا!!

***الكريب : نوع من النعال أبيض اللون غالبا كان مشهورا في تلك الفترة، ولاأدري إن كان مازال موجودا أم لا!

لى فى تلك اللحظة كإله يعيد خلق الأشياء وتكوينها، لاأدرى لماذا كـــان يتسرب إلى هذا الإحساس العجيب، ولا أتذكر الآن من أين كـــان يأتى، كان عود الكبريت يقدح فى النهاية ويشعل سيجارته، وكانت ملامح وجهه عنيدة، بارزة عضلاتها رغم السنوات الستين التـــى كان يحملها أو يقف فوقها، هل بسبب إصراره على الصيد فـــى هـــذا الوقت غير عابئ بالرياح والبرودة وهدير تلك الأمواج العنيفة، كأنه لايأبه لثورة البحر، كان معتادا على ترويضه وكنت أشـــعر بأنـــه يهزأ منه حين يصر على اصطحابي رغم صيحات جدتـــي، ونظرات الخوف المترددة التى كانت تبدو فى عيني أمى، أمـــا أبي فلم يكن موجودا أغلب الوقت، وحتى إذا وجد كان يشيح بـــيده لأمـــي أن تتركنـــي لأتعلم الرجولة، أقف أمامه مرتديا تلك الطاقـــية الصوفية الزرقاء السميكة، فتختفي رأسى ولا تظهر منها ســـوى عيـــناى تقريبا، وكنت قد بدأت الخروج من أوهام طفولتي مـــنذ وقـــت قريب، أو هكذا خيل لي، فكنت أتخيل (أبوللو) الإله الإغريقـــي يعبـــر سماء مدينتنا كل يوم، أتطلع إلى السماء محاولا رؤية عربته الذهبية تسبح فى الفضاء البعيد بجيادها البيضاء، هل أحببت أبوللو لأن به شبها من جدي، أم أحببت جدي لأن به شبها مـــن أبوللو، كيف كنت أشبه جدي بهذا الإله الإغريقي، هل لأني رأيته يوما ما يرفع عربة بأقفاصها الممتلئة بالخضروات والفاكهة مـــن فوق امرأة سقطت تحتها فكادت تقتل، لماذا انحسر عنى هذا الإحـــساس لأيـــام حين علمت بأن فتقا قد حدث له فى جدار بطنه

جــراء فعلته هذه، وأصبح قعيد الفراش لفترة ليست طويلة مرتديا هذا الحزام الأصفر الجلدى العريض، فعدت لأوهامى حول أبوللو، إلــى أن قرأت عن سلسلة رحلات (أبوللو) إلى القمر .. لكن فجأة ماتت كل هذه الأوهام والأحلام والخيالات، أصبحت خيالاتي فاترة كالمديــنة الآن، الــشوارع مقفرة، الكلاب تمرح، تتمسح بجدران الــشاليهات الخــشبية المهجورة، وبالمقاعد المقلوبة، تتبول عليها رافعــة أقدامها الخلفية فى أعماق قماش الشماسى التى تكاد تختفي ألــوانها المــتعددة، بفعــل الــرمال، كما كانت تترنح أحيانا على ظهــورها جيــئة وذهابا كأنها تودع الحياة والبشر، أو كانت تبدو أحيانا راقدة تماما على جوانبها، لاتتحرك، غارقة في مياه البحر، وكــذلك الفئران التي كنت أراها أحياناً تركض هنا وهناك، بعض الــثقوب في واجهات المساكن الشعبية في المنطقة الأولى والثانية، بفعل زخات رصاص عشوائية، كأنها انطلقت بفعل الخوف، أو أن هناك أشباحا ليلية تراقصت في ذهن بعض المتطوعين في القوات الشعبية، حين كانوا يسيرون ليلاً مغنيين في حزن لايمكن مداراته وبأصــوات تحاول أن تتماسك "طفي النور يا وليه .. إحنا عساكر دورية".

كــل المــسالك إلــى البحر أصبحت مغلقة تقريباً، أتسلل في المساء إلى الشاطئ، ضارباً عرض الحائط بكل التحذيرات، كأني أبحــث عــن حقيقة خيالاتى السابقة، كأني لاأصدق أن ماحدث قد حــدث، كأني أعترض على كل ماحدث، كأني أتمنى أن يكون ما

أعيــشه في تلك اللحظة كابوسا سرعان ماسينتهى وأعود لمدينتى، لكــن ذلك لم يحدث على الإطلاق، كان الأمر كله حقيقة، ولم يكن خيالي يعمل جيدا ليخرج بي خارج كل ماأراه!.

(٤)

أضـــواء زرقاء غامقة باهتة تنبعث من بعض النوافذ وأركان الشرفات المتفرقة المغلقة هنا وهناك، لايمكن تحديد مدى حقيقتها، هـــل هي موجودة أم لا، ربما هي من صنع خيالاتي؟، كأنها نجوم بعـــيدة غارقة فى سديمات الفراغ والشهب، كنت أتطلع إليها كأنها أبواب عالم جديد مازال يتكون، لم ينفتح بعد على أحد.

(٥)

أضـــواء ملـــونة كانت، وكانت أذرع النساء البيضاء العارية تظهـــر وتتحرك في تلك النوافذ والشرفات، يجلسن فى العصارى لإزالة تلك الشعيرات التي طالت أكثر من اللازم المختفية فى ثنايا

حواجبهن، أو لرسم حدود لتلك الشعيرات فلاتفارقها، أو لأكل البطيخ النمس والشليان مع الجبن الأبيض والخبز الساخن، والمياه الباردة حين يشتد القيظ، أو يتناولن جيلاتي "حميدو" وهو يسير، وينادي، في الشوارع بعربة الآيس كريم "صنعة يلعن ديك دي صنعة" وقد وقف رافعا رأسه الضخمة الضاحكة، وقد علتها تلك الطاقية الزرقاء الكالحة العريضة، وقد ربطها بخيط سميك حول رأسه وذقنه فلا تطير، وكن يضحكن ويتغامزن، أو وهن يتطلعن لخناقات وشكل* الشوارع بين أبطال وفتوات، كان منهم (حامد الفاروقي) قبل أن يغادرنا إلى اليمن، وكما قال لي بعد زوجه، كانت ملامح جسده كأنها مرسومة بيد فنان مبدع، وكنت أحيانا أعتقد أنه أيضا إله صغير، وهكذا كانت رأسي تزدحم بعشرات الآلهة، كنت أتطلع إلى السماء باحثا عنهم في الأشكال المختلفة للسحب، أو في وجوه القمر، حين يصير بدرا، أو في ضباب الصباح الكثيف في الشتاء، الذي يندفع كالطوفان بين الشوارع، وإلى داخل البيوت، وكنت أحاول تبين أبوللو فيه، وأتساءل ما إذا كان هذا الضباب إيذانا بمقدمه، لكن أملي كان يخيب، أو أدقق النظر في ألعاب السماء النارية، حين تنطلق من المدافع في الاحتفالات الوطنية، إلى أن شعرت ذات يوم بأنني قابلت أبوللو

* شكل ويتشاكل: من الكلمات البورسعيدية التى تشير إلى معنى الشجار والزعيق الذى يصل لحد التماسك بالأيدي والتراشق بالألفاظ، وهي تستعمل في بعض مناطق مصر بهذا المعنى.

بالفعـــل، ولا أدرى الآن هل كان ذلك حقيقة أم كان ذلك من نسج أوهامــــي، خاصة حين تنتابني الحمى من البرد في ليالي الشتاء أو بفعـــل أوهام الحمى التى اجتاحتني بسبب بعض السمك (الجايف)* الـــذى أكلـــته من خلف ظهر أمى وجدتي، كنت ألاحظ أيضا كبار الـــسن يقلبون فى أوراق الصحف، وهم جالسون في الشرفات، أو أسمع تلك الضحكات التى تختلط بتلك الأضواء فى تمازج عجيب، أيـــن راحـــت اشتعالات الحياة منذ عدة ساعات، عقلي المرهق لا يـــستوعب هذا التغير المميت، كنت أرى الأمر كله شراً، لكنني لم أدرك أبـــدا مـــا هي حقيقة الشر، ولا ماهو كنهه أو من أين أتى، أســـئلة بدائـــية جـــدا كتلك الحالة البدائية التى كنا نعيشها فى هذا الـــوقت بالـــذات، ورغم حكايات جدتي عن العفاريت، و(العون)* الأســـود الطويل، لم تستطع أبداً أن تلصق بدماغي معنى الشر، إذ كانت تضحك دائماً وهي تحكي وأمامها (سبرتاية)** القهوة، تظل تحكي وتشربها، وأنا جالس واضعاً رأسي فوق فخذها أقلب عيناى فـــى ســـحابات السماء، وأتخيل هؤلاء الآلهة العظام وهم مختفون خلـــف تلـــك الـــنجوم البعيدة، ولم أكن أظن وقتها أن السماء بهذا

** تستخدم كلمة جايف فى اللهجة البورسعيدية لتعنى الفاسد، وهى تستخدم بمعناها المجـــازى ومعـــناها الحقيقـــى كأن نقول "الوله ده جايف" بمعنى فاسد العقل أو نتن الرائحة أو سئ التصرفات، وجايف أيضا بمعنى فاسد وغير صالح للأكل.

* العون يعنى فى اللهجة البورسعيدية الجنى أو العفريت.

** سبرتاية أى الموقد الذى يعتمد فى نيرانه على الكحول أو السبرتو، ويستخدم فى استخدامات بسيطة مثل عمل فنجان قهوة أو حرق البخور.

الاتـــساع، حتـــى أروح في النوم على حكاياتها، وأصوات المدينة التي لا تنتهي.

## (٦)

هـــذا هـــو الـــيوم الـــثالث حسبما حكى لي الطبيب، تركت المستـــشفى وعبرت إلى الشوارع الحجرية، ذهبت إلى المنزل فلم أجد أحداً في العمارة كلها، خبطت على كل باب فلم يفتح أحد حتى العربـــى بائع الفل وزوجته رغم يقينى بأنهما بالداخل، بحثت عن مفـــتاح بـــاب شقتنا ووجدته هناك على نافذة العمارة المطلة على الـــشارع فـــى أعلـــى السلم كما تعودت أمى أن تتركه لى، وحين دخلت لم أجد سوى بعض الحواشي القديمة فكنت أنام فوقها، كان العفـــش كلـــه قد اختفى، حتى صور أبوللو التي كنت أضعها على الحـــائط أسفل السرير كانت قد اختفت أيضا، وحتى الصور التي كانـــت معلقـــة فـــي الغـــرف، قد تم نزعها جميعا، وتركت على الحوائط آثار لأشكال مربعة، متربة الحواف ، أما شومة أبي التي كان يستخدمها في القتال الفجائي الذي كان يحدث بالشارع فكانت مكانهـــا كما هي خلف الدولاب، فكرت في أن أمي إما باعت كل شئ قبل أن ترحل، أو أنها حملت كل شئ معها، لكنها تركت شيئا وحيدا لي!.

في اليوم الرابع قررت التجول في المدينة باحثاً عن أمي وإخوتي وعمي (خضير) الذى كانت تقول عنه ستى أنه (مجنون مايعرفش عايز إيه؟) (مجنون مجنون ماأنا من غيره هاأبقى لوحدى!)، لم يكن هناك طريق آخر أمامي غير أن أعثر عليه بأي شكل، قررت البحث عنه أولا، لكنني قررت فجأة ولسبب ما غامض ومبهم أن أذهب أولاً إلى الشاطئ في المساء، وأن أرجئ عملية البحث عنه إلى مابعد جولتي المسائية، وأدركت في تلك اللحظة أن الجنون في أسرتنا لم يفرق بين كبير وصغير، كنا جميعا ملاحيس كما تقول جدتى.

اختفت الرايات التي كانت ترتفع على الشاطئ بألوانها المختلفة، بعض الجثث لحيوانات نافقة، انتشار عريض (للحناجل وأبو جلمبو*) يملأ الشاطئ بلونه الرمادي، ينعكس فوقه ضوء القمر كأن هذه الكائنات غير معنية بكل مايحدث لبني البشر، أشعر بأن الشاطئ كله يسير، كأن الأرض دبت فيها الحياة فجأة، فأخذت تتجول على شاطئ البحر تبحث عن مستقر، كأن آثار أقدام الناس، والصبيان، والبنات، كانت الطمي الذى تأكل منه فيسكن جوعها وتخلد إلى السكون، هاهي تتحرك هى الأخرى، الرمال تمتلئ بثقوب وممرات وأنفاق صغيرة، وآثار أقدام لكائنات

* الحناجل أو أبو جلمبو يعنى الكابوريا ومفرد حناجل حنجل وأغلب الظن أن الفعل مشتق من حركة الكابوريا في المشي بمعنى يتحنجل أي يسير على قدم رافعا الأخرى وهو يقفز.

بحـــرية وطيور شتى، لم أكن ألاحظ ذلك إلا في الشتاء فقط ولأيام قلــيلة، تلك الأيام التي لايغرق فيها المد شوارع المدينة، أما الآن فهـــي موجــودة دائما؛ كأن العناكب تغزل بيوتها في كل بقعة في المدينة، مقاعد وشماسي الشاطئ الخشبية متناثرة في إهمال شديد، المقاعــد مغروزة رأساً على عقب في الرمال، يسحبها المد رويداً رويـــداً، أو تـــرتفع من حولها الرمال بفعل الجزر، وبعضها يكاد يختفي تحت المياه كأنه جثة هامدة.

ألاحـــظ الـــصدأ الـــذي يعلو مواسير أدشاش المياه؛ كيف لم ألاحظـــه قـــبل الآن؟، هل من المعقول أنه كان موجودا من قبل؟، كـــيف لـــم ألاحظه قبل الآن؟، من أين أتى هذا الصدأ، كيف كنت أمـــرح هنا منذ عدة ليال غير عابئ بأى شئ، هل كان هذا الصدأ موجودا قبل الآن، مستحيل!!، ألاحظ الكابينات الخشبية في الخلف تعبث في أبوابها رياح البحر، تتبرز فيها الكلاب، وتأكل حاشياتها الفئـــران، وتمـــرح فـــيها الحشرات؛ كأن العالم يستبدل بكائناته، كائـــنات أكثـــر وضاعة، وربما يكون الأمر هو العكس، بكائنات أكثـــر رحمة، كأنما تعود هذه الكائنات لمواقعها الحقيقية، كان كل شئ ملتبسا على فهمي الشارد.

## (٧)

اختفت أصوات المصطافين وضحكات الأطفال، وصراخ الغرقى، والتماثيل المصنوعة من رمال الشاطئ وصدفات البكلويز * وأم الخلول والحصى الملون، اختفى باعة الشماسى والكراسى، حتى الرجل الذى كان يجلس أعلى السلم يراقب المياه والناس وحركة الأمواج قد اختفى أيضا، اختفى باعة الهريسة والبسبوسة والسمنية والتمرية*، اختفى لاعبو السمسمية وباعة البطيخ، كأن الأرض أعلنت علينا عصيانها جميعا، أين ذهبت التماعات عيون البنات والصبيان، واختفاءاتهم في الأركان لقبلات سريعة يتبادلونها، تعقبها تلك الضحكات البريئة، وتترك أثار احمرار قان على وجوه البنات، اختفت أجهزة الراديو الترانزستور ذات الألوان الحمراء والخضراء والصفراء، التي كانت تحتضن أعالى الشماسي تبث أغاني عبد الوهاب وعبد الحليم وماهر العطار والتلباني ونجاة وثلاثي أضواء المسرح وأبطال ساعة لقلبك،

* البكلويز : حيوانات بحرية ذات أصداف يؤكل لحمها ويصنع من أصدافها أدوات للزينة، وهي أكبر حجما من أم الخلول وذات شكل دائري.

* حلوى بورسعيدية تصنع غالبا من عجين البسبوسة واللبن والسكر ويتم قليها.

والخواجة بيجو وأبو لمعة وعبد المنعم مدبولى وفؤاد المهندس وخيرية أحمد والدكتور شديد وشكل[1]، سكون مختلط بأصوات بدائية قديمة، هى أصوات الأمواج الميتة وفقاقيع الماء التى تنفجر على الشاطئ محدثة هسيسا غريبا يتحرك فى دوائر الروح المقتولة منذ أيام أو ساعات قليلة، أصوات لاتدركها سوى أذن مدربة على لغة البحر والأمواج.

(٨)

أتحسس طريقي عائداً مرة أخرى، أتسلل من بين ثكنات بعض الحراس الذين كانوا يتحركون في صمت، فتنعكس ظلالهم السوداء على الأرض فتتمدد مكونة أشكالا غريبة لاتنتمى لعالمنا الأرضى، وإنما كأنها قادمة من جحيم بعيد، الإضاءة الخفيفة تكشف عن ملامح معذبة، أو هكذا ظننت، فقد كانوا يتحركون بلا نظام وبلا صوت وبلا هدف، هل كنت أعلم ذلك وقتها؟ هل كنت أتخيل؟ وهل كنت أعي، أم أن وعيي كان يتشكل في تلك اللحظة؟ اختلطت فيه الوجوه البريئة والدماء التي تناثرت في كل مكان، اختلط فيها الطفل بالمراهق، إذ لم استطع أن أحكي للطبيب شيئاً،

[1] مطربون وممثلون مصريون اشتهروا في فترة الستينيات

فمـــا كـــان إلا أن طلـــب مني أن أكتب طالما أني غير قادر على الحكي، لم أستطع أن أنسى تلك الوجوه أبدا فى هذه الليالى البائسة التـــى خـــرجت من إطار الزمن اليومى، إلى أن أصبح لها زمن خـــاص بها وحدها، زمن بدأت فيه الحياة نفسها تتحول إلى كائن هلامـــى ليس له أى معنى، فمامعنى الحياة كلها إذا لم نكن قادرين على الفعل، لم يكن هناك أى معنى لأى شئ!.

(٩)

أعتنـــي بأفكاري لكنى لاأكاد أنطق، أغلق عيناى فأرتعد من آلاف الخيالات التى تنخر فى صدري، تتحول كل مخلوقات العالم فـــيها إلـــى شـــياطين ومخلوقات بأنياب طويلة تقطر منها الدماء، فأفـــتحهما ســـريعا لأغرق فى الحوارات الليلية التى كان يتبادلها الجميع حول مضايق تيران وقوة الجيش، وجونسون وخديعته لعبد الناصـــر، وانـــتحار المشير عامر أو قتله، والانسحاب من سيناء، وآلاف القتلـــى هناك بالصحراء، ولم أدرك ماهى الحقيقة إلا حين وجدت كل شئ فارغا، فارغا تماما، حتى النخاع كان فارغا، من أيـــن يأتـــى هذا الجوع للكلمات والضحكات وحتى نهنهة الدموع والنحيب؟ معنىً إنسانى آخر لم يعد موجودا !!.

(١٠)

حين أدركت مذاق الكتابة توقفت حسرتي على عدم القدرة على الكلام.

بدأت الحياة برسومات بدائية على الأوراق، أى أوراق، تحولت الرسومات إلى رموز لاأدرك معناها، كنت أشخبط على كل ماتطوله يداي، وكنت غالبا أبدأ بالرسم، أو أحاول تقليد شكل الكتابة وعادة ماكنت تنتهي أفعالي إلى فشل ذريع، ولكن مع الوقت تحولت لخطوط وحروف ووقفات بيضاء، إلى أن أدركت أنني بدأت عصر الكتابة، لكن عصر الكلام لدى قد انتهى، الكلام الذي يخرج من الشفاه، هذا الفعل البسيط للغاية أصبح مستحيلا الآن كما أرى، كأن بيني وبينه آلاف الأميال التي ليس باستطاعتي على الاطلاق اجتيازها، كنت محصورا هناك مع بقية الموتى الذين لاأراهم في تلك الصحراء البعيدة، كنت محصورا تماما بين تلك الأشياء فلا أستطيع الإفلات.

(١١)

هـا أنـا أعبر الشارع الأسفلتي تاركا الأحياء القديمة بأنهار طـرقها المـصنوعة مـن تلك الحجارة السوداء، لأقف فى الحد الفاصـل بـين المديـنة القديمة التى كان يعيش فيها الإفرنج من الفرنـسيين والنمـساويين واليونانيين والايطاليين حين كانت تحفر القـناة، وبين قرية العرب التى كان يعيش فيها الناس الذين شكلوا بعـد ذلـك المدينة وأحياءها، متوجهاً ناحية العمارة التي تقع في مـنطقة المساكن الشعبية التي أنشأها عبد الناصر بعد الثورة كي يـسكن معظم الأهالي بها سواء العاملين في هيئة قناة السويس أو العاملـين في مصنع الغزل والنسيج، هذه المبانى المربعة الشكل، مجموعة من المناطق، كل منطقة لها إسم، المنطقة الأولى فالثانية فالثالـثة وهكـذا، أما أسماء الشوارع فكانت كلها شوارع الأبطال والفتوات، وتكاد تنسى الأسماء الأخرى عدا بعض أسماء الشهداء فـى حرب ستة وخمسين، تقع كل مجموعة من العمائر في منطقة ويميـز كـل منطقة لون مختلف عن المنطقة الأخرى، فالمنطقة الأولـى باللـون الأبـيض والمنطقة الرابعة باللون الأبيض أيضا والمـنطقة الخامسة باللون الأحمر، وتنقسم كل عمارة إلى بلوكين

لكـــل بلوك رقم قائم بذاته، ويتكون كل بلوك من أربعة أدوار في كـــل دور شـــقتان، وتم بناء بعض الأدوار الخامسة في عام ستة وســتين، أي قــبل الحــرب بعــام واحد، أكلت الرطوبة حوائط العمــارات وواجهاتهـــا، وتتوافر أمام كل مجموعة من العمارات بقعـــة خالية أعتبرت كحديقة عامة أرضيتها من النجيل فقط، وقبل هــذه العمارات تقع (خرارة الماء) التى تستخدم كمكان لتصريف فــضلات العمـــارات، وأمامها يقع شارع السواحل الذي به سينما الأهلــي وحميدو بائع الجيلاتي، والعربي بائع الورد، ونصر بائع الفـــول السوداني والسجائر والمثلجات كعصير سيدر الذي له طعم التفاح ، وبعض مشتقات الكولا وغيرها من المثلجات المحلية، ثم مـــصنع الـــثلج الذي كنت أقف أمامه أشاهد خروج الثلج من الماء كأنني أشاهد عملا سحريا لايقاوم، أما فئة التجار والسكان القدامى خاصــــة الأجانب فكانوا يسكنون حى الإفرنج* ثم يمتدون إلى حي العـــرب مابعـــد شـــارع أسوان ومن شارع محمد على وإلى حي المناخ حتى شارع الأمين ضاما معه شوارع مائة وتسعة وتسعون والـــسواحل وكـــسرى والـــشرقية والحميدي والتجاري والتلاتيني وأوجيـــنه وكتـــشنر**، وكانت أغلب البيوت في هذه الأحياء من الخـــشب، ثـــم الامتداد الجديد لحي المناخ ببيوت المناطق الشعبية

* حـــي الافـــرنج : الاسم الرسمي له حي الشرق لكنه مشهور باسم حي الافرنج في بورسعيد.

** شارع كتشنر أصبح اسمه بعد الثورة شارع ٢٣ يوليو.

التـــي كانت تضم المنطقة الأولى ومنطقة مساكن الموظفين الثانية حتـــى المنطقة الثامنة***، حيث كان أغلب سكان هذه المناطق من فـــئة العمال والأرزقية والصيادين والباعة المتجولون، وكل من لم يكن له سكن.

أســير حتى القناة، لا شيء آخر، لا أثر أجده لعجلة (العربي) بائـــع الفل مساء، العامل في قناة السويس صباحا، ولا لاخوته أو أبنائه، اختفى الأولاد وتزوجوا وظل هو وزوجته الأولى في الشقة المقابلـــة لـــنا في العمارة، أما زوجته الثانية فكانت تسكن في حي الإفـــرنج قـــريبا مـــن ميدان المنشية، لم يرحلا لا هو ولا زوجته الأولـــى، فقـــد اكتشفت بعد عدة أيام بأنه لم يغادر المدينة، رفض الـــرحيل حين قالت له زوجته الأولى بأنها تريد أن تموت هنا إذا كان هذا قدرها، وبأنه يمكن له أن يرحل مع الراحلين، فهمت ذلك مـــن حواره مع عمي خضير حين قابله بعد الحرب مصادفة، وإن كان قد أشار إلى ذلك من قبل في حواره عن زوجتيه مع أبى حين زاره فـــى حجز الكراكون* وكان ممسكا ببعض الشطائر فى يده يـــريد تقديمها لأبى، الذى رفض فى إصرار، فاختفى بعد لحظات بعد أن صب في آذاننا بعض مشاكله مع زوجتيه، كنت أراه أحياناً

*** المناطق الشعبية بناها عبد الناصر بعد عدوان ١٩٥٦ الثلاثي على مصر.

*يطلـــق البورســـعيديون لفـــظ الكـــراكون على قسم الشرطة أو نقطة البوليس، ومن المعروف أن هذا الاسم مستخدم في العديد من محافظات مصر، لأنه مأخوذ من اللفظ التركي قره قول.

متوجهاً إلى الفرن فوق عجلته لابتياع بعض الخبز أو لشراء بعض السمك الذي يقوم باصطياده من القناة الداخلية (أو الكنال الداخلي كما نحب أن نسميه) الذي كانت تبدأ حدوده من شارع مائة، كان يراني كأنه لايراني، تغضنت ملامح وجهه خلال بضعة أيام، بضعة أيام فقط من هذا الشهر اللعين، غير وجه المدينة ووجوه الناس وأدى إلى اجتراء الكلاب، وزاد من حجم الفئران، وأعاد تلوين السماء بألوان سوداء، وزادت حتى انحناءات الأشياء، حتى حجارة الشوارع تغير لونها الأسود الفضى، حتى دماء القلوب تغيرت.

المياه ساكنة، المدينة غارقة فى عدم غريب، وبعض السفن تسد مجرى القناة تماماً، بعض التجمعات لبعض الجنود والعاملين القلائل الذين رفضوا النزوح والهجرة، الشمس تعبر السماء في خمول، تختلط في رأسى المربوطة أصوات صرخات فرح الأطفال القديمة بصوت لطمات المياه على سور القناة الأسمنتي، تبخرت أصوات الحياة فجأة، صوت وحيد الآن في وقت الظهيرة في هذا الحر القاتل، صوت الشمس وهسيسها الميت السابح في فضاء بغيض.

عرجت على شوارع الحميدي والأمين حتى شارع محمد علي، لا حس ولا خبر، شراذم قليلة تظهر على البعد وتختفي لباعة ليس لديهم ما يبيعونه، بعض أكوام القمامة المتناثرة هنا وهناك تقف فوقها الكلاب والقطط والفئران التي بدأت تزاحمْ

بعـضها الـبعض، وكأن هناك تحالفا ما بينها بحثا عن مكان لها دون خوف، كان هؤلاء هم سكان المدينة الحقيقيون الآن.

## (١٢)

كـيف تحـولت تلك الجنة فى ساعات قلائل إلى هذا الجحيم، مـن الـذى طردنا منها أو لماذا؟ لم أفكر كثيرا فى تلك الأوقات فيمن ألومه، كنت مهموما بالعثور على أمى وإخوتى، كانت فكرة اللـوم فكرة مترفة لااستطيعها الآن، فى مثل هذا العمر وفى تلك اللحظة على وجه التحديد، تفقد الأفكار معناها أحيانا إذ لم يكن لها علاقـة باللحظـة الآنية، الحياة كلها تفقد معناها، كنت أتسائل فقط عـن الـسارق مـن بـين إخوتى الذى أخذ معه طائرتى الورقية الملونة، أو إلى أين ذهبت أمى وكيف تركتنى هكذا وحيدا؟ أو ماذا أفعل الآن لوحدى؟ وكيف سآكل أو أشرب أو أنام؟ كأننى تائه فى مديـنة غريبة لم تعد مدينتى، كيف يمكن لى أن أتصرف بالأعوام العشرة التى أحملها فوق كتفى؟ ولم تكن هناك إجابات شافية. حتى جدتـي التـي لم تكن تطيق ابتعادي عنها، كيف طاوعها قلبها؟ لم تفعل ذلك من قبل أبدا، حتى خالتى حنان وطفليها وخالتى أم هاشم

وخالــى مــسعد كــأنهم ارتــدوا جميعا طاقية الاخفاء، أين ذهبوا جميعا؟.. لماذا تركونى وحدى فجأة؟!.

كأن جميع من تآمروا علينا قد اتفقوا على أن تلك هى اللحظة المناسبة لإخراجنا من الجنة!

المدرســة أغلقــت أبــوابها، تذكرت يومنا الأخير فيها، يوم رحلتــنا إلــى تلك الجزيرة الصغيرة فى البحيرة، سمعت الكثيرين يتحدثون عن كنوز الملك سليمان التى أغلقت الحكومة عليها أبوابا ضــخمة من الحديد حتى لايسرقها أحد، كنا فى هذا الوقت نحمل طعامــنا من السندوتشات وقطع الخيار وحبات الطماطم نتجمع فى مجمــوعات صــغيرة ، لنركب هذا المركب الكبير ذا القلع الهائل ليبحــر بــنا فــى بحيــرة المنزلة بدءا من منطقة اللنش إلى تلك الجزيــرة التــى تقع على حافتها الأخرى فى النهاية ، استغرقت الــرحلة بــضع ساعة وكانت ضحكاتنا تختلط بصراخنا الطفولى، وحين توقفت المركب أخيرا أمام الجزيرة، وضع لوح خشبى كبير لننزل من فوقه إلى الشاطئ، أمسكنا فى بعضنا أثناء النزول ومع ذلــك ســقط جميعنا فى الماء بملابسنا وسندوتشاتنا التى أصبحت مــبلولة تمامــا ومالحــة الطعــم، وهناك بعيدا عن كل الأراضى الأخرى فى العالم وقفنا مبهورين تسبقنا خيالاتنا أمام تلك الكهوف المغلقــة بأبوابها المعدنية العملاقة، قيل لنا أن كنوز الملك سليمان محفــوظة فــى الداخل جميعها وأن هناك جنيا يحرسها، لم تفارق هذه الصورة مخيلتى، كيف أتى سيدنا سليمان إلى هنا تاركا اليمن

وبلقــيس والجزيرة، ولماذا كل هذه الأبواب على كنوزه؟ ألا يكفيه الجان والعفاريت يسيرهم كما يشاء، ومن الذى وضع هذه الأقفال علـــى الأبواب؟ حكيت كل ذلك لجدى وهو يقود مركبته الصغيرة بطـــول الـــساحل حتى العريش، وفى المساء عدنا بسمكة صغيرة للغايـــة هـــى كـــل ماعلق بشباكنا، كانت ملامحه تنبئ باستسلامه للقـــدر، وكـــان غارقـــا في دخان سيجارته يتطلع إليه، وكنت أنا أحـــاول رسم بعض الأشكال في عقلي لحلقات الدخان السابحة في الهـــواء قبل أن تختفي تماما، حين قفزت تلك السمكة الكبيرة إلى داخـــل الفلوكة فجأة، ثم توقفت عن الحركة، توقف عن التجديف، وتطلع إلى السماء، وقبل يديه ظاهرها وباطنها، وكف عن اللعنات التى كان يطلقها، وقفز إليها ممسكا بها في كلتا يديه بينما كنت أنا أضـــحك، وهكذا جلست أمام جدتى وهى تحاول فتح بطن السمكة وانا أسألها عن خاتم سليمان ، ربما يكون بها!!.

(١٣)

قررت أخيراً العودة إلى المنزل، لكن لا شيء هناك، ولا أحد ينتظرني، ماذا سأفعل الآن ؟ الجرح في رأسي يؤلمني أحياناً ؟ بدأ انزعاجـــي يخـــف الآن، ها هي أمي قد تركت لي ثلاثة جنيهات

داخـــل الدولاب، كأنها كانت تعلم بأنني قد أعود ولا أجدها، على الآن أن أتـــصرف بحـــذر، آكل بحذر وأشرب بحذر وأنام بحذر، لاشئ سوى الحذر.

الـــيوم الرابع ها أنا أدور في المدينة كلها، لا أجد ما أفعله، الشوارع فارغة، مراكب الصيادين ممزقة على الشاطئ، لا أدري إلـــى أيـــن أذهب ؟ ! .. كان الشاطئ يمتلئ فى الفجر بالصيادين يـــسحبون الشباك ويلقون بالأسماك فى قفف على الشاطئ، وكان خلق كثير يتحوطوهم فى هذا الوقت العجيب، بعضهم من الباحثين عـــن مايسد رمقهم، أو الباحثين عن شروة من الأسماك والحناجل والبراغيث* قد لاتتكرر فى يوم آخر قريباً، لم يكن غناؤهم ينقطع ســـواء كان هناك رزق من عدمه، وكانت عيونهم تلمع وأجسادهم تتفصد عرقا، كان بينهم الشباب والأطفال والعواجيز، أخيرا أذهب وأســـتلقي فوق المرتبة القديمة في أحد أركان غرفتنا داخل الشقة، أنـــام بفعل التعب والخمول، تتوهج خيالاتي، إلى أن أدركت أنني يجب أن أذهب إلى بيت عمي (خضير) فهو الوحيد الذي لا يمكن أن يكـــون قـــد غـــادر المديـــنة، لم يغادرها أيضاً في حرب ستة وخمسين الماضية، فكيف يغادرها الآن، إن روحه معلقة بالمدينة، قـــال يـــوماً وهـــو يـــضحك ونحن جالسون نأكل العصافير التي أصطادها من شاطئ بحيرة المنزلة :

* البراغيث: الجمبرى خاصة صغير الحجم.

- طاعون فيكم كلكم .. أنا باموت فيها..بورسعيد دى بالنسبة لى زى ست جميلة ملعب .. أسيب مين ؟ !

كإجابـــة عليـــنا فـــي معرض سؤاله عن ما سيفعله إذا قامت الحـــرب، وهـــا هي الحرب قد قامت، هل كانت الحرب هي الشر الـــذي حكـــت عنه جدتي، رغم كل حكاياتها وحروبي الصغيرة، وخناقاتـــي وشكلاتى المتواضعة ودمائي التي ساحت حين سقطت أمام بالوعة أثناء تدافع الناس بسقوط مظلي في حارة (العيد) قريباً من المساكن الشعبية، وجريهم لالتقاطه ثم نقلي للمستشفى بعد ذلك واخـــتفاء ســـتى وأمي واخوتي وخالاتى، رغم كل ذلك كان الشر داخلـــي مفهـــوماً لـــم أهتد إلى تفسيره ولم أحاول، فقد كنت دائماً أعيش في ابتسامات جدتي ومحاولاتها الدائمة الفاشلة لتعريفه.

لقـــد أدركت منذ زمن بأني يجب أن لا أسألها، فهي لا تملك إجابات أو تفسيرات، كل اجاباتها ترتبط بالقدر، قالت لي ذات يوم ممطر :

- أنت عارف يا وله .. المطره دي نازلة إزاي ؟

تطلعت إليها في تساؤل:

- ســـيدنا ميكائـــيل ماسك دلوقتي مصفة بيدلق فيها ميه من السماء ..

- علشان كده المطرة نازلة ..

- طبعاً يا وله يا عبيط ..

ضـــحكت وحاولت إفهامها بأن الأمطار تسقط في جزء واحد علـــى الأرض ولا تنزل على العالم كله، وأن سيدنا ميكائيل ليس الـــسبب فيها، إنزعجت بشدة واتهمتني بالكفر وكشفت عن رأسها وقامت بصب لعناتها على كل المدرسين، وبعد برهة هدأت تماما ونست الأمر برمته، صمت وأنا ابتسم .. ولم أحاول أن أثنيها بعد ذلك عن أي فكرة لديها، لقد كان تمسكها بآرائها لا يتزحزح، ومع ذلـــك كنت أراها تفيض حناناً وحكمة، وكنت أنا أهيم في خيالاتي عـــن (هدى) حين كانت هي تصمت قليلاً وتتطلع من شرفتها نحو الـــسماء، كـــنت أحاول أحياناً أن ألتقط ما تفكر فيه، كانت سوداء "غطـــيس"* تماماً، وكان لوني يميل إليها وحيداً دون أخوتي، ربما كـــان ذلـــك سبب تعلق كل منا بالآخر، وكنت أشعر بأنها أفسدت عقلـــي بحكاياتهـــا، لكني كنت أصدق ما تقوله طالما رأسي فوق فخـــذها بينما تلعب بأصابعها في خصلات شعري الأسود الطويل، نائماً ألتقط بعض حبات الطماطم اللامعة التي أحضرها جدي معه مـــن سوق الخضار بالحميدى، وذلك حين يحل به التعب من صيد السمك الذى لايأتى غالبا، فيذهب للارتزاق من السوق، فتراوده أم الـــسعد مالكة محل الخضار الذي يعمل به حين يجدب السمك من البحر، أو حين يكون تعبا من الصيد، فيلجأ إليها فيبيع لها بعضه، وحين يحصل على مايكفيه من رزق يترك لها محل الخضار بعد

*غطيس يعني قاتم أو داكن اللون تماما.

أن يكـــون قـــد لعنها ولعن جدودها، وقرأ كل تعويذات الشر فوق رأســـها، وبالرغم من كل ذلك كانت تركض وراءه دائما، ولم أكن أدري ســـبب عـــشقها لـــه، رغم كل مابه من عيوب، كانت ستى تـــسردها على مسامعى وهى تضحك، ولم يكن جدي يعير جدتي التفاتا حين تتحدث عن محاولات أم السعد لخطفه، بل يجلس هادئا هناك في الركن يسحب أنفاس سيجارته، وكنت أتعجب من حالات الهدوء تلك التي تصيبه فلم أكن معتادا عليها.

(١٤)

قالت جدتي إن الملائكة تعشق العمل وحدها، ولايعمل ملاكان ســـويا فلكل واحد منهم مهمة خاصة به، واحدة من المقولات التى اختمـــرت فى ذهنى ولم تبارحها أبدا، فى واحدة من تلك اللحظات الـــنادرة كـــنت أظن جدى ملاكاً أيضا بسبب شدة بياضه وصوته الـــزاعق، وإصـــراره على الرفض فى الكثير من الحالات، حين يطلب منه أحدا ما أمرا لايستسيغه فيظل يكرر كلمة (لا) عشرات المـــرات دون أن يـــتوقف، بل يتصاعد حسه* كل مرة ينطق فيها تلـــك الكلمـــة، كأنه يؤكد رفضه المطلق، ولم يكن يقول شيئا آخر

* الحس : الصوت

بعـــدها، وحـــين رأيته يموت أدركت أننى كنت مخطئا، فالملائكة لاتموت.

ألتـــصق فـــى قعر مؤخرة (الفلوكة) الصغيرة، فقد كان جدي يعن له صيد السمك حين يفشل في العثور على عمل ما، ولم يكن يجيد في حياته سوى عملين، أحدهما هو ما نحن فيه، والثاني بيع الخـــضار في قلب الشتاء، ولأننا كنا في مطلع الصيف، فقد كنت جالـــساً أتفحـــص السمكة الكبيرة التي اصطادها، بينما كان يدخن سيجارة (لف) وقدِ سرح ببصره بعيداً، وبعد أن هبطنا من الفلوكة وبيـــنما كـــنا نسير سقط جدي على الأرض وكانت السيجارة بين شـــفتيه، حمله الناس وسرت خلفهم، ولم أره بعد ذلك أبداً، وحين كـــنت أســـأل (ســـتي) عـــنه كانت تقول بأنه ذهب في رحلة مع عـــزرائيل، ولكنـــي كنت أسألها ولماذا عزرائيل بالذات؟ لماذا لم يـــذهب مـــثلاً مع ميكائيل ليسقي الأرض بالمطر، وكانت تضحك وهـــي تقول بأن ميكائيل الملاك لا يحب العمل مع أحد، إنه يعشق عملـــه وحيداً، ولكن يا ستي لماذا يفعل ذلك في الشتاء فقط ؟ لماذا لا يفعـــل ذلك في الصيف، فالحر يكون مميتاً، فنبحث عن الظلال لنختبئ فيها ؟ كنت أتسائل عن معنى الاختباء فى الظلال؟ لايمكن الامـــساك بـــالظلال، فكـــيف نختبئ فيها، حاولت مرارا وتكرارا الإمـــساك بهـــا، كانت تنتاب أمى تلك المخاوف حول فساد عقلى، وكانـــت جدتـــى تفـــسر الأمر بأن جنيا قد مسني؛ وكنت أنا أيضا أعـــتقد ذلك بشكل أو بآخر، ولكنى كنت أعود لسؤالها، ألا تقولين

بـأن الجن إذا مسني سأحترق؟ أليس كذلك (مش كده.. مش كده.. مش كده.. ياستى مش كده؟ هاه.. مش كده ياستى!) فكانت تصرخ أولا من إلحاحى المتكرر، ثم تهدأ سريعا وتردد:

– الله يلعـنك يـا ولـه ماسبتش حاجه من جدك، انت ياوله مكنة.. اسكت شوية!!

كنت لا أصمت، أعود فأسألها كأنها لم تصرخ،

– طب إيه الفرق بين الجنى الطيب والجنى الوحش ياستى.. إيـه الفرق.. هاه .. إيه الفرق؟.. انت مش بتقولى انهم مخلوقين مـن الـنار .. هاه؟ لو كانوا مخلوقين من النار يبقى انا هاتحرق على طول لو مسنى جنى طيب أو جنى وحش؟ مش كده ياستى.. هاه.. مش كده؟!

تتطلع فى وجهى طويلا صامتة ثم تنفرج أساريرها وتضحك وتترك سؤالى الحائر وتعود للحديث عن سيدنا ميكائيل وتقول فى هـدوء عجيب بأنه يحب معاكستنا، وكنت أبكي أحياناً وأقول لها بأننـي سأغضب منه فقد زودها هذا اليوم من أيام الشتاء في العام الماضـي حين اختار أن ينزل فوق رؤوسنا قطعا من الثلج فمنعنا حتـى من الخروج، إن له مزاح عجيب، فكانت تقول إن علينا أن نحتمل مزاحه.

كـيف لنا أن نحتمل مزاح الملائكة؟ البرد مزاح ثقيل والحر مـزاح أثقل، كان الاحتمال أحيانا فوق طاقتنا جميعا، لكن لم يكن

هناك مهرب من أن يكون لدينا هذا الاحتمال، وهكذا لم أكن أفهم أن ذلك يزيد من قدراتنا.

كنت أتطلع إليها وأسألها ولماذا اختار عزرائيل جدي من بين كل هؤلاء البشر؟ فأنت وأنا وأمي واخوتي نحتاج إليه، من سيحضر لنا السمك والطماطم المجنونة بعد الآن؟ أم هل يحتاجونه هناك، إلى حيث هو ذاهب، وكانت تسكتني بإشارة من يدها، بأن هناك من يحتاجونه أكثر مما نحتاج نحن إليه، كنت أصمت لحظات ثم أعاود أسألها ولكن لماذا لم يقل لنا أنه سيرحل قبل هذا اليوم؟، لماذا سقط فجأة، جدتي أنت تكذبين علىّ، فلو كان سيرحل لقال لنا، لقد اختطفوه، لكن لماذا كان صامتاً ساكناً لا يتحرك قبل اختطافه، حتى إن السيجارة التي كانت في فمه حرقت شفتيه، لماذا لم يصرخ ؟ جلست بجانبه على الأرض أمسح تلك الرمال الصفراء التى علقت بخده وشاربه، أحاول نزع تلك السيجارة من بين شفتيه وهو صامت لايتحرك ولايتوجع، لم يقل شيئا على الإطلاق .. أى شئ.. كان في الأمر شيء مريب، أليس كذلك ؟، صرخت فجأة.

– يا سعاد .. تعالى شيلي الوله ابنك أبو دماغ خمجانة* ده من هنا !!

*خمجان : بمعنى فاسد أيضا

كنت أتطلع إليها باستغراب وأنا أضع حبة الطماطم في فمي، وتأتي أمي راكضة على حسها العالي، وتبدأ ستي في الحديث إلى نفـسها بكلام سريع غير مفهوم ، وكان صوتها يتضخم إلى الحد الـذى أحسها وقد تحولت إلى رجل بينما تتقلص ملامحها وتثبت علـى حالهـا لاتتحرك فى نفس الوقت الذى يعلو صدرها ويهبط بسرعة شديدة، بينما تحتل (الزرابين) تقاطيع وجهها، تجذبنى أمي من أمامها بعنف صارخة:

- قـوم دك داء الطاعـون .. كده خليت الزربون السوداني يطلـع عليها .. ها أعمل إيه دلوقت ..هانمشيه إزاي.. يا وله أنا مش قلت لك تبطل أسئلة كثير .. آه يابن الكلب يابو دماغ جايفه..

كنت أختفي لحظات وأعود إليها وأنا ابتسم في وجهها، فكانت تستقبلني في أحضانها مبتسمة أيضا وتقبلني كأن شيئاً لم يحدث.

(١٥)

لمـاذا حملنـي جـدي فـى تلك الليلة فوق كتفيه فى ظلام الـشوارع، وكانت أمواج البحر قد وصلت إلى حدود الشوارع فى تلـك الـسنة، بينما تراكمت قطع الثلج فى الأركان وعلى حوائط البـيوت، وأصـبح السير فى الطرقات خاصة ليلا حالة مستحيلة،

ومـــع ذلك فقد تحدى جدى كل ذلك وحملنى فوق كتفيه عابرا كل تلـــك الأكمنة، ولم تعيقه لطمات الرياح العنيفة فى تلك النوة التى كانـــت تجتاح كل شئ، كانت الرياح تدفعنا للأمام بعنف أحيانا أو تجذبـــنا إلـــى الخلف في أحيان أخرى فيكاد يسقط لكنه كان يثبت قدميه في الأرض فلا يتحرك، وكانت الأمطار تغسل الوجوه، التى كانت تتجمد من البرد فى ذلك الوقت، وكنت معلقا على كتفيه أمد يـــدي فى الهواء وأضحك وهو يضحك معى أحيانا ويدمدم أحيانا بـــشتائم مـــتدافعة، أحاول التقاط حبيبات الماء، لكنها كانت تهرب متـــسربة من بين أصابعي الصغيرة، يقف أمام بائع التمرية الذى يقـــف على أول رأس القرنة* فى كسرى، وجه الرجل يكاد يختفى فـــى تلـــك الطاقية الصوف التى لاتظهر منها سوى عينيه البنيتين علـــى أضـــواء تعلو وتهبط، تنكمش وتتمدد، تهيج وتكاد تختفى، نـــسير فـــي شارع الأمين أسفل تلك الأعمدة الضخمة حيث كانت تبنـــى البـــيوت وتصنع لها أعمدة خارجية ترفع شرفاتها، ويترك تحـــت الـــشرفات فراغ عريض كمظلات للسائرين على أرصفة الـــشوارع، لاأحـــد تقـــريبا يسير فى الشارع، ننحني نحو شارع التلاتيني، سينما مصر تتراقص ألوانها، بورصة السعيدية مفتوحة يختبئ الجالسون فيها تحت المظلة أمامها.

---

*رأس القرنة : ناصية الشارع أو الحارة

هـانحن، هـو وأنـا أمام الطبيب العجوز، كان سمينا أبيض قـصير القامة، برأس تكاد تخلو من الشعر ونظارة طبية سميكة، أجلسنى أمامه وكنت أبتسم فى وجهه غير مدرك لما يحدث.

قال الطبيب:

– إزاى سبتوا الوله لحد عينه ماقفلت بالشكل ده..

نمت على الطاوله أمامه، وكان يحاول تحسس عينى الوارمة، مـتابعا رأس الـدمل الكبيـر، لكننى صرخت، أمسكنى جدى من ذراعـى وثبتنـى على الطاولة فلم استطع الحركة، أخذت أصرخ ومـشرط الطبـيب يلعـب فى الورم، وحين فتح (الدمل) كنت قد سقطت فى غيابة الإغماء، ولكن ظلال وجه الطبيب المبتسم بقيت تراوح مكانها فى عينى، قال جدى:

– الوله ده عجيب.. ازاى بيضحك وهو نعسان.. على العموم هـو مـش هايجيبه من بره .. عيلة مجانين صحيح.. إذا كان هو ولا سته .. ولا حتى أنا..( وانطلق ضاحكا )

أجاب الطبيب وهو يبتسم:

– فعلا عجيب!

لـم أفـق إلا حـين عودتنا، لكني لم أبك ولم أتذمر، وفردت ذراعـي مرة أخرى وقعدت ألاعب الأمطار رغم النقح الذى كان فى عينى، لكنى كنت سعيدا للغاية.

(١٦)

تعلمت أن أحب الملائكة .. لكني كنت أغتاظ من أفعالهم في الـــشتاء، وفي لحظات اختيار الأرواح التي سينقلونها معهم، وكنت أعـــتقد أن أبوللـــو هو كبيرهم حين سمعت عنه للمرة الأولى فى المدرســـة، ثـــم من (يانى) بعد ذلك، ثم أكملت معلوماتى من أحد مجـــلات الأطفـــال، ولـــم تـــدرك ستي ما هي العلاقة بين أبوللو وميكائيل وعزرائيل، وحين سألتني عن الاسم أبوللو قلت لها

– مش عارف.. (سكت لحظات وتابعت)

– بس بيقولوا في المجلة إنه إجريجى.

– إمـــشي يـــا بـــن الكلب ياملقط* وإيه اللي جاب الاجريج الـــشبيحة** الـــسكرانين طينة للملايكة المؤمنين الموحدين بالله.. امشي .. انجر.

---

*ملقـــط تنطق بكسر الميم وفتح اللام وتشديد القاف وتسكين الطاء وتعنى الذكى لحد الخبث، وهى تقال غالبا على سبيل المرح.

**شـــبيح وشبيحة: فتوة أو صايع يحاول السيطرة على الناس بتدخله بعنف فى كل شـــئ، وقد انتشر الإفرنج فى بداية تاريخ بورسعيد بعد مجئ ديليسيبس، وكان منهم البلطجـــية ومن يحاول فرض سطوته دون أن تستطيع الحكومة الملكية فعل أى شئ، وكانوا فوق أى حساب.

أقفز ضاحكاً، ثم أعود إليها.

- يـــا ســـتي أبوللو ده، بيركب عربية دهب بتجرها حصنة وبيمشي في السماء..دول حتى راسمينه في المجلة.

- اتلهي على عنيك وعين اللي خلفوك .. يا سعاد .. يا سعاد .. الحقيني يا بنتي.

وكانت أمي تأتي مسرعة حاملة مقشتها التي ترهبني بها فقط، فكـــنت أركـــض ضاحكا هاربا من صرخات ستي إلى حجر ستي أيضا، فكانت تفتح ذراعيها تحميني من سعاد ومقشتها.

## (١٧)

هـــل يمكن أن تصدأ الشمس، لا أدري ما الذي دعاني للتفكير ذات يوم في أن الشمس يمكن أن تصدأ أيضاً؟ وكيف يمكن لي أن أحـــدد مظاهر هذا الصدأ وعلاماته؟ كان ذلك بعد أن شاهدت طبقاً فـــضياً قـــد عـــلاه الصدأ، جلست في حجر ستي كالعادة في هذا المساء وسألتها ..

- الشمس ممكن تصدي ؟

- لأ يا حبيبي .. الشمس مش ممكن تصدي ؟

-ليه مش ممكن تصدي ؟

-لأنها كده ..

-يعنـــي إيـــه .. أنا فهمت من اللي قريته .. إنها من الحديد والـــنحاس ومعـــادن كثيـــر بتغلي .. يبقى أكيد ممكن تصدي ولو صـــدت النور بتاعها مش ها ييجي عندنا، وبعدين فيه حتت شفتها ماكـــانش فـــيها نـــور.. يبقى أكيد النور في الحتة دي الشمس ما قدرتش توصله لأنها في الحتة دي كانت مصدية..

كانت تتطلع في وجهي باستغراب شديد.

-يا سعاد الحقيني – الواد أكيد مسه عفريت .. هاتي البخور خلليني أرقيه ..

لم أدرك أبدا الفرق بين الجنى والعفريت، وإن كنت قد فهمت أن العفـــريت هو نوع من أنواع الجان، أتت أمي بالبخور وجلست بجانبـــنا وجعلتنـــي أعبـــر عليه سبع مرات فيما كانت ستي تقرأ القـــرآن، ثـــم أجلستني وجعلت رأسي فوق فخذها، وأخذت تملس على شعري وهي تقرأ هي وأمي .. بينما رحت أنا أغط في النوم متعجبا من هذا العفريت الذي لايخرج إلا بالبخور.

(١٨)

لا أدري كـــيف كنت أصل إلى هٰذه النتائج السريعة، لكن من المؤكد أنني رأيت القمر وقد علاه الصدأ أيضاً في مكان ما.

أقسمت لستي أن القمر كان صدئاً، وأنه لا مانع من أن تكون الـــشمس صـــدئة، وقلت لها أن هناك علاقة ما بين الصدأ والماء والهـــواء، وأن ســـيدنا ميكائيل قد يكون قريباً من الشمس والقمر، وأنـــه من المؤكد قد ترك الأمطار تسقط عليهما ولأن بهما معادن فإن هذه المعادن حين جفت المياه من عليهما بفعل الهواء – وكنت أظن أيضاً أن الهواء يملأ كل مكان في الكون، ولم أكن أرى فرقاً بـــين الكون والأرض فكلاهما كانا في نظري شيئاً واحداً – حين جـــف الهواء ترك بعض الصدأ في بعض الأماكن، وقلت لها إنك يمكـــن أن تلاحظي ذلك بكل سهولة على حركات القمر، فكل يوم هـــناك جزء لا يظهر، وربما كان بعض الملائكة يقومون بتنظيفه ولـــذلك لا يظهـــر كاملاً إلا في يوم واحد أو يومين، أما الشمس فكـــنت أتطلع إليها، وعلى الرغم من أنني كدت أصاب بالعمى في أكثـــر من مرة إلا أنني أجزمت بأنني قد رأيت بقعاً سوداء عليها، أو غامقة ذات لون رمادي غامق عن بقية سطح القمر، وقالت لي

جدتـــي بـــأن هذه البقع السوداء أو المذنبات والشهب الطائرة في الــسماء مـــا هي إلا احتراقات الجن والشياطين، حاولت إفهامها الأمـــر بـــشكل آخـــر، لكـــنها رفضت فى إصرار الاستماع إلى الهـــرطقة التـــي أقولها، كانت تستمع وتضحك وتدعي بالطاعون على من كان السبب في تلويث عقلي، وتطبطب على رأسى وهى تردد فى حنان:

- بكره تخف ياحبيبي.. بكره تخف!

كانـــت مؤمنة تماما بأني مريض وأنني سأعالج يوما ما مما حدث بعقلي، ومن ناحية أخرى كانت تعتقد بأن مس الجني لي قد ترك عقلي مشوشا بشكل أو بآخر..

(١٩)

كـــيف كـــنت أفكر في كل ذلك في تلك اللحظة وأنا قابع في غرفتي وحيداً نائماً على الأرض على تلك المرتبة وبجانبي بعض الخبـــز الجـــاف المكسر، وكنت قد وضعت خلف الباب قطعة من الخشب، وكنت أتوجه كل حين نحو غرفة جدتي لكن لم يكن هناك لها أثر، وكنت أسأل نفسي أين ذهبت ؟ !

لا يـــوجد بالعمــــارة ســـواي أنا (والعربي) العجوز وزوجته لكنهما لا يفتحان الباب لأحد، حتى ياني لاأعلم إن كان موجودا أم لا، اشارات الحياة الوحيدة كانت حين لا أجد (بسكليتة) العربي في الــصباح الباكــر إذا استيقظت في ذلك الوقت، وأجدها في المساء مسلـسلة بسلـسلة حديدية ومربوطة في مدخل العمارة إلى عربة الفــل، (ســرجت*) الــنور، ووقفت في الحمام أتطلع إلى وجهي، كانــت ماكيــنة حلاقـــة أبي مازالت على رف الحمام، بها نصف مــوس "ناست" التمساح، الذي اشتريته له آخر مرة قبل أن يحدث ماحــدث، موجــودة مكانها وكان الموسى بداخلها عليها شعيرات ذقــنة جافـــة، وقفت أتطلع في المرآة أقلده وأحرك الموسى جيئة وذهاباً حتى وجدت الدم يتناثر على خدي في خط طويل، لم تخرج مــن فمــي أي أصوات كالعادة، حتى الألم لم أكن أستطيع التعبير عــنه سوى بتقلصات وجهى، أما فمي فكان ممنوعا عليه إصدار أي أصـــوات، أخــذت أمـــسح الــدماء بيدي، فيتناثر على وجهي ويلتصق بأصابعي، وفتحت الماء وأخذت أغسل وجهي ولكن الدم لم يتوقف، توجهت نحو ملاءة المرتبة ووضعت طرفها على خدي بعــض الــوقت حتى توقفت الدماء، وحينها قررت بأنني يجب أن أذهــب إلـــى عمي (خضير)، لا أدري ما الذي دعاني إلى التفكير في ذلك ولا لماذا لم أفكر في ذلك قبل الآن، أحسست بأننى سأجد

*سرج: بمعنى اشعل أو أوقد ومنها اسم الآلة سراج بمعنى منير.

لديه الإجابة على الكثير من الأسئلة التى كانت تراودنى وتؤرقني ولا أبوح بها لأحد، لأنه لايوجد أحد!!.

(٢٠)

كيف هى الحياة بلا أجنحة؟ سرت وأنا أفكر في الطريقة التي يمكن أن ينبت لي بها جناحان، ربما كان ذلك بعد أن شاهدت تلك الأفلام ، عن هذا الرجل الذي يطير، فكنت حين أتطلع للطيور فى السماء أتمنى لو كنت أملك مثلها جناحين ممتلئين بريش بدلا من ذرعي النحيلين، كنت أحيانا أتحسس كتفي كل صباح فأخلع ملابسي الداخلية لأتأكد من أنه لم ينبت لي جناحان من الريش بدلا من ذراعي، أو نبت ريش في جانبي جسدي يمكنني من الطيران، وكنت أفكر أيضاً بأنني على أن أقابل أبوللو أولاً كي يمنحني هذين الجناحين، ورأيت أيضا أنه من المناسب أن يكون الريش بهما ملونا، وأن أختار هذه الألوان بنفسي، كنت أريده بصراحة أن يمنحني جناحين بألوان قوس قزح، ولم أكن أدرى السبب الحقيقي وراء هذه الرغبة، وكنت أعلل ذلك أحيانا بأنني كثيرا مارأيت قوس قزح في الأيام الممطرة في المدينة، كان كبيرا وجميلا بشكل لايصدق، وكنت أتخيل أحيانا بأن أبوللو حين يسأم

مــن عــرباته فإنه يقوم بالتزحلق عليه، وإلا مامعنى تلك اللمعات الذهبية التي كنت أراها تبدو لوهلة ثم تختفي!.

(٢١)

هــبطت إلى عرض الطريق، أتجه نحو (الجبانات) حيث كان يسكن قريباً من هناك، وكانت ستي تحذرني كثيراً من الذهاب إلى الجــبانات في أي وقت، وحكت لي أيضاً عن أول (عون) شاهدته وكــيف قرأت عليه (الكرسي وياسين) فاحترق مكانه، كان عقلي مشوشاً تماماً في تلك اللحظة، على أن أقرأ (الكرسي) ثم (ياسين)، وأن أتلفــت حولــي، وأن أفكــر في وضوح في موقع بيت عمي خــضير، وأن أحترس من الطائرات التي تجوب سماء المدينة ليل نهــار، ومــن الكــلاب التي بدأت تملأ الطرق والشوارع، ومن الــبالوعات المفــتوحة التي تمتلئ بالجن والشياطين، ومن العيون المــشقوقة خاصة القطط التي قد تتحول أي واحدة منها إلى جنية تختطفنــي وتــذهب بي إلى سابع أرض، كنت أتخبط في مسيري فأصــطدم بأعمــدة وبحجارة وحوائط، وهنا توقفت تماماً وتمنيت ظهــور أي جنــية، فعلــى الأقل حين تختطفني سأرى جدي، فقد أخبرتني ستي بأنه في سابع أرض أيضاً، سنكون معاً، وقفت وقتاً

طـــويلاً وحـــين أيقـــنت أن كل الجنيات لا ينظرن إلى الآن لأنني مازلــت صـــغيراً، أدركت بأنني ضئيل للغاية ولن أسترعي انتباه أحـــد، وهكـــذا رحت أفكر مرة أخرى في عمي (خضير)، بدأت أركـــض حتى وجدت نفسي فجأة أمام بيته، كنت أحاول أن أتذكر رقـــم شـــقته وطابقه، لكنني لم أجد سوى شقة واحدة ينبعث منها ضـــوء خفـــيف، صعدت السلالم وحين وقفت أمامها أدركت بأنها شـــقته، فها هو عكازه الخشبي الشهير الذي يستعيض به بديلاً عن قدمه التي سقطت فوقها دانة مدفع لم تنفجر فأخذت منها جزءاً في حفـــرة، وقـــد اعتـــرف لي ونحن جالسين نصطاد العصافير على شـــاطئ بحيرة المنزلة بأن هذا هو السبب الوحيد الذي يدفعه إلى عدم القدرة على مغادرة (بورسعيد).

كأننـــي كنت أرى وجهه حين رأيت العكاز فابتسمت، وربما ضـــحكت بـــصوت عال، لكن لم يخرج مني صوت أيضاً، كنت منـــزعجاً مـــن ذلك، لكني كنت سعيداً للغاية وأنا أتفحص عكازه وفـــردة حذاؤه وأقف أمام شقته أخبط الباب، فيفتح الباب بعد وقت لـــيس بقلـــيل تسرب فيه مرة أخرى الخوف من عدم العثور عليه فأعود وحيدا، ولكنه هاهو يقف قبالتي ساندا بكفه على الباب واقفاً على قدم واحدة وهو يسأل في حنق.

-ديك أم مين في الساعة دي ؟ !

(٢٢)

قال لي جدي ذات يوم قبل أن يختفي في الأرض السابعة :
-الحياة والموت بيتفقوا في حاجة واحدة ..
وحين تطلعت إليه متسائلا ..
-لازم يظهر دم علشان نتأكد من إنهم حصلوا ..
لكنني لم أر دماءك يا جدي حين سرت مع عزرائيل إلى الأرض السابعة .. لذلك مازلت أصدق أنك تحيا في مكان ما !! لكن أين هذا المكان على وجه التحديد، هل على أن أصدق ماقالته جدتى بأنه فى سابع أرض، وأين هى الأراضي الأولى والثانية والثالثة.. لماذا فى سابع أرض ياجدى؟! لماذا؟ كيف كنت تسير معه بينما كنت راقدا على الأرض أمامي؟ قالت ستي إن روحه هي التى انطلقت معه، أما الجسد فكان ماثلا أمامي على الأرض وتحيرت كثيرا لهذا الانفصام بين الجسد والروح، وتساءلت كثيرا عن سر هذا الانفصام العجيب؟!.

(٢٣)

هــل كــان يغلق أزرار سرواله ويدعك عينيه في آن واحد، بيــنما يستند على الباب بساق واحدة، وقد تدلي بنطلونه فارغاً من الساق الثانية، ثم حين رآني لم يستطع أن يرى ملامحي..

-ديك أمك .. إنت مين .. انطق ؟ !

تقــدمت إلى الضوء قليلاً، صرخ وهو يضع كفه فوق كتفي ويدخلني في أحضانه ويستند على بثقله وأكاد أميل معه ..

-آه يــاملقط.. نهار أبوك أسود .. إنت كنت فين ياوله.. أنا قلبت الدنيا عليك بقالى أربع تيام.. ؟ !

جلسنا نتطلع كل منا إلى الآخر، كان يتحسس وجهي من أثر (تعويرة) الحلاقة الزائفة، وخلع رباط رأسي ليرى ما فيها، وأدرك فــي تلــك اللحظة وهو يحدق في بأنني فقدت القدرة على النطق، أدرك فجأة كل شيء، أخذ يطبطب على ظهري.

-ها نروح الاستباليا الصبح.. ما تقلقش.. مصر والسودان..

لــم أكن قلقاً، لكني كنت أفكر بأنني على أن أطلب من أبوللو أن يعيد لي صوتي قبل أن يهبني الأجنحة، وسأطلب منه أيضاً أن يأمر ميكائيل بعدم رش المياه في الشتاء، وأن يأمر عزرائيل بعدم

خطـف الناس للأرض السابعة دون إنذار، لكني كنت أفكر أيضاً وبـشكل مـا فـيما قالته جدتي عن اليونانيين، ولأني رأيت عمي (خـضير) مسطولاً من الخمر أكثر من مرة، فقد تساءلت في حدة داخلـي، ولكـن ماذا إذا قابلته وكان مسطولاً ؟ هل سأستطيع أن أتحدث إليه ؟!

كان هذا هو كل ما يقلقني في تلك اللحظة.

-أكيد إنت جعان .. مش ها أغيب خمس دقايق .. إقفل الباب ورايا ..

وقفـز قفزته الشهيرة وفي أقل من عدة ثوان كان قد أحضر عكازه وأغلق الباب خلفه، جلست على المقعد الخشبي في الصالة ثـم جلـست على الأرض ورحت أفكر، لم تكن تلك المرة الأولى التى أختفي فيها عن جدتى وأمي وأخوتي وعمى وخالاتي، حدث ذلـك أكثـر من مرة، لكن أشهر هذه الاختفاءات كان في أحضان (كريستينا) تلك الراهبة اليونانية الصغيرة التي كانت تناديني بـ " ياساغيري " فى بورفؤاد للمرة الأولى وأنا نائم في سريرها، التي تعـرفت علـيها آنـذاك، ولكنـي لم أحك لهم ماحدث قط بعد أن وجدونى أمامهم في كراكون المناخ، وكانت هي جالسة هناك على المقعـد الخـشبي داخـل الكـراكون تتطلع إلينا في ابتسام وود، تـصاعدت صـرخات أمي ونظر إلى أبي شذرا تحسستنى جدتي وأمـي وخالتـي حنان وخالتي أم هاشم، وانتهى الأمر تماما بعد يومـين، وبقـيت كريستينا على زياراتها المتقطعة لنا، ثم سرعان

ماالاســتغرقت في نوم عميق، وكنت مستلقيا برأسي بشكل ما فوق فخــذ جدتــي، أو هكذا كنت أتخيل، كانت قد وحشتنى للغاية هى وأمى.

(٢٤)

كــأن الــنافذة وباب الشرفة قد فتحتا فجأة وأطل ضوء شمس قــوي منهما، ضوء يخطف الأبصار ويعمى العيون، وكأن الجميع يقفون في عربة أبوللو الذهبية، وكأن جيادها الذهبية أيضا تصهل أمامــي، حاولــت إخفاء عيني في البداية ولم أستطع أن أحدق في وجهــه كثيــراً فقــد كان كل شيء فيه يلمع بشدة، بدأت الأضواء تخفــت وأخــذت في فتح عيني ببطء، لمحت أبي وأمي وإخوتي وخالاتــى وخالى مسعد وعمى خضير وحتى جدي الذي اختطفه عــزرائيل قــبل الحرب بأيام قليلة كان يقف بينهم يبتسم وكان قد أشــعل ســيجارة أيــضا، وكنت واقفاً في الشرفة أتطلع إليهم وأنا أصــرخ علــيهم، "ستي؟ أمه، جدي، عمى خضير، خالى مسعد، خدوني معاكم، ماتسيبونيش لوحدي هنا"، كنت أصرخ!

(٢٥)

توقف ذلك كله حين فتحت عيناي على يده وهي تهزني.

-قوم .. قوم علشان تاكل .. لحقت نمت ..

دعكــت جفونــي بظهــر كفي وأنا أتطلع إليه، كانت رائحة الطعمية والخبز الساخن يخترقان أنفي، لم أفكر كثيراً من أين أتى بها، لكنني انغمست في الأكل بتلذذ ونهم، وكان هو قد أفرغ لنفسه كــوباً من (منقوع الصرم) الذي فهمت من جدتي أنهم كانوا يأتون بالأحذيــة القديمة ويضعونها في ماء كثير ويتركونها لأيام كثيرة وكانــت تحذرنــي مــن الشرب منه، (كفاية نيلة على عينه عمك خــضير .. والــراجل اليونانــي اللــي ساكن في العمارة وأبوللو بتاعك)، وكنت مستغرقاً في هذه الفكرة وحين هممت بسؤال عمي خــضير عــن هذا المشروب، أدركت للمرة الألف أني لا استطيع الــنطق فتركت ذلك أيضاً للحظة التي يعود إلى فيها صوتي، قال لي عمي خضير ..

-تعــرف أنــا بأدور عليك بقالى يومين .. كنت فين ؟ ! .. ســتك جــت لحد عندي وسألتني عليك .. لفينا الدنيا كلها .. أكيد

كنت مستخبي .. خايف من صوت القنابل والرصاص .. مش كده .. ديك أبوهم كلهم ..

أتطلع إليه في حب، كنت أشعر داخلي في تلك اللحظة بهدوء عظـيم، أكلـت كأننـي لم آكل من قبل، كان لمذاق الطعمية طعم الـسحر، كأنني لم أتذوقها من قبل في حياتي القصيرة، استغرقت بعدها في نوم مريح لأول مرة منذ أربع ليال، وكان عمي خضير يغنـي "طلعت يا محلا نورها شمس الشموسة" وكان يرفع زجاجة مـنقوع الـصرم نحو شفتيه، كان يتحدث دائما عن سيد درويش وعن مغامرته فى الأسكندرية، قالت لى ستى أن سيد درويش كان (راجـل سـكرى) أيضا وكنت أتعجب من تلك السعادة التى يتمتع بهـا جميع من يتناول منقوع الصرم العجيب، وكنت قد أضمرت فـي نفـسي أننـي لابد من يوم أتذوقه فيه لأعرف مالذي يحدث بالضبط، ولماذا هو في نظر عمي خضير حلالا، وحرام في رأي ستي؟ كان أمرا محيرا آخر من أمور حياتي في ذلك الوقت.

(٢٦)

كأنني اختزنت ذاكرتي كلها على هذا النوع من الأسئلة الذي أخـذ فـي التحليق معي حتى الآن، فلم أكن أستطيع أن أفعل شيئا

آخــر، الوحــيدة التي أوقفت الأسئلة في حلقي كانت ابنته (هدى)، وكانــت أمهــا مصرية تفضل التحرك داخل شقتهم عارية، كنت غالــبا في منزلهم مختبئاً تحت السرير مع (هدي) ولم أفهم كثيراً فــي هذا الوقت السبب وراء ذلك لكنني أرجعته (لمنقوع الصرم) الــذي كانت تشربه هي أيضاً فتفقد قدرتها على التحكم في نفسها، وكثيــراً ما كنت أرى عمي خضير قالعاً قميصه وهو يحتسي هذا المنقوع.

ولكــن الغريب في هذا الأمر أنه كان يزيد الناس سعادة، مرة أو مــرتين وربمــا ثلاث هي التي دخلت فيها مع جدتي في نقاش عريض.

- منقوع الصرم حرام مش كده يا ستي.

- أيوه يا حبيبي .. أوعى تقرب منه لتروح جهنم.

-هــو أنــا ما قربتش منه .. أنا بس شفت عمي خضير .. وياني بيشربوا مع بعض وكانوا مبسوطين قوي

- ما هو علشان كده حرام ..

- حرام علشان مبسوطين .. ولا حرام علشان بيشربوا منه.

- حرام علشان أي حاجة .. اتلهي على عينك واسكت ..

- طــب لــيه احــنا زعلانــين بقى .. زعلانين علشان هم مبــسوطين .. يعنـــي هم لو ماشربوش ها يبقوا زعلانين .. ولما يــشربوه ينبــسطوا .. ويغنوا ويضحكوا .. علشان كده ها يخشوا النار ..

-آه ياملقط يابن الكلب .. (ثم تصرخ) يا سعاد .. الحقيني.

وتأتـــي أمي راكضة وفي يدها المقشة، فأجد نفسي واقفاً في الركن أضحك .. لم أفهم أبداً السبب وراء كراهية ستي لأبوللو .. وحبها لميكائيل وعزرائيل رغم ما يفعلانه .. ولم أفهم سر كراهية الجميع لمنقوع الصرم .. وكنت أفكر بأنني لا أطيق رائحة حذائي بسبب العرق .. ولكن هل لو وضع في ماء سيكون له طعم آخر ؟!، وهكذا كانت أولى تجاربي العلمية .. حيث أحضرت فردة حذاء قديمـــة في حقيبة المدرسة القماش، وأخفيت علبة من الصفيح فيها أيـــضاً ووضـــعت الحذاء فيها وملأت نصفها ماء، وانتظرت عدة أيام، ثم حاولت أن أشرب منها لكنني اكتشفت سوء طعمها فألقيت بهـــا مـــن الشارع من شرفة حجرة ستي، وحين سألتني ستي عما أفعلـــه ســـكت وضـــحكت وركضت نحوها ووضعت رأسي فوق فخذها وسألتها :

-لـــيه مـــنقوع الـــصرم اللي بيتعمل في البيوت بيبقى طعمه وحش ..

ســـألتني في فزع وكان إصبعها الأسود النحيف يكاد يخترق عيني:

-وانت عرفت منين أن طعمه وحش .. أكيد دقته ياملقط.. يا سعاد !

أقـــسمت لهـــا بأنني لم أتذوقه، وكنت أعلم بأنني كاذب، لكني احترت ماذا أفعل ؟ فقد كانت تجربة ذات طعم سيء للغاية، وربما

هـــذا مـــا دفعني لتذوق طعم هذا المنقوع ذات يوم، لكنني لاكتشفت للمـــرة الثانـــية أنه لا يكاد يوجد فرق بين تجربتي الأولى والثانية فأقلعـــت عن المحاولة، الغريب في الأمر هي حالة الانبساط التي تصيب الناس رغم رداءة الطعم والرائحة.

قال لي في مرة حين سألته :

-أنا بأشرب علشان أنسى ..

ولم أفهم ما الذي يريد أن ينساه، وحملت السؤال إلى جدتي ..

-أصـــله بيقول أنه عاوز ينسى .. ينسى إيه يا ستي .. طيب ماشـــى ولمـــا هـــو عاوز ينسى إيه اللى بيفكره.. هاه .. إيه اللى بيفكره ياستى.. إيه.. هاه؟؟

تطلعـــت إلى في حيرة، وهنا أدركت أن الناس لا ينصاعون دائمـــاً للأوامـــر التي تأتيهم من الآلهة، كان اكتشافاً غريباً، وزاد ألمـــي حـــين اكتشفت الاكتشاف الثاني، حين قالت لي جدتي ذات يوم:

-يا وله بطل تروح بيت ياني .. دول مش من ملتنا ..

-يعني إيه ملة يا ستي ؟

-يعني من دين تاني ..

-وفيها إيه .. هو مش ربنا واحد ..

-لأ .. هم ليهم رب .. واحنا لينا رب ..

-ويا ترى دول غير أبوللو ؟

-إلهي يخيبك وله .. يا وله اسمع الكلام وما تتعبش قلب..

- لا يا ستي والنبي .. ليه فيه ربنا عندهم .. وربنا عندنا .. وأبوللو كمان ؟ !

- يا سعاد .. يا سعاد الحقيني يا سعاد ..

- يعني ها أقابل أبوللو ولا لأ يا ستي ..

تهدأ قليلاً، وتطبطب على رأسي :

-أقطع دراعي إن ما كان لبسك .. عفريت ..

-يعني ها أقابل أبوللو ولا لأ ..

تستسلم أخيراً ..

-ها تقابله .. يا حبيبي ها تقابله .. أمال .. لازم تقابله ..

من أجل كل هذا كنت أحبها، فأمي وخالاتي لا يطيقون أسئلتي، وهي كانت وحيدة أغلب الوقت في حاجة إلى من تتحدث معه، بينما جدى لايعود إلا فى ساعة متأخرة، وقد يغيب أحيانا عدة أيام، وأمي كانت مشغولة أغلب الوقت بنا وبطلباتنا، وكانت ستي تجلس في الشرفة وتقوم بإعداد القهوة على (السبرتاية) وكنت مورد طلبات البن والعسل والطحينة التي كانت تعشق أكلهما، وكذلك "الكسبة"* من شارع (كسرى) لها، وحين سألتها عنه:

-كسرى ده اسم ملك من الروم اتسمى الشارع باسمه..

---

*الكسبة: نوع من المشهيات يشبه الجبن ذو لون غامق ومحبب ويتساقط منه الزيت وهو مصنوع من بقايا الحلاوة الطحينية.

-ولا قـصدك كـسرى عظيم الفرس .. شعوب كده في آخر الدنيا..

-لأ كـسرى الأولاني هو اللى اتسمى الشارع باسمه.. كان اجريجى كافر..

-ولمـا هو كافر بنحط اسمه ليه على الشارع .. هاه.. بنحط اسمه ليه؟؟..

-والنبي يا بني عندك حق !..

-طيب كان يعرف أبوللو ولا لأ .. لو كان يعرفه يبقى اسمه كويس .. مش كده..

-مش عارفه يا وله ..

-أكيد أبوللو زاره في يوم ..

-إلا قوللي .. انت مين اللي قالك حكاية أبوللو دي ..

-أنـا سـمعتها فى حصة وسألت المدرس .. طلع هو كمان بيحبه .. أمي وخالاتي طلعوا ما يعرفهوش .. سألت خالتى حنان قالـت إنهـا أول مرة تسمع بيه مني.. وخالتى أم هاشم قالت إنها سـمعت اسـمه لكن ماتعرفهوش شخصيا لكنها برضه عارفة إنه كـان عـايش فـي بلاد الجريج، حتى عمى خضير مايعرفهوش (وتوقفت قليلا) بس اللي يعرفه كويس قوي أكثر من كل دول عم (يانـى) .. بيقول إنهم قرايب.. علشان كده أنا باروح لعم (يانى) مـؤكد ها أقابل أبوللو عنده .. وهدى ورتني صور له في جرنان قديم عندهم شكله حلو ودقنه طويلة وبيضا قوى ياستى.. قوى.

انسحبت جدتي إلى الظل قليلاً وأغلقت عينيها فجأة ثم فتحتهما وسحبتنى نحوها، وأوسعت مكاناً لي على حجرها وأمسكت بيدها ووضعتها على رأسي، وأخذت أتمتم بما كنت أسمعه منها، ضحكت ضحكة خفيفة، ثم وضعت يدها على فمى وبدأت هى فى التمتمة وأخذت تحرك كفها على رأسي وصدري، كنت مستمتعا للغاية بمايجري لي، كان حجر جدتي هو جنتي حين أشعر بالقلق، أو يصعب على البوح بما في صدري فكنت أبوح لها بكل شئ، كنت أعلم أنها تشعر بالضجر فتنادي أمي، لكنها ماكانت تتركها تضربني، كانت تسحبني سريعا خلفها أو تضعني في حجرها، وكانت أمي تتراجع سريعا فكانت تعلم بأن نداء ستي لها ليس إلى وسيلة لتهديدى ومن ثم أصمت بعدها وأتكوم في حجرها فتبدأ هي في النوم وسرعان ما أروح أنا أيضا في النوم..

(٢٧)

صمت الشوارع يطرح نفسه علينا، فلم نستيقظ أنا وعمي خضير سوى العصر تقريباً، ولما لم يكن هناك ما نفعله حتى المساء، فقد أتى لي بملابس نظيفة لا أدري من أين، قال إنها من الراهبات الجريك (في بورفؤاد)، كنت قد أحضرت منهم أشياء

كثيرة فيما مضى أنا أيضا عن طريق (كريستينا)، سكت فجأة بعد أن لبست الملابس، بينما قال هو.

– بكره نروح الاستباليا .. أوعى تنسى لازم تفكرني .. أني* لما بأشرب بانسى.. إنت عارف..

ولا أدري كـــيف كان يمكنني أن أقوم بتذكيره، كأن لساني قد مـــات داخل حلقي أو قطع، وكأن حنجرتي لم تعد موجودة، وكأن الحـــياة كلهـــا بلاجدوى حين تفقد القدرة على الاتصال بالآخرين، كانـــت لغة الإشارة هي البديل الوحيد، وكنت أفكر بأنني لو فقدت القـــدرة على الرؤية فكيف كنت سأتصرف؟ كانت أمي تبحث عن أســـرار صمتي وحديثي فقط مع جدتي، كنت أتكلم معها فقط في المنـــزل مـــع أحاديث قليلة مع خالاتي، حتى كان هذا اليوم الذي أخذتنـــي فـــيه للاسبتاليا للبحث عن أسرار صمتي المفاجئ، لماذا كنت أصمت أياما عن الكلام مع أي أحد ؟.

## (٢٨)

كانت أمي تسحبني من يدي بينما كنت أتلفت باحثا في الوجوه عـــن مـــا لا أعلمه، حتى وجدت نفسي في حجرة الطبيب.. كان

*أني : يستخدم اسم الإشارة "أنا" في بورسعيد بهذا الشكل "أني"

الطبيب أجنبياً في زيارة لمستشفى مصر والسودان، وكان طويلاً أبيض ذو شعر ذهبي، لا أدري لماذا أتذكره حين يأتي الحديث عن أبوللو، كان يشبهه الآن إلى حد بعيد، كان الطبيب يتفحصني ويتفحص رأسي، ويحاول الحديث معي هو والطبيبة المصرية التي سألتني أسئلة كثيرة أجبت عن بعضها وفشلت في الإجابة عن البعض الآخر لا لسبب إلا لشعوري بالخجل، (ستي) الإنسان الوحيد الذي لا أشعر معه بالخجل وأمطره بأسئلتي حتى أنني كنت أسأل نفسي أحياناً من أين آتي بهذه الأسئلة ولماذا تتدافع هكذا مني نحوها ؟ كأنني أختزنتها لها، ولها فقط .. أين هي الآن ؟ كنت أشعر بأن الأمور ازدادت سوءاً في الأيام الماضية، لكن ها هو عمي (خضير) قد وجدته، وهو كما هو لم يتغير، كنت أخرج معه في رحلات صيد العصافير بالفخاخ الحديدية ذات الأنواع والأحجام المختلفة، فمنها الصغير للعصافير الصغيرة، ومنها الكبير للطيور ذات الأحجام الكبير، وكان علينا أن نذهب أولا لحفر طينية حول البحيرة لنلتقط منها كلاب البحر* البنية اللون، وكانت هذه الكلاب بجانب بقايا الخبز المبلول هما الطعام الذى نضعه للطيور على الأفخاخ أو في سنارات الصيد، ثم نجلس هناك بعيدا تحت الأشجار، هو وأنا ننتظر ما ستأتى به الريح، وكان ينام كثيرا أحيانا فيما أذهب أنا لالتقاط الطيور من الأفخاخ،

---

*تستخدم هذه الحشرات الصغيرة في بورسعيد قريبة الشبه بالصراصير لكن لها كلابات صغيرة من الأمام بديلا للدود عند الصيد.

وإن لــم نفعل ذلك نذهب لصيد السمك بالسنارة أحياناً، كنت أجلس مكانـــي لا أتكلم، لا أتحدث كثيراً مع أحد، لا أدري كيف لاحظوا فـــي المدرســة ذلــك، ظنوا أنني متخلف عقلياً في البداية، ولكني عـــدت بعـــد ذلــك، وكنت أحقق درجات عالية، على الرغم من دخولي في مشاجرات صغيرة عنيفة لأثبت لهم أنني لست مجنوناً، لكننـــي لا أدري الـــسبب وراء رغبتـــي الحقيقـــية فـــي الصمت والانعـــزالية، انـــزعجت أمـــي في البداية من اسم المرض (حالة تـــوحد) لكننـــي لم أعر هذا الأمر اهتماما، وتطلعت للطبيبة وأنا واقـــف بين أقدامها لا أدري شيئاً، وأخذت تشرح للطبيبة أحوالى، ومـــن أننى أهرب من المدرسة أحيانا إلى الشاطئ لأجلس وحيدا أغلـــب ســـاعات الـــنهار، طمأنتها الطبيبة بعد حديثها مع الطبيب الأجنبـــى الـــذى قال أيضا بأن ملامحى طبيعية وليست منغولية، وبأن السبب قد يعود فى ذلك إلى أنه تم سحبى بآلة يمكن أن تكون قـــد تسببت فى تهتك جزء من قشرة الرأس، ولكن أمي قالت بأنها ولدتنـــي ولادة طبيعـــية وإن كانـــت قد ولدتني في الماء، تعجب الطبـــيب مـــن ذلك، ربما قال أيضا بأن ذلك يمكن أن يحدث لأي إنسان، وحين قالت أمي للطبيبة بأن جانا ممكن أن يكون قد مسني ضـــحكت الطبيـــبة وقالـــت ذلك للطبيب الأجنبي فضحك كثيرا، وفهمت من حديث أمي إلى جدتي أنني أعاني من حالة بسيطة من الوحدة وأنه لا داعي للخوف على وأنهم يجب أن يتركوني أعيش بشكل طبيعي، لكني كنت ألاحظ أن تعاملهم معي كان يتسم بشفقة

زائـــدة عـــن الحـــد، إلى الدرجة التي كنت أتمادى فيها أحياناً في الشقاوة ومع ذلك لم يفعلوا شيئاً، كنت أحب ستي ثم هدى ابنة ياني ثـــم أمي ثم عمي خضير ثم جدي ثم أبى ثم خالتى حنان ثم خالتي أم هاشـــم ثم يانى وكريستينا وأخيرا حامد الفاروقى، أما الباقي فلم أكـــن أعيـــرهم اهـــتماماً إلا حـــين تحدث مشكلات تجبرني على الرضـــوخ لهم والاضطرار إلى سماعهم، وربما هذا هو أيضاً ما دفـــع أمـــي للخروج من المدينة بدوني، ربما أتت للمستشفى ولم تعرف أني موجود، وربما تركت لعمي خضير المهمة، فقد فعلتها أنـــا مـــن قبل، حين هربت إلى "كريستينا" ومكثت لديها تلك الليلة قـــريبا من شاطئ بورفؤاد وأخذنا ننصت لأصوات السفن العابرة للقـــناة، لكني لم أفهم الأمر جيداً، كان هناك شيئاً غريباً لم أدركه ولم يحدثني عنه عمي (خضير).

-أنـــت لـــيه يا وله ما جتليش هنا من أول يوم أو رحت لأم سناء أنا كنت واقف على راس القرنة في شارعها يومين ..

تطلعت إليه مستفسراً، وكان يستطيع قراءة نظراتي ..

-آه أم ســـناء موجـــودة مـــا سافرتش .. مراتي سافرت هي وبنـــتها .. قالـــت لي انت مجنون ومشيت .. وأنا سبتها تمشي .. بـــصراحة كده أني نفسي أقعد يومين مع أم سناء .. كانت كابسة على نفسي يا أخي ..

أم ســـناء عشيقته الأخيرة، لم أع على عشيقته السابقة، أما أم سناء فهي عشيقة دائمة، لا أدرى لماذا كان يسميها باسم أم سناء،

ســمعته مــرة يقول أن اسمها (أمل) لكنه لم يكن يستعمله كثيرا، يــذهب إلــيها في الليل حين يهدأ كل شيء، يعبر الطرق من قلب المدينة حتى شاطئ الكنال الداخلي فيسير بين الملاحات هناك حتى مساكن القابوطي، تاركاً خلفه مصنع الغزل والنسيج، واضعاً تحت إبطه عكازه وهو يقفز به ولا يسير، وتحت الإبط الأخرى زجاجة مــنقوع الصرم ولا يخرج من عندها إلا قبيل الفجر بقليل قبل أن يــستيقظ أي إنــسان، يلاعــب ابنتها الصغيرة ويحضر لها هدايا بسيطة، يشتري الروبابيكيا في الصباح، ويبيعها لبعض التجار في الــسوق في المساء، لا أدري إن كان يكسب من ذلك أم لا، لكنها كانت الشيء الوحيد الذي يجيده، حتى ستى قالت إنه ذات يوم باع عكازه ليلاً حين لم يجد ما يبيعه وفي الصباح اشتراه مرة أخرى، كــيف باعــه وكــيف اشتراه لا أحد يعلم ؟ ! وأنه حين يضيق به الحــال يتحول إلى سارق صغير، فينتش الأرغفة من الأفران، أو يــسرق بطيخة في السوق، أو يركض بقطعة لحم من أمام الجزار في سوق الحميدي، كان يتحول إلى سارق صغير وكان جميع من فــي المديــنة يحــبونه رغــم ذلــك، كانوا يضحكون من أفعاله، ويتركونه يفعل مايشاء.

توقفت الحياة بالمدينة، ولم تتوقف حياة عمي خضير، ها هو يــضحك ويسخر من كل شيء كعادته، ومع ذلك فلم يترك جنازة في المدينة إلا وسار فيها أو كان خلفها أو أمامها، وكان لا يتورع عــن فــتح (التربة) والدخول إلى قلبها وحمل الميت وتقليبه على

الأرض وفـــك رباط الكفن ورش العطر والمسك حول الجسد، ثم يخـــرج ليأكل لدى أهل الميت، وفي المساء يكون لدى أي عشيقة مـــن عـــشيقاته المتناثرات في أركان المدينة، حتى استقر على أم ســـناء، ها هي زوجته قد اختارت الرحيل مع أول طلقة في سماء المدينة، فبعد خديعة الأيام الأولى والتي لم يشك فيها أحد منا، كان عـــدد الطائـــرات التـــي أذيع أنها سقطت أكثر من الطائرات التي تـــوجد فـــي العـــالم، ومـــع ذلك كان الجميع يصدق، حتى وقعت الواقعة..

(٢٩)

فـــي هـــذا اليوم اللعين خرجنا جميعاً للشوارع .. كنت أشعر بأنـــنا جمـــيعاً عـــراة نرتجف في عز حر يونيو – ولم يكن أبي موجـــوداً، وكانت جدتي مستندة بمرفقيها على الشرفة .. كأننا كنا نـــسير فـــي جـــنازة جماعية .. وكنت أغمض عيني وأتخيل أنها جنازتـــنا نحـــن .. نحـــن من صدقنا كل شيء .. نحن من صدقنا الكاذبين .. كيف لم ندرك أن ذلك ممكن أن يحدث؟ لم يتخيل أحدا أن ذلك ممكنا أن يحدث ولا في أحلامه حتى، كان الجميع يثق في عـــبد الناصـــر، لقد رأيته في تلك العربة المكشوفة مع تيتو رئيس

يوغوســلافيا، حــين أخــرجونا من المدرسة لنستقبلهما بالأعلام والــورود، يــومها كــنت اشعر بهذا التوهج الغريب لأني أخيرا سأقابله، وبعد أن مر أمامي وكنت محشورا وسط الأقدام، أدركت أننــي رأيــته مــن تلك الشعيرات البيضاء في رأسه والتى كانت تقتــرب في لونها من لون شعر أبوللو، كانوا أيضا يتحدثون كثيرا عــن روسيا التي تساندنا، وعن قوة عبد الناصر نفسه، كان هناك شــيئا غريبا بين الناس يحدث، هل كان عبد الناصر بالنسبة إليهم أبوللــو كما هو بالنسبة لي، كان أمرا محيرا، وحين كنت أفكر في ذلك كنت أرتعد أن يفعل بي أبوللو مافعله عبد الناصر بنا في ذلك الــوقت بالذات، الوقت الذي انقلبت فيه عليه، وكنت أشعر بدهشة كبيــرة بــسبب موقف أبي، كان يعلم بأنه دخل المعتقل بسبب عبد الناصــر لكــنه لم ينقلب عليه أبدا، أما أنا فكنت أثور أحيانا عليه، ولم أستطع منع نفسي من ذلك.

(٣٠)

تــرتفع الرطوبة فتخفق الأنفاس في اضطراب، في الماضي كــان مــساء المدينة يمتلئ بالأبخرة التي تتصاعد في السوق من باعــة الــسمنية والتمــرية، والملاويق والزلابية، والأفران، وفي

الـــصباح كانت صيحات باعة السمك بجميع أنواعه من البربوني والـــشبار الـــصغير (الجوابى)، والباغة الأصفر اللون، والشنشلة وأبـــو كـــرش وغطى موسى والبراغيث والشيكال ثم الكابوريا أو الحناجل، إلى الأسماك ذات الأحجام الكبيرة مثل الوقار والقاروس واللـــوت والـــنقط والـــبوري بأنواعه المختلفة كالهليلي والجرانة والـــسهيلي والقـــصوفة ثـــم الشخرم والمياس والسيوف والدنيس وأشـــباهه كالصيجان والشفش والسرغس وأخيرا الأحناش وباعة الطيور كالفراخ والسمان والشرشير والمليحة، والعديد من الطيور المهاجـــرة مـــروراً بزفرات الأطفال وهم متأففون من ذهابهم إلى المـــدارس في الصباح، واحتكاكات كاوتش العجلات التي يمتطيها المـــئات في ذهابهم للهيئة والترسانة* في القناة، أو لمصنع الغزل والنـــسيج ، أما الآن فلا شيء، السماء صافية تماماً، وفي المساء القمر في السماء بدر، رمادي اللون، على البعد أرى على سطحه تلـــك الـــبقع الـــسوداء الناتجة عن احتراق الجن أو الصدأ والتى تـــتحول فـــى مخيلتى إلى أشكال حيوانات كثيرة، وكنت بشكل ما أستطيع تمييز الأرانب والسلحفات والقطط والخيول، وكنت أحياناً لا أرى ســـوى أبوللـــو بعـــربته الذهبية فقط والجياد الأربع التي تقودها، وأتسائل في نفسي متى سيأتي ؟ !

*هيئة قناة السويس والترسانة البحرية.

## (٣١)

(ستي) ترتجف فجأة حين أسألها عن السبب في اختلاف لوننا عن باقي الأسرة

-يا وله أنت مش سايب حاجة ما بتفكرش فيها .. ؟

ثم تضحك وتكشف عن أسنانها البيضاء الكبيرة.

-أصل احنا من النوبة أساساً .. بالضبط احنا من بلاد الحلفا في السودان ..

-يااااه .. من السودان .. وإيه اللي جابنا هنا ..

-ده موضوع طويل يا حبيبي .. ودماغي وجعاني ..

-طيب أنزل أشتري ليكي بن وكسبة وتحكيهولي ..

تعدني بالحكي بعد شراء البن، وحين أعود أجلس أمامها، وهي ترتشف من الفنجان وتتطلع إلى وتحكي عن جدتها الكبيرة التي أتت مع أبيها من شمال السودان أيام الخديوي، واستقرارهم هناك في القاهرة، وحين افتتاح قناة السويس استقر الرأي على أن يمكث الجد ببورسعيد لتنظيم استقبال الخديوى والامبراطورة أوجيني وبقية ملوك العالم مع الحاشية، ولما أحسن الاستقبال تم

تـــركه هـــنا لـــيقوم في كل مرة يأتي فيها الخديوي إلى بورسعيد باستقباله وترتيب إقامته وهكذا انتهى بهم الحال هناك.

-طيب وليه عين جدي زرقا ؟

-علشان أصله تركي .. أبوه كان من الأتراك العثمانلية ..

-يعني أنت أصلك سودانية .. وجدي أصله من الأتراك ..

-أيوه ..

-طـــيب هـــو أبيض خالص وانت سوده خالص .. اتجوزك إزاي ..

-ربنا يهدك يا وله .. يا وله بطل ..

ولـــم أكـــن أســـكت، كنت أعتبر ما حدث عجيبة من عجائب الدنيا، فكرت في الأمر مراراً وتكراراً، كانت جدتي سوداء للغاية وربمـــا يمكن أن أقول قبيحة، أما جدي فكان وردياً، كيف وقعت عيـــنا جدي الزرقاء الأبيض البشرة لدرجة الإحمرار على جدتي الـــسوداء تمامـــاً، وماذا أحب فيها، كنت أسير أحياناً وأتحدث إلى نفسي، إلى أن سألتها مرة أخرى ذات يوم :

-طـــب اشمعنى أنا وانت بس اللي سود والباقي بيض .. ليه ما طلعناش كلنا كده أو كلنا كده ..

ولـــم أكن قد تعرفت بعد على قانون الوراثة (المندل)، وكنت أجد ذلك أحياناً مدعاة لدهشتي، كيف أصبح كل هؤلاء السودانيين والأتـــراك واليونانيين جزءا من شعب بورسعيد، هل المصريون تجمـــع من شعوب أخرى؟ ولماذا أعطى عبد الناصر (يانى) شقة

فـــي عمارتنا..؟ حملت السؤال وركضت إليه .. فقال بلكنة يونانية لـــم تغيـــرها الـــسنين، مبـــتدئا حديثه بكلمة طبعا اليونانية والتي تـــرجمتها هدى لي ذات يوم، إذ كان يرددها دائما.. والتي أتذكر دائما أننى سمعتها من قبل لا أدرى أين؟.

-فيفـــيا .. يا حبيبي أنا مصري .. فيفيا بورسعيدي .. اوعى تفتكـــر إنـــي جريجـــي.. أنا حاربت معاكم في ستة وخمسين وما رضـــيتش أتعـــتع مـــن بورسعيد .. بيتي أنهدم في ستة وخمسين علـــشان كـــده ناصر اداني الشقة دي في عمارتكم أول ما بناها.. كتيـــر من جدودي عاشوا هنا وماتوا هنا، انت ماتعرفش بورسعيد دي بالنسبة لي إيه!!.

كـــنا خليطاً عجيباً من السكان ومع ذلك لم نتشاجر يوماً حول لـــون بشرة أحد منا، وإن كنا نعاير بعضنا أحياناً باختلاف ديانتنا وملتـــنا، ولكن لم أجد في ذلك بأساً، كانت مساكننا الشعبية غريبة الـــتكوين، كانت كل شقة يسكن بها أكثر من عائلة، خاصة عائلة الـــولد سيد الفحام وأخته لبنى، وكنا كثيري الشكل معا بسبب أخته وبـــسبب هـــدى، ولكـــن في هذا اليوم انتهى شجارنا إلى الأبد .. انـــتهت تلـــك الـــشخرات والحركات النسائية القارحة، انتهى قلب المدينة، وتحول إلى شئ آخر، انتهى التاريخ الحقيقي، ليبدأ تاريخ مـــشوه ومـــصنوع، انتهـــى ليحل محله صمت أبدي، لايمكن فك طلاسمه أبدا، كان كل شئ قد انتهى ولايمكن أن يعود أبدا سيرته الأولى.

(٣٢)

لـــم تكن معركتي الأولى في الشارع مع سيد الفحام، فقد كان ســـمينا بشكل ملحوظ ذا وجه دائري وعيون واسعة وأنف صغير للغايـــة لايكـــاد يرى، وكانت أخته تشبهه كثيرا، وعلى الرغم من شـــكلاتي معه إلا أن علاقتى بأخته كانت مختلفة تماما، وكان ذلك واحدا من أسباب شكلاتنا، والسبب الرئيسي كان ابنة ياني (هدى)، تحملت الكثير منه بسبب (هدى) وبسبب مضايقاته لها، كانت ذات شـــعر أســـود غزيـــر، وعيون زرقاء، كنت أرتاح لها ولكني لم أتحـــدث معهـــا أبـــداً، إلى أن كان يوم وقعت فيه في قعر عربة (العربـــي) بائع الفل، وهي مركونة في مدخل العمارة، وقد جعلت مقدمتها إلى أسفل أما يداها الخشبيتان فكانتا مرفوعتين لأعلى في الخلـــف، وفـــي بـــاطن العربة في الخلف وقعت (هدى)، وأخذت تـــنادي، لا أدري كيف سمعتها، كان صوتها ضعيفاً للغاية، نزلت الـــسلالم بهدوء ونظرت داخل العربة فوجدتها جالسة هناك وهي تبكي في الظلام مددت يدي إليها، فأمسكت بها، وهكذا خرجت، لم نكن نتكلم كثيرا في البداية، كنا نلعب سوياً، أو نتفرج على الأفلام التي كان يعرضها (يانى) على الحائط لليونان، وكانت هذه المرات

التي استطعت فيها أن أرى (أبوللو) عن كثب، أو تمثاله الحجري ولحيــته الكبيرة، وكنت في غاية الدهشة من هذه الآلة التي تدور وهــذه الصور التي تتحرك على الحائط، حاولت إمساكها فوجدتها تــركض على يدي، فكنت أصرخ من الفرح، وكانت هدى تنضم لــي فــي لعبتي مع الآلة العجيبة، وكان (يانى) يقف ضاحكاً وهو يتجرع (منقوع الصرم).

-الوله ده ممسوس فعلا.. فيفيا ممسوس ..

وكانــت زوجته تجلس على السرير شبه عارية، ترتدي هذا القمــيص الداخلــي اللامع كعادة نساء بورسعيد، وقد كشفت عن فخــذيها تمــسك بين يديها قطعة من الحلاوة تقوم باستخدامها في نــزع شعر قدميها، وكانت النساء في بورسعيد كثيرا مايفعلن ذلك على سلالم العمارات حين يكون أزواجهن في العمل أثناء النهار، وكــان ياني يقبل أحيانا من الداخل فيقفز إليها على السرير، وكان يــروح معهــا فــي عناق طويل، ونجلس أنا وهدى تحت السرير نــستمع إلــى ما يجري، ولم أكن أجد تفسيراً حقيقياً لتلك الشهقات المتصاعدة منهما، إلا حين سألت (ستي) التي قالت وهي تصرخ :

-الجريجــى ابــن الكلب الكافر ها يعلمك البوظان بينام مع مراته الفاجره قدامكم.. يا سعاد ..

ولم تفهم أمي من جدتي كلمة واحدة، فقد لبسها عفريتها الذي يلبــسها عادة حين تصل لأقصى درجات الغيظ، ولا تجد ما تقوله فــتأخذ فــي إصدار أصوات غريبة، أو تتكلم كأن رجلا هو الذي

يتكلم، ثم تروح في إغفاءة طويلة تفيق منها بعد مدة ولا تتذكر ما حدث.

(٣٣)

سـألتها يـوماً لماذا يحدث لها ذلك، وأجابت بأن عليها شيخاً اسمه الشيخ عثمان خلف.

-يعني إيه عليكي شيخ يا ستي ؟ !

تطلعت في وجهي طويلاً وهي ترتشف فنجان القهوة الأسود المحوج.

-يعني جوايا، ساكن جوايا .. أفهمك ازاي بس يا ربي ؟

أخـذت تشرح لي بيديها وكفيها السوداوين وأنا أحاول تصور الأمر، وأخذت انتقل ببصري من صدرها إلى كتفها الأيمن فكتفها الأيسر إلى رأسها، لكنني لم أجد أحداً، اقتربت منها وفجأة أمسكت بفمها وحاولت فتحه، فصرخت وصدتني بيدها لأسقط بعيداً ..

-أنت اتجننت يا ابن الكلب ..

-أكيد هو مستخبي في حنكك* يا ستي مش كده .. افتحي بس ها أشوف .. والله هاشوف بس واقفل حنكك على طول.

*حنك: فم

تطلعــت فــي وجهي بتردد وأنا جالس على الأرض بمرفقي الصغيرين، ثم ابتسمت فجأة تلك الابتسامة العريضة وقالت .

-تعالى .. إلهي يدوخك زي ما دوختني ..

اقتــربت منها فطبطبت على رأسي وفتحت فمها على اتساعه فــرفعت رأســي وأخذت أتجول بعيني داخل فمها فلم أعثر على أحــد، فأســقط فــي يدي وطأطأت برأسي إلى الأرض وقلت في هدوء:

-ما فيش حد خالص ..

-أصله ما بيطلعش كده يا وله ..

-بيطلع ازاي ؟ ..

-لما باتزربن ..

-يعني لو زربنتك دلوقتي ها يطلع ؟

-بــس يــا بني أنا مش عاوزه أتزربن .. تعالى .. تعالى .. أحكيلك حدوته ..

يــستقر بــي المقــام علــى فخذها فأمدد بقدمي على الكنبة التــي تلاصــق الحــائط في نهاية الشرفة والتي صنعتها لنفسها مــن الأقفــاص وبعــض الحــشيات، وأخــذ صوتها ينسكب في هدوء داخل أذني، تطلعت إليها فخيل إلى أنني أرى الشيخ عثمان خلــف فــوق رأسها وكان يبتسم لي، فابتسمت له ورحت في نوم عميق.

(٣٤)

مـــن المؤكد أن كل من ولد على الأرض ينتمى لتلك الكائنات البــشرية والكائـــنات الأخــــرى التى لاتملك سوى قدرات محددة ومـــشروطة بالارتباط بالأرض والطين، ولكن ماذا أفعل إذا كنت أنا قد ولدت فى الماء؟

هكـــذا كنت أفكر أحيانا، ولم تكن هناك ثمة عوائق يمكن أن تمنعنـــى من هذا التفكير فى ظل اتهامى الدائم باعوجاج عقلى، أو هكـــذا كنت أظن، فلم تظهر لى زعانف ولم تعل ظهرى القشور، ولـــم أكـــن صـــاحب ذيل يتراقص، ومع ذلك فلم أكن أتمكن من المكوث تحت الماء كثيرا، وحين حاولت ذلك كدت أختنق لولا يد جـــدى التى رفعتنى من تحت الماء وكنت قد بدأت أفقد إحساسى، عللـــت (ستى) أفكارى بهذا المس الغريب من الجان، والسبب فى عـــدم احتراقى هو أننى حين كنت أخرج من رحم أمى تحت الماء مسنى عون من الجن، والجن من النار، والماء والنار لايجتمعان، ضـــدان فـــريدان، وبالتالـــى فقد خرج هذا المس على هيئة أسئلة تتدافع ولاتنتهى، حتى أننى سألتها إذا كان الجن من النار فكيف لم ينطفـــئ تحـــت الماء؟ أجابت بأنها نار سحرية لاتنتهى ولاتطفئها

المـــاء، كنا نظل فى هذا الجدل لساعات، الذى زاد الطين بله هو إصرارى الدائم على الحصول على إجابات مهما كان الثمن الذى ســـأدفعه، كانـــت تلقى إلى بأول الإجابات التى تخطر على بالها، غير مدركة بأن ذلك لم يكن يشفى غليلى على الإطلاق، ولم تكن تحسب حسابا لما يمكن أن يرد على بالى بعد ذلك.

أمـــا كيف ولدت تحت الماء فهذه حكاية عجيبة أخرى حكتها لى وكنا جالسين تحت الشمسية على البحر وكنت أنا أمسك بشقفة بطـــيخ نمس، وكان عبد الوهاب يغنى (صوت الجماهير)، وكانت هـــى غارقة فى تسبيحاتها بسبحتها الخضراء الطويلة، حين سألتها فجأة:

- يعنى أنا مش ممكن أغرق..

تفزع ثم تبتسم وتخرج من تسبيحاتها وتقول

- لأ مش ممكن تغرق؟

- لـــيه بقـــى مش ممكن أغرقْ هو اني مش زى الناس اللى بتغرق؟!

- لأ ياحبيبى انت مش زى الناس ممكن تغرق..

- بس أني مرة كنت هاأغرق وجدى هو اللى طلعنى

- جدك كان بيضحك عليك.. بس انت ماتعملش كده تانى..

- طب ليه بقى مش ممكن أغرق.. هاه.. هاه ياستى.. هاه؟

- انت ياوله مش هاتبطل أسئلتك دى اللى مابتنتهيش ياوله؟

أبتسم وأتطلع إليها وأنا بين الشك واليقين، تقرأ مافى عينى

- أصلك ياوله اتولدت فى الميه..

وكانـــت تلك المرة التي توقفت عند حديثها حول ولادتي فى المـــاء، نهضت بنصف جسدى من فوق صدرها وكنت قد توقفت عن قضم شققة البطيخ المرملة، وتطلعت إليها فى استغراب!

- أيـــوه اتولدت فى الميه.. أمك ولدتك فى التهجير فى حرب ستة وخمسين..

- يااااه وبعدين..!

- كانـــت راكـــبة هـــى وجدك وأنا واعمامها على المركب، وكانت الدنيا زحمة على الآخر.. ما اعرفش إيه اللى حصل لقيتها بتغـــرق قدامـــى فـــى المـــية.. حد زقها.. اتكعبلت..المهم جدك واعمامهـــا نطوا وراها الميه وأنا ساعتها كنت بأرقع بالصوت.. وبرضـــه أبـــوك ماكانش موجود.. كان فى مصر ساعتها.. وأنا ماكنتش عاوزه أهاجر لحد مامأمك تولد.. لكن جدك قال لأ..

- وبعدين..!

- أمـــك لمـــا وقعت فى الميه من خضتها رحت إنت نازل.. أكـــيد ســـاعتها مسك العون.. جدك بقى راح ماسكها من شعرها وجـــرها لحد حفة المركب رفعها الرجالة وبعدين انت كنت متعلق مـــن تحت.. جدك برضه راح نازل تحت الميه وطلع رافعك فى إيديه وكنت انت مربوط فى الحبل السرى فيها..

- إيه الحبل السرى ده..

-ده الحـــبل اللى ربنا بيخلقه علشان يربط الولد أو البنت بأمه لما يكون فى بطنها علشان مايضيعش لو وقع منها فجأة..

- وبعدين..!

- وبعـــدين ياحبيبـــى لما انت طلعت مسكت أنا باسنانى دى الحبل ده ورحت قاطعاه..

ضحكت وقلت لها:

- وهو انت فيكى أسنان ياستى..

ضحكت هى الأخرى وقالت:

- يابن الكلب وهو أنا اتولدت كده.. كان زمان عندى

- وبعدين..!

- وبعـــدين ياســـيدى مسكتك من رجليك وقعدت أخبط على ظهرك علشان تعيط.. الغريبه إنك ياوله ماعيطتش.. بيتهيألى كده والله أعلم إنك ضحكت.. كان الصوت اللى طالع منك ضحك مش عـــياط.. حتـــى ساعتها كل الناس اللى فى المركب قعدت تضحك عليك..

- وبعدين..!

- وبعدين إيه تانى ياوله ماخلاص..

- لأ يعنى هو أنا ليه ماغرقتش..

لم ترد على، فقد سرحت بعيدا وأنا لم أكرر السؤال، وتوقفت عـــن قـــضم البطيخ، وأخذت أتفحص فى مياه البحر، كنت أدرك بـــشكل مـــا أن هناك سرا دفينا يشرح علاقتى بالبحر، كيف كنت

أهرب من المدرسة أحيانا وألتجئ إليه، فأجلس فوق تلك الصخور بعـيدا هـناك بعـد مطار الجميل، وآخذ فى الحديث إلى الجنيات اللائـى كـن يظهرن حين أكون وحيدا، أحيانا ماكنت أراهن فى لحظـات شـرودى التى لاتنقطع، لكنهن كن يختفين فجأة، إلى أن كـان ذلك اليوم الذى أعلنت فيه لجدى وأنا فوق الفلوكة بينما كان هو يغطس ويقب فى الماء خلف شبكته أننى رأيت جنيات صغيرة ملـونة، وأقسمت له أننى رأيتهن أيضا فوق سطح العمارة، وكنت ألعـب وحدى وقتها لكنهن اختفين فجأة أيضا، كأنهن يرفضن أن أبـوح بأسرارى معهن، وأدركت فى تلك اللحظة بأننى لايجب أن أبـوح بما أراه، وأن لاأتكلم على الإطلاق بما أراه، وقد يكون هذا سـبب أيـضا لمـا أنا عليه الآن من فقدانى لقدرتى على الكلام، لاتـصدق خالاتى أيضا كلامى ويضحكن على حديثى، ومع ذلك كـنت أعـاود الـصعود إلى سطح العمارة فى أيام الشتاء خاصة أوقـات المغـربية، وذات يوم من أيام رمضان، وكنت أقف فوق السطح منتظرا سماع صوت إطلاق مدفع الإفطار، رأيتهن جميعا، كـن فـى حجم الفراشات الملونة الكبيرة، كان سربا من الجنيات، يلمعـن بشدة وكن يرتفعن وينخفضن، فقفزت دون أن أدرى فجأة فـوق سـور سـطح العمـارة خلفهن، وسمعت فجأة صراخا فى الأسـفل، فنظـرت تحـت أقدامـى لأكتشف أننى أكاد أحلق فى الفضاء، فسقطت على ظهرى وأحسست بأنهن يحملننى، وبدلا من سـقوطى فـى الـشارع من الطابق الخامس، سقطت على سطح

العمـــارة، ولم أشعر بشئ بعدها، وحين فتحت عيناى، وجدت أمى وخالاتى فوق رأسى، كنت على سرير ستى أتطلع إليهن، وظننت أننـــى رأيــت الجنــيات فى الأعلى فرفعت يدى فى بطء محاولا الإمــساك بهــن، لكنهن اختفين ، ولم أحك عن مارأيته لأحد على الإطلاق ماحدث، ولا عن السبب الحقيقى الذى جعلنى أتسلق سور سطح العمارة .

ســمعت تمــتمات ســتى فأحســست بالراحة واستغرقت فى الــنوم بعيــد ذلــك، لكننى كنت متأكدا هذه المرة من أننى رأيتهن وأنهــن حقيقــيات وليس من صنع خيالى، ومع ذلك كنت أراهن كثيــرا فــى الــشوارع فكــنت أسير وأنا أبتسم دائما ولم تفارقنى الابتسامة رغم كل ماحدث إلا بعد ذلك بسنوات حين انتهى عصر الجنيات.

تطلعــت إلـــى الماء وكان انفجار الفقاقيع جميلا للغاية وكنت أميــز أصيــوات تلــك الانفجارات الصغيرة رغم كل الضوضاء المحــيطة من أصوات الناس وضحكات البنات والأولاد وصراخ الــباعة وأصوات ارتطام الكرة بالمضارب الخشبية، أمعنت النظر فى ستى فوجدتها قد نامت، فأسندت رأسى إلى صدرها وأغمضت عينى ورحت فى تلك الإغفاءة المطمئنة.

(٣٥)

توجهنا جدى وأنا بالفلوكة الصغيرة نحو عرض البحر، وكان يحاول نشر شبكته فى الهواء الذى كان يعاكسه، وحين نجح أخيرا فى ذلك، جلس منتظرا وهو شبه عار، وكانت عضلاته بارزه، خاصة وجنتيه وذقنه وعضلات يديه، وكان حزام الفتق مازال مربوطا على بطنه، كان جسده الأحمر يلمع تحت سطح الشمس، وكانت رأسه الصلعاء تنعكس عليها ظلال المياه كلما انحنى يتطلع فيها فأحسبه جزءا من هذا البحر، اشعل سيجارته وتطلع نحوى باسما، وكأنه قرر أن يحكى لى أحد أسراره:

-تعرف ياولـه.. جدى برضه كان عايش فى بورسعيد.. بورسعيد زمان كانت القناة وبورفؤاد وحى الأفرنج، وحى العرب وكانت كل بيوته خشب، كانت فاضية ماكانش فيه زحمة زى دلوقت، كان الواحد يخاف يمشى فيها بالليل لوحده..

استطرد فى حديثه عن جده، ليحكى تلك الحكاية الغريبة التى كنت أسمعها للمرة الأولى، كان جده يسير فى عز الليل على شط الكنال الداخلى، بعد أن دفعته أمه للخروج لإحضار كيس من البن المطحون، تسلح بسكين كبير وضعه فى جراب جلبابه، ومشى فى

الظلام سائرا وحيدا حين وجد نفسه أمام حائط مسدود فقفل راجعا فــى الطــريق المعــاكس، ولم يمض بضع خطوات إلا ووجد أن الطــريق أيــضا المعاكس مغلق بجدار عال يستحيل تسلقه، فاتجه نحــو الغــرب ولــم يمض بضع خطوات إلى ووجد نفس الجدار أمامــه، فاتجــه نحو الشرق فحدث معه ماحدث من قبل، فاستعاذ بالله، ولم يكمل جملته إلا ووجد أمامه حورية بحر ذات جمال فتان خــرجت مــن الماء عارية تماما تدعوه للدخول معها فى الكنال، فــصرخ فــيها بأن تنقشع، وأعطاها ظهره، فواجهته من الناحية الأخــرى وقد تحولت إلى غلام أبيض عار تماما يراوده عن نفسه فــصرخ فيه أيضا، وحول وجهه إلى الناحية الأخرى فأتته الجنية هــذه المرة على هيئة عون طويل أسود عار أيضا أخذ فى تهديده ومضايقته فما كان من الجد الأكبر سوى أن أمسكه فجأه من رقبته وأخرج سكينته سريعا يريد القضاء عليه فاسترحمه العون، فقال له جدنا الأكبر بأنه سيتركه على ثلاثة شروط أن يحضر له كيس من البن وأن يختفى هو وحوائطه، والشرط الثالث أن يعمل عبدا لديه كلمــا احــتاج إليه يحضر، وافق العون بعد أن هدده جدنا بالقتل والحــرق، وجد جدى كيس البن فى يده واختفت الحوائط، واختفى الجنــى بعــد أن وعد جدى بالحضور إليه كلما احتاجه، ومن هنا تبدو علاقة أسرتنا بالجان كبيرة ومازالت مستمرة، وعاد الجد إلى أمه وأخبرها ماحدث، فطلبت منه أن يقسم على ذلك فأقسم، وأمن الأب علــى كــلام إبــنه ومــن أنــه هــو أيضا خرج له نفس

العفريت وفعل به مافعله ابنه، ومن يومها لم تنقطع علاقتنا بهؤلاء الجان.

كنت استمع إليه وأنا غير مصدق بأن جدى يمكن أن يتحدث فى هذا الأمر، وأدركت فجأة بأن عائلتنا بها هذا المس العجيب الذى لن ينتهى أبدا، وسواء كانت جدتى أو جدى، وإلا كيف تزوج هذا الرجل الذى يشبه الملائكة من تلك المرأة السوداء.

كثرت الأسئلة فى رأسى، لماذا لابد للمرأة أن تتعرى كى تجذب الرجل، ولماذا تحولت إلى ولد أبيض عار؟ ماهذه العلاقة الغريبة التى تربط المرأة العارية بالولد العار، كان بوسع جدنا أن يطلب كنوز العالم فلماذا اكتفى بما طلبه، لماذ لم يطلب أجنحة للطيران أو أن يكون ملكا على العالم؟ لم أكن أدرى كيف تبرز هذه الأسئلة وإلى أين تختفى، كنت أتطلع إلى رأسى أحيانا فى المرآة بحثا عن مكان وجود الأسئلة والاجابات والكلام والأفعال والخيالات فلاأجد سوى ذلك الشعر الأسود الطويل وتلك البشرة السمراء وتلك الندوب بفعل معاركى الصغيرة، ( ترى أين مكان هذه الأشياء في الدماغ على وجه التحديد؟) ولما لم أهتد لشئ انتهيت إلى أننى يجب أن أقابل هذا العون الأسود الطويل وأطلب منه أجنحة فى حال ماإذا لم أستطع مقابلة أبوللو.

(٣٦)

"دقت ساعة العمل الثورى فى كفاح الأحرار"

كيف كنت أحفظ هذه الكلمات، وأرددها دون أن أفهم أو أعى كثيـرا معناها، سألت ستى لماذا تدق الساعة الآن؟! لماذا تدق فى هذا الوقت بالذات، لكنها واحدة من الأسئلة التى لم تجيبنى عليها، كـنا نـشترك معا فى إعجابنا بصوت عبد الوهاب.. لكن حكاية الـساعة كانت سرا مغلقا على كلينا، أما الكلمات التى كانت تأتى بعـد ذلك فكانت بالنسبة إلى كأنها قادمة من المريخ، سألت (حامد الفاروقـى) وكنا نسير سويا، وقد أمسكت بيده عقب خطبته لخالتى حنان، تطلع إلى وهو يبتسم:

– انت مش شايف إن عقلك صغير قوى على الكلام ده..على العمـوم ياسيدى أهى أغنية علشان الثورة تقدر تنتشر فى العالم.. عبد الناصر عاوز كده.. وفيه ناس كتير فى العالم عاوزينه يعمل كـده.. وفـيه ناس تانية بتطلب مساعدته.. هو قائد الثورة.. وفيه نـاس تالته مش عاوزاه يعمل كده.. الدنيا كده.. ناس معاك وناس عليك.. حتى لو كنت نبي!

– لكن ياعمى الثورة قامت من زمان.. فيه ثورة تانى..

– فيه.. تانى وتالت ورابع.. طالما فيه استعمار ..

– هو إيه الاستعمار.. الانجليز؟

- الانجليــز.. أو أى ناس تحتل أراضى وأملاك ناس تانية.. الأجانب اللى بيحتلوا أرضنا وينهبوا ثرواتنا..
- يعنــى لما مصرى ينهب ويسرق مصرى يبقى مش محتل برضه..
- لأ.. ده بيتسجن فى مصر وبياخد عقابه..
- يعنــى مــثلا الدكتور أبو شعر أصفر اللى فى المستشفى محتل..
- لأ .. فــيه أجانــب كويسين .. زى (وسكت لحظة).. آه.. زى يانــى مثلا.. فيه أجانب كويسين وفيه وحشين.. زى ماعندنا هنا مصريين كويسين ووحشين..
- طيب إنت مسافر اليمن ليه.. علشان تحارب الاستعمار..
- آه اليمن فيها رجعية وفيها استعمار بيشتغل مع الرجعية ..
- يعنى إيه رجعية..

رأيت قلقا فى عينيه:

- انت مش هاتبطل أسئلة..

سكت فجأة، وقد انتابتني الحيرة، لايعلم عنى الكثير، وهانحن نصطدم، فجأة لمحت أمامى على الأرض أموالا كثيرة قد افترشت المكــان، فــصرخت وأنــا أشير بأصابعى إليها، وفيما عينا حامد تــتابعان أصــابعى، كانت عشرات الجنيهات متناثرة هنا وهناك،

إضـــافة إلـــى عشرات القروش والميه فضه* والشلنات والبرايز، انحنـــيت لألتقطها،، فأوقفتنى ضغطة أصابعه على كتفى، فارتفعت معه، ووضع إصبعه على فمه وهو يحذرنى.

-إوعى تاخد حاجه مش بتاعتك..

-لكن دى مرميه على الأرض..

-وماله صاحبها هايرجع لها..

أخـــذت أتطلع إليه برهة، ثم طأطأت رأسى وعدنا للسير من جديـــد، كـــنت أقلب الأمر فى نافوخى، وأدركت بأننى لم أعرف خامـــد الفاروقـــي بعـــد، كـــيف لم ألاحظ شعره الأصفر وعينيه الخـــضراويين، كـــان جمـــيلا بقميصه النصف كم التي برز منه عضلات صدره وشعيراته الصفراء الطويلة التي تقترب من ذقنه، أمسكت بيده فى قوة فجأة وكنت أتخيل أننى أسير فعلا مع أبوللو، وكان قد غاب عنى طويلا ولكنه كان يرسل لى تلك الجنيات فأعلم أن وراءه أعمـــالا كثيرة، لكننى فى هذا اليوم لم أر جنيات، كنت أدندن بمقاطع أغنية طفولية، وأنا أتطلع إلى الشمس البعيدة الراقدة هـــناك خلـــف الـــسحب البيضاء والرمادية التي كانت تركض في ســـماء مدينتـــي، كـــنت ممسكا بيده وأنا أتطلع إليها باحثا بعيني الشريدتين عن موقع أبوللو.

*عمله كانت تستخدم حتى الستينيات تمثل قرشين صاغ.

## (٣٧)

فى تلك الليلة قبل الحرب بعدة أيام، شهدت تلك المعركة التى جــرت بــين خالتـــى (أم هاشم) وخالى (مسعد)، كانت قد عادت متأخـــرة كعادتها فى المساء، وكنا نجلس جميعا فى الصالة وكانت خالتى حنان وأبى وأمى جالسين يأكلون معا، وكانت جدتى تحكى تلـــك الحكاية الغريبة عن الشيوخ العميان وطريقتهم فى استخراج اللحـــم مـــن الطبيخ، كنا نضحك حتى تمتلئ عيوننا بالدموع، حين دخلـــت خالتـــى أم هاشم، كانت جميلة للغاية، وكانت محط أنظار كثيـــر من الشباب لكنها لم تكن تلتفت إلى أحد، كان كل همها أن تـــسافر إلـــى أوروبـــا، ســـألتها ذات مرة إن كانت ستقابل أبوللو فضحكت ولم تجيبنى، تركتنى لحيرتى، حين دخلت من باب الشقة وكانـــت ملامحهـــا تشى بالسعادة، قالت وهى على الباب دون أن تنتبه لوجود خالى مسعد:

–جبت تأشيرة اليونان وهاأسافر بكره..

فوجـــئت بحركة خالى مسعد السريعة، إذ فى قفزة واحدة كان قـــد أمسك بها، وانهال ضربا عليها بقبضات يده وبأقدامه، سقطت على الأرض أمام الباب وهى تصرخ وحاول أبى انقاذها منه فناله .

مــنه ضربة فى وجهه، فما كان من أبى إلى أن رفعه من وسطه وألقــى به إلى الحائط ووقف أمامه متنمرا ومستعدا للقتال، أدرك مسعد بسرعه خطأه، كان أبى بحجم مسعد مرتين، على الرغم من جـسد مسعد الرياضى إلا أنه تراجع وبدأ يتمتم باعتذارات وتوقف أبـى وتوجه نحو خالتى أم هاشم وخلفه الجميع، نهضت من على الأرض وكانت الدماء قد غطت مناطق حول فمها وأنفها وصعدت إلى خدها الأيسر مع كدمه بدأت تتحول للون الأزرق تحت عينيها الخضراوين، ورغم كل ذلك كنت أراها جميلة للغاية فأخذت أتطلع إلـيها وكان ضوء مصباح الصالة يضرب فى عينى فكنت أتخيلها ملاكا امتلأ وجهه بالدماء فكنت أضحك وأبكى فى آن واحد.

بدأت فى الكلام وانسحب مسعد إلى ركن الصالة خلف خالتى حـنان وأمى، قالت خالتى أم هاشم أنها ستسافر إلى اليونان، وهنا بـدأت أنتـبه لحديثها، أدركت للوهلة الأولى بأنها المرسال الذى سيحمل رسالتى الثانية إلى أبوللو، كان على أن أكتب الخطاب هذه اللـيلة، وفكرت قليلا بأنه قد لايعرف العربية، لكننى أفرغت هذه الفكـرة من رأسى، فأنا متأكد أنه أحد الآلهة الذين يمكنهم فك أى رمـوز، لـذلك لاداعـى لأن أنـزعج من هذا الأمر، قالت بأنها حصلت على التأشيرة اليوم وأنها ستغادر.

قـال خالى مسعد بأنه سيقتلها وأخذ يشوح بيديه، فيما خالاتى يحاولن تهدئته، قال لها

-"لــو مــشيتي هاأمرعك*.. عايزة تمشى علشان السنكوح**
بتاعك الجريكي.. مش هايحصل.. على جثتي"

تطلعت إليه، ولم تتكلم، كنت أعلم أنا وهي بأنه كثير الخطايا، وكــنت أعلم بمحاولته لتقبيل كريستينا، لكنني كنت نسيتها في ظل انشغالي بأبوللو، بينما ظل هو مستيقظا إلى أن سقط على الأرض نائمــا فى الخامسة صباحا، وهنا نهضت هى أمامنا جميعا وملأت حقيبــتها ببعض الملابس وخرجت لاتلوى على شئ، فيما أنا كنت قد ناولتها رسالتى إلى أبوللو خلسة اثناء دخولها الحجرة.

كنا نعلم منذ زمن طويل أنها قررت السفر إلى اليونان للعمل أو للــزواج، كــنا نعلم جيدا بأنها تحب هذا البحار الجريكي، تكلم الجميع معها، لكن لم يستطع أحد أن يثنيها عما تريده، كانت قوية للغايــة، تــشبه جــدي فــي عــناده، الوحيد الذى لم يحضر هذه المناقــشات كان خالى مسعد، صحيح أنه حضر مرة من المرات ولكنه لم يعر الحديث أهمية واكتفى بوعيده، وكان دائم الغياب فقد كانــت كــل أعمالــه فى الإسكندرية، أبدى رفضه المطلق لفكرة الــسفر، وتكهــرب الجو، وسكتت خالاتى، وانتهى الموقف، لكن الجمــيع كان يتوقع حدوث ذلك، على الرغم من كل الاعتراضات التــى جــرت إلا أنها كانت تزداد عنادا وتظل تكرر كلمة لا دون توقــف، كنت أراها مثل جدي أحيانا، وهكذا فى الفجر تسللت من

*يمرع : يقطع أو يمزق والمعنى سوف أمزق جسدك.
**السنكوح : الفقير النكرة

أمامـــنا وفـــتحت الباب دون أن يعترض أحد، ونزلت على السلم مـــتوجهة إلـــى القاهرة ومنها إلى بلاد الجريج، أخذنا نتطلع إليها جميعا من الشرفة، بكينا جميعا، أما أنا فكنت سعيدا للغاية لأن أحد أفراد أسرتى سيقابل أبوللو أخيرا وسيعطيه رسالتى.

(٣٨)

هل حان الوقت لأحكى ماذا كتبت لأبوللو، الحقيقة أنه لم يكن أمامى وقت طويل لأكتب للمرة الثانية، كنت قد كتبت إليه من قبل مـــنذ عدة شهور وكانت معنا كريستينا، كتبت الرسالة معي، كتبت بأحـــرف يونانية لم أفقهها وكتبت أنا بالعربية، كتبت كل ماأمليته علـــيها بالعربية نقلا عن رسالتي فالتزمت بكل ماقلت وأكدت لي خالتي ذلك، لكنني اكتشفت بعد برهة من الزمن أن ذلك لم يتم وأن كريستينا، أرفقت طلبا بطلبي وهكذا تيقنت من أن أبوللو لن ينظر للرسالة، وتشاكلت مع كريستينا، وحين ضحكت في وجهى نسيت الأمر وقررت أن أكتب إليه يوما ما لوحدي، والآن علي أن أكتب إلـــيه الرسالة بالحروف العربية فقط، لم أكن متأكدا من أنه سيحل رمـــوزها، لكننـــى استـــسلمت لفكـــرة أنه إله وأنه يعرف جميع الحـــروف، كـــنت أدرك بأن خالتى أم هاشم سترحل سريعا، ولن

يـــوقفها خالـــى مـــسعد أو غيره، كنت أرى ذلك فى عينيها، فى عـــصبية كفـــيها البيـــضاوين، وفـــى حركات شفتيها القرمزيتين السريعة، كتبت ورقة من عدة سطور قصيرة ووضعتها فى ظرف صـــغير وكتـــبت علـــيه من الخارج إلى أبوللو ثم بدأت في كتابة رسالتي إليه

" أنـــى أعرفك من زمان .. بس انت ماتعرفنيش .. أنى من مـــصر.. بلـــد الفـــراعنة.. أنـــى مش طالب منك كتير.. كل اللى عـــاوزه بس جناحين.. شفت حاجه صغيره قوى .. عايز أطير.. ولـــو مش قادر تدينى جناحين.. خللينى أطير معاك مرة.. كمان أنـــى عـــارف انـــك بتتعـــبد هـــناك فى بلاد الجريك.. ولا بطلوا يعـــبدوك.. لأنى فاهم انك اله قديم قوى.. وعلى فكرة أنى عارف أبـــوك زيـــوس.. وعـــارف انه بيشرب منقوع صرم ومابيبطلش جـــرى ورا النـــسوان.. لو مش قادر يعنى..يعنى لو مش قادر.. ممكـــن أركـــب معـــاك عربيتك الدهب ونلف لفه كده فى السما.. أرجـــوك حققلى الأمنيه دى.. أنى صحيح صغير ويمكن تشوفنى قد عقلة الصباع.. بس برضه أنى بحبك قوى.. أنى عاوز العيال فـــي الـــشارع وخـــصوصا الوله سيد الفحام واخته يصدقوا إني عارفك ويشوفوني معاك.. ولو ماشافونيش مش مهم..

ملحـــوظة: انـــا ياما استنيتك فى شارع كسرى بالذات وقت الظهـــر.. اشمعنى كسرى.. علشان بيتهيألى إنه صاحبك.. تعرفه

**مــن زمــان ســتى قالتلى كده.. ولو مش صاحبك.. اهو تتعرف عليه عندنا هنا فى بورسعيد..**
**والسلام ختام"**

دســسته فــى يدها اثناء خروجها، بالتحديد أثناء نزولها على السلم، فقد ركضت خلفها، أعطيتها الخطاب في لهفة، تناولته منى وقبلتنى، وقالت لى كلمة واحدة:

-هاأوصلهوله ماتقلقش..

قبلتنــى مــرة أخــرى، تحسست موضع قبلتها، كانت ساخنة للغايــة، هبطت السلم وكانت عيناها مبتسمة، ركضت سريعا إلى أعلــى وحشرت نفسى بينهم فى الشرفة، كنت أصعد بصدرى إلى حافــة الــشرفة وكانت هي تخرج من باب العمارة، كانت تتطلع إليــنا، كانــت عيناها ممتلئتين بالدموع، وكنا نحن أيضا، وكانت جدتــى قــد ضــمتنى إليها ونحن واقفون، وكانت خالتى أم هاشم تختفــى فــى تلــك اللحظة فى ضباب الشارع التالى، بينما أخذنا للتطلع في وجوه بعضنا البعض في الشرفة دون أن ينطق أحد منا بكلمــة ما، وكانت جدتى عيناها منتفختان، فمددت يدى أمسح لها وجهها فابتسمت لى.

(٣٩)

تـــراكمات المياه الخضراء الآسنة بفعل أمواج البحر وسقوط الأمطـــار هى ماتتبقى فى نهاية الأمر فى الشوارع، كانت تذكرنى بـــشكل أو بآخـــر بالجنة، لاأدرى لماذا؟ قالت لى جدتى بأن الجنة كلهـــا خـــضراء، كنت أتطلع للمياه الخضراء الثقيلة، التى تكاثفت بفعل الطحالب، ثم أبدأ فى الركض فيها خاصة وأنا منتعل حذائى، كانـــت المـــياه دافـــئة على نحو ما، لاأدرى طبيعة هذا الإحساس العجـــيب الـــذى كان ينتابنى، كنت أتطلع لتلك البرك كأنها مروج لاتنتهى، كأننا لسنا على الأرض، وكأننى لست من أهل الأرض، كأننى أنتمى لأبوللو.

أتذكـــر الآن أن بعـــض النباتات البرية كانت تنمو فى رمال الشارع، وتتفتح أزهارها، وكذلك كان الحال على شاطئ البحيرة، وكان هناك سياج ما ممتلئ بنباتات عباد الشمس، وكنت قد علمت من يانى أن زهرة عباد الشمس تعبد أبوللو ولذلك كانت تتجه إلى الشمس دائما، لأنه إله الشمس.

كـــنت أدقـــق النظر فى الطحالب محاولا تلمسها بكفى، لكنها كانـــت تنزلق سريعا من كفى الصغيرة حين كنت أحاول الإمساك

بهـــا، حتـــى قـــبض على جدى وأنا أفعل ذلك، فطال زعيقه فى الـــشارع، وخرج الناس من كل النوافذ والشرفات يتطلعون إلينا، كـــنت أقـــف أمامـــه ويدى مخضبتان بلون الطحالب، غير مدرك للـــسبب الحقيقى لزعيقه، ويسحبنى من يدى إلى الأعلى حيث تقوم ســـتى بغـــسلى مـــن كل ماعلق بى وبحذائى وهى تتمتم تمتماتها الغاضبة، رغم ابتسامتها فى وجهى.

مـــا الذى كنت أراه فى تلك الطحالب وتلك البرك الخضراء، كأنها قطعة من كوكب آخر أو مجرة أخرى أو عالم ليس له وجود فـــى الواقـــع، ربمـــا أهـــداها إله الشمس إلى مدينتنا، لكنها كانت ســـرعان ماتجـــف تاركـــة خلفها ألوانا ذهبية وزرقاء وخضراء لاتستقر كثيرا حتى تبدأ فى الاختفاء هى الأخرى.

(٤٠)

لا أدرى الـــسبب وراء تلـــك الأسئلة التى برزت على سطح وجهى، أدرك على نحو ما تفسير تلك الأسئلة، كأن أسئلتى فاجأته فتـــركت حيرة ما فى عينيه، كان يحاول تفسير الأمر لى بهدوء، فبدأ فى فتح فمه فى تمهل وبصوت ثقيل بطئ، قال:

-أنـــا قلت لك كده.. أنا قلت إن سنك هى اللى سألت عليك.. ليه مش أمك؟ مش كده.. ماأعرفش.. أمك كمان سألت عليك.. (ثم فجـــأة ضـــاحكا) بطل شغل التلقيط ده عليه.. انشاء الله هانقابلهم كلهم..

وربـــت علـــى رأسى، بينما كنت أتطلع إليه فى حيرة أيضا، كان السؤال فى عيانى مرة أخرى ( أين ذهب الجميع؟)

تردد قليلا ثم قال:

-كلهـــم هاجروا.. يمكن راحوا المطرية.. مش هايبعدوا بعيد أبـــوك مش معاهم.. انت عارف إنه فى السجن فى مصر..يمكن راحـــوا المنـــصورة.. ويمكـــن راحـــوا الشرقية.. مش هايقدروا يـــروحوا بعـــيد.. هانجيـــبهم.. مش عاوزك تقلق.. وكمان يعنى علـــشان تـــصدقنى.. إنت عارف إنى مابخرجش من بورسعيد.. خـــصوصا رجلى بنت الكلب اللى فى شارع كسرى.. تعرف ليه مادفنـــتهاش.. لإنهـــا انحـــشرت فى الدانة وخدتها جوه الأرض.. ونـــسيتها بعـــد كده.. الغريبة إن الدانة انفجرت بعد ماشالوني من علـــى الأرض وبعـــدنا.. أنا لأول مرة .. أهو لأول مرة هاأخرج معاك لحد مانلاقيهم.. ماتقلقش ياوله.. ياوله إحنا دورنا عليك تلت أيـــام.. عـــارف يعنى إيه.. ناس قالوا إنهم شافوك راكب عربية وطلعـــت بـــره بورسعيد.. وناس قالوا إنك ركبت القطر.. سمعنا كـــلام كتير.. عموما ياسيدى كلها يومين ونروح لهم.. هاأوصلك لحد عندهم ماتقلقش..

توقف عن الربت على رأسى فاستكنت لحظات، ثم هب واقفا وقال:

-يلــلا بيــنا هانروح لأم سناء.. أهو على الأقل نقعد عندها اليومين دول لحد مانشوف لينا صرفة..

وضـــع فردة الحذاء الوحيدة فى قدمه وتناول عكازه فنهضت معه وخرجنا سويا إلى ظلام الشوارع الخرمس* والصمت.

(٤١)

دقـــات خطواتـــنا الآدمية الثلاثية، والرباعية خشبية الصوت، أكاد لاأتبين صوت خطواتى، تنفرك تحتنا حبيبات الملح والرمال، فـــى الوقت الذى كنت أنصت فيه إلى صوت دقات قلبى، كيف لم أكن أسمع صوت دقات قلب جدتى، وحين سألتها عن ذلك ابتسمت وجذبتنى إلى حضنها مرة أخرى.

يسألنى فجأة عمى خضير:

-أمك ماسابتش لك فلوس..

هززت رأسى

*الخرمس : المظلمة الساكنة والتي لايسير فيها أحد، لفظ شائع في بورسعيد.

-يبقـــى أمـــك سابتهم لك قبل ماتسافر هى واخواتك وستك.. يللا بينا الأول نروح نجيبهم وبعدين نروح لأم سناء بعد كده..

أدركـــت أن بـــه خلـــلا ما هو الآخر، فلم نكن نتحرك بشكل منطقـــى، كانـــت الفكـــرة تأتى لرأسه فى أى وقت فينفذها، تاركا الفكرة الأولى التى كان يعمل من أجلها، كان ذلك غريبا بشكل ما، لكنـــنا كنا تعودنا على أفعاله، فلم أجد فى ذلك جنونا، وإنما غرابة بشكل ما لاأستطيع تحديدها، كيف بدأت معه، وانفلتنا عائدين مرة أخرى.

تـــناول منـــى الجنـــيهات الثلاثة التي أخرجتها من الدولاب، وأثـــناء نـــزولنا لمحـــنا هذا الضوء المتسرب من تحت باب شقة (يانى)، خبط الباب انتظرنا طويلا حتى فتح الباب وظهرت زوجة يانـــى و(هدى) خلفها، صرخت فى وجهنا من الفرحة، لاأدرى إن كانت عانقت عمى خضير أم لا، لكن من المؤكد أنها حضنتنى فى عـــنف وقبلتنـــى، كان لقاء ماأحوجنا إليه فى تلك اللحظة، وبدأت تـــسألنى أسئلة متوالية حول الجرح فى رأسى وذقنى، وأنهى عمى خضير الموقف بأنه سيحكى (لها كل حاجة)، وقال بأنني لاأستطيع الكـــلام، تطلعـــت في وجهى وكانت ملامحى ساكنة تماما في تلك اللحظة.

كأننـــى كنت أتطلع إلى شقة يانى للمرة الأولى، كانت تمتلئ بالـــورود والنـــباتات، التى عرفتها فيما بعد لكنى ميزت الياسمين وأعـــواد الفل والجرونيا واللانطانا والبلمباو، كان له مزاجا غريبا

فــي اقتــناء الورود، كنت أرى ذلك حتى لدى الجريج الذين كانوا يــسكنون بورفــؤاد، مــا الــسبب وراء تعلقهم بالنباتات إلى هذه الدرجــة؟! وكيف لم تنتقل إلينا هذه الحاسة؟! هل كان ذلك غريبا أيضا؟

أقــبل (يانى) من الداخل، جلسنا حول الطبلية الخشب، وكان ذلــك غــريبا أيضا، كأنني كنت أستعيد رؤية كل شئ من جديد، وضعت المرأة الطعام وزجاجة كبيرة من منقوع الصرم، الذى قال عنها يانى

-إزازة مــن ســنة (١٩٣٨)، فيفــيا.. خاجة كدة خلوة قوى ياخضير.. فيفيا..

انــشغلنا فى الحديث والأكل ثم صار الحديث ضاحكا بينهم، وتــركانا أنــا وهدى، انسحبت معها إلى غرفتها الداخلية، لم أكن قــادرا على أن أحكى أى شئ، وكنت أحاول أن أنقل لها ماحدث من خلال حركاتى، ولاأدرى حتى الآن إن كانت قد فهمت ماجرى أم لا.

اعتقدت أن عمى خضير نسى أم (سناء)، ولم أكن أدرى شيئا عــن قدرته الهائلة على التحكم فى نفسه، كانوا جالسين يثرثرون فــى كــل شئ، عن عبد الناصر وعن ماحدث، لم يكن يعنينى فى الأمــر كله أى شئ، فعلى الرغم من كل الحب الذى كان يكنه أبى لعــبد الناصــر لكننى كنت أعتقد أنه غرر به وبنا على نحو ما، أليس هو السبب فى خروجنا من مدينتنا الآن؟ أليس هو السبب فى

دخول أبى السجن، أليس هو السبب فى ذهاب زوج خالتى حامد الفاروقى إلى الحرب من اليمن إلى سيناء؛ أليس هو السبب فى جرح رأسى، أليس هو السبب فى أننى فقدت النطق؟ كنت ناقما عليه، لكننى لم أبح لأحد بأفكارى، وكنت مترددا أحيانا بين النقمة وبين حبي له، وكنت غارقا فى أفكار أخرى حول أمى وستى وخالاتى وأخوتى، كنت أفكر أيضا فى خالتى (أم هاشم) وأتسائل عما تفعله الآن، وهل استطاعت أن تقابل أبوللو أم لا، ربما لم تستطع مقابلته، ندمت على أننى لم أذكر اسمى فى الخطاب، كأنه خطاب إلى المجهول، هل سيعرف من أنا؟، هل ستقول له إن هذا الخطاب من ابن أختى سعاد؟، هل سيتعرف على فى تلك المدينة التى ليس بها أحد إلا نحن الآن؟، وأين يبحث عنى، هل أقف فى شارع كسرى فى الظهر، وقفت كثيرا لكنه لم يأت، وهكذا كنت أفكر فى البدائل المتاحة، لو كان بإمكانى النطق لقلت ليانى، لقد حاولت على الأقل أن أشرح ذلك لهدى لكننى لم أستطع.

(٤٢)

سكر يانى بعد أن غرد ورقص هو وعمى خضير، جلسنا نتفرج هدى وأنا أثناء رقصهما، كان مشهدا غريبا لعمى خضير

وهـو يحـاول أن يرقص تلك الرقصة اليونانية ويحاول أن يدب بقدمـه على الأرض، فكان يقفز لأعلى ويهبط مرة واحدة متأبطا ذراع يانـى الذى كان منتشيا تماما، كاد يسقط أكثر من مرة، لكن ذلـك لـم يحدث، كيف كنت غارقا فى الضحك مع هدى وزوجة يانـى، كـنت أضحك بلا صوت، وأرتج مما يحدث، كان المشهد غريبا فى هذا الوقت ونحن فى هذه الحالة وكل شئ ضائع، كيف يرقـصون ويـضحكون بهذه الطريقة، لم أكن أدرك طبيعة البشر فعـلا، إنهم يرتكبون أكثر الأفعال جنونية فى اللحظات التى كان يجـب علـيهم الانكفـاء، هكـذا هم البشر، مختلفون عن الآلهة، مختلفون تماما سريعوا النسيان وسريعوا الانغماس في الحياة حين نظن أن الموت نسينا ولو للحظات، وفجأة سقط يانى مغشيا عليه، لاأدرى أيـضا كيف سحبه عمى خضير وزوجة يانى إلى السرير ووضـعاه فـوقه، وانسحبا إلى خارج الغرفة التي كنا نجلس بها حـيث كـنت راقـدا على الكنبة فى الصالة وبجواري هدى، كانا مـازالا يضحكان، تناول عمى خضير زجاجة المنقوع، وذهبا إلى غـرفة داخلـية أخرى بعد أن تطلعا لبعضهما بنظرات لم أستطع تفـسيرها فى ذلك الحين، طلبت من هدى تشغيل ذلك الجهاز الذى كـان يعرض صور التماثيل اليونانية ومنها صورة تمثال لأبوللو، اشـعلت الجهاز وجلسنا سويا فى أحد الأركان نشاهد تلك الصور المتـتابعة على الحائط أمامنا، كانت تسألنى وأحاول الإشارة إليها بمـا أعرفه كانت تصغرنى بعامين تقريبا وكانت عيناها واسعتين

جميلتـين، كانـتا تـشبهان عينى أبوللو على نحو ما، ربما بسبب أبـوها اليونانى، لكن فى تلك العينين كان هناك شيئ غامض هذا الغمـوض الدفين الغارق في الصفاء فلا أدري له أولا من آخر، كأننـى رأيتهما من قبل، كنت جالسا أتحقق منها، حين حانت منى الـتفاتة إلى أحد الأركان فوجدت تلك اللوحات التى أذكر جيدا أن يانـى كـان يـضعها علـى حامل فى مدخل العمارة لتبين عدد الطائـرات الإسـرائيلية التى سقطت أثناء الحرب، كان الأمر كله خدعـة، خدعـة لعينة، لو سقطت كل تلك الطائرات فعلا فمالذى كـان سـيدعونا إلى الخروج، من الذى كذب واستمر فى الكذب، حتى صدقنا كل شئ، هل كان يمكننى الإجابة فى تلك اللحظة، بعد أن ألقـيت باللـوحة التـى أمسكتها على الأرض وعدت لمشاهدة الـصور علـى الحائط، كنت جالسا وفجأة أعتقدت أننى نمت أنا وهـدى، اسـتيقظت على عمى خضير وهو يلكزنى في صدرى لأنهض فى تثاقل، وخلفه أم هدى تقول له:

-سـيب الوله للصبح وتعالى خده .. الوله نايم حرام تصحيه دلوقت..

-لازم يقوم لسه ورانا مشوار طويل..

خـرجنا سـويا وكانـت هـدى قد نامت على الكنبة، وكنت مـستغربا من قدرته على الصمود ومن قدرتى على ملاحقته، لم يكـن لـى غيـره فى تلك اللحظة، وقبل أن يخرج، دخل الغرفة

وأحـــضر زجاجـــة منقوع الصرم، ولفها فى جريدة قديمة بعد أن أغلقها، وقال لأم هدى:

-سلمي لى على يانى لما يصحى..

خرجت معه، فجأة قال لى:

-تعرف..

تطلعت إليه متسائلا

-هدى دى بنتى مش بنت يانى..

واستكمل..

-انــت عــارف أنا بأقولك ليه؟.. علشان مش هاتقدر تقول لحد.. كأن سرى فى بير..

كنت أتطلع إليه فى ذهول، لكن ماذا كان يعنينى فى الأمر فى تلــك اللحظة، لم يكن يعنينى إذا كانت هدى ابنته أو ابنة الشيطان، كــان كــل مايعنينـــى أن نخرج للبحث عن أمى وستى وإخوتى وخالاتـــى، أو على الأقل أن يأتى أبوللو فيمنحنى تلك الأجنحة، أم تراه كان يكذب على مثلما فعل بنا عبد الناصر، ومثلما فعل عمي خــضير الآن، هــل الجميع كاذبون إلى هذه الدرجة حتى الآلهة؟ كــيف يقــول عمى خضير ذلك، كيف؟، أخذنا نسير فى الطرقات وأنــا غــارق فـــى تلك الأفكار كان هو يتكلم فى تثاقل ولم أدرك تقــريبا شــيئا كثيــرا مماقاله، إذا كان عمى خضير هو أبو هدى الحقيقى فما الذى يفعله يانى مع تلك المرأة، هل تعمد عمى خضير أن يأتى بنا إلى بيت يانى أولا قبل أن نذهب لأم (سناء)، وإذا كان

الأمـــر كـــذلك فلماذا لم يقل ذلك مباشرة، ثم إذا كان هو الأب فما هـــى علاقـــة يانـــى بـــأم هدى، زوجها؟ ولماذا لم تتزوج عمى خضير؟، وإذا كان هو زوج أم هدى فمالذى يفعله يانى فى بيت أم هـــدى؟، وإذا كـــان الأمـــر ليس كذلك فماهى حقيقة علاقة عمى خضير بأم هدى؟ وهل يانى يعلم؟ ، أم ربما لايعلم!، خطايانا كلها تتركز هنا فى هذه المسألة على وجه التحديد أن نعلم ونتعامل بأننا لانعلـــم، كانت هناك كثير من الأسئلة التى تتلاحق، مرة يخيل لى أننـــى غيـــر معنـــى بكـــل ذلك، ومع ذلك أجد عقلى يحوم حول الإجابـــات على تلك الأسئلة، أو الباقي من عقلى على الأحرى، إذ كـــنت أعـــتقد أن جزءا من عقلى قد ذهب مع مس الجان لى حين ميلادى كما أخبرتنى ستى، وفي خضم كل ذلك كان على أن ألهث خلفـــه على الرغم من ساقه الوحيدة كان يسير بسرعة فى الظلام ويبدو أنه يعلم جيدا أين يسير، كان يشير إلى أحيانا بأماكن الحفر أو الأماكن الزلقة أو المكتظة بأسلاك الكهرباء المكشوفة أو بعض البـــرك الآسنة التي تجمعت بشكل غريب رغم الصيف القائظ، أو الحجـــارة، الـــسؤال الأخير الذى لم أستطع الإجابة عليه هو لماذا اخـــتار عمـــى خـــضير هذا الوقت بالذات ليعترف فيه بأنه الأب الحقيقـــى لهـــدى؟ لـــم أستطع أيضا أن أسأله، هل لمنقوع الصرم والـــرقص علاقـــة بهذا الاعتراف، كانت تلك الفكرة تراودني وأنا أنطلـــق خلفة، وكنت أتسائل هل يعلم الجميع بتلك المسألة؟ ولماذا هم صامتون؟.

مضيت خلفه وكانت الأرض كلها صامتة كالعادة.

(٤٣)

كأن عمى خضير يقرأ مايدور داخل بقايا عقلى، فيندفع فجأة فى حوار طويل كأنه يدور امامى الآن:

-إيــه هــو الحقيقــى فى رأيك.. إحنا وإحنا ماشيين بالليل.. ولاتفتكــر الطــيارات الاسرائيلية اللى كانت بتقع وبنهلل لها فى الـشوارع.. ولا خطــب عبد الناصر.. ولا جيشنا اللى اتمرع فى سـينا.. ولا تفتكــر أبــوك المرمــى فــى الــسجن.. ولا ستك واخــواتك..ولا حامــد الفاروقــى اللــى سافر ومراته حامل فى شــهرين.. هايــشوف بنته ولا ابنه ولا لأ.. راح فين.. ولا هدى بنتى أنا.. اللى مااقدرش أقول إنها بنتى.. طبعا مانتش فاهم حاجة مــن اللــى أنا بأقوله.. ولاعمرك هاتفهم.. ولا حد هايفهم..تعرف ياوله..( وسكت لحظة).. حتى أبوللو بتاعك مش هايفهم.. طاعون فيك وطاعون فيه..

كــان مــنقوع الصرم قد نال منه أخيرا، كان السكر قد طوح برأسه تماما، إذ توقف فجأة وتفحصنى مليا:

-شكلك مش فاهم حاجه.. يللا امش ياوله ماتقفش..

سكت قليلا ثم بدأ يتحدث مع نفسه:

– كـــنت بحـــبها.. ولـــسه بحبها بنت الكلاب.. إيه يعني لما أهـــج؟.. هجيت ولفيت أدور على رزقي.. سبتها ليه كده من غير إحـــم ولا دســـتور مش عارف.. (والتفت نحوي).. ماتسألنيش.. ماحـــدش يـــسألني.. هي دماغي كده.. داء الطاعون في دماغي.. ست شهور.. مش كتير يعني.. رجعت في السابع لقيتها متجوزة.. بـــنت الوســـخة اتجوزت ياني القبطي..زياني اليوناني.. إزاي.. ماحـــدش سأل.. داء الطاعون فيها مَرَة يخش من تحتها..، خلفت بعـــد سبع شهور أنا بس اللي فهمت الفولة.. سبتها وهي حامل في شـــهرين.. ماكـــناش مـــتجوزين.. كنت لسه بافكر في الجواز.. ورحمـــة ســـتي ماكـــنت أعرف.. حمار.. حمااااار.. ستر عليها القبطي الجريجي الملعون.. وأنا ماعملتش كده.. حماااااار..، داء الـــسل فيه هو راخر.. داء الطاعون فيّه أنا كمان.. عرف إني أبو البـــنت هـــي قالـــت له..، نسي بسرعة، كأن مافيش حاجه.. كان فرحان بيها لأنه مابيخلفش.. أي واحد مننا كان صور قتيل.. إحنا كـــده شـــعب ناقص.. مايجيش إلا في الهايفة ويتصدر.. مين اللي كـــان ممكـــن يـــستر علـــيها وانـــا غايب.. جابت يني منين مش عـــارف..!! قعدت ألف حواليه لحد مادخلت بيته وبقيت صاحبه، رجعنا لبعض..لأ دماغك ماتروحش لبعيد..أنا مش ناقص للدرجه دي.. بحـــب أقعد معاها.. بحب بنتي وبحب أشوفها..أشوف بنتي اللي بيربيها الأجنبي.. الأجنبي أشرف مني.. الجريجي ياني طلع

جــدع قــوي وأنا طلعت خيخه.. إخيه.. إخيه عليك ياله ياخضير إخــيه.. كنت فاكر نفسك سبع البرومبه.. طلعت فالصو.. فالصو قــوي .. ماتساويش صلدي.. عرفت ليه باشرب منقوع الصرم.. ياريت تكون فهمت.. ولا مافهمتش.. طاعون فيك..!!

وأشاح بيده كأنه لم يقل شيئا على الإطلاق.

هــناك مــن خلــف مــناطق المــساكن الشعبية اتجهنا نحو القابوطــى، سرنا بجوار الملاحات، ولم يكن هناك أى ضوء لكننا كــنا نعرف طريقنا جيدا، وبين مبانى القابوطى المكونة أغلبها من طابقين توقفنا.

رفع رأسه إلى السماء قليلا يحركها يسارا ويمينا، كانت هناك بعــض النجوم، كان يبدو كأنه يتشمم شيئا ما، أو يتحسس الطريق نحــو منزل أم سناء، كان كل شئ غامضا، وكنت قد توقفت عن الأســئلة مــع زيادة إحساسي بآلام أقدامي، ولم أكن أعلم إن كان عمي خضير يعلم بهذا الألم أيضا في قدمي أم لا، كانت بي رغبة شــديدة في النوم، لكنه كان غائبا تماما في أفكاره الصامته، يحدث نفسه ولاأفهم ماذا يقول.

(٤٤)

قال لى جدى انه لو أراد الغنى لاغتنى منذ زمن طويل، كان عاقدا يديه وقد ظهرت عضلاتهما والتصق شعرصدره بجلده بفعل

المــياه المالحة، حيث وقف على حافة الفلوكة بعد أن ألقى شبكته فى الماء .

كــان يمكــنه الزواج من أم السعد بأى طريقة، خاصة وأنها تطــارده فــى كل مكان ولاتستطيع الافتراق عنه، كان يعلم ذلك جــيدا، وكــان يعلــم أن ستى تعلم ذلك أيضا، كان سيحصل على محلاتها وفاكهتها وخضارها لو تزوجها ، يتوجه إلى قلب الفلوكة ويلــف ســيجارته بعــد أن جلس وأسند ظهره إلى الخشب بقلب الفلــوكة، وبعد أن أن انتهى من لفها ووضعها بين شفتيه وأشعلها، تناول شبكة أخرى من بطنها وعقد إحدى ثقوبها على إصبع قدمه الأكبر وأخرج مغرزة وأخذ فى تضييق بعض الثقوب التى اتسعت بفعــل الأســماك التى أمسكت بها من قبل أو بعض الأشياء التى علقــت بها، أو غلق تلك الفتحات التى تقطعت أو قفل بعضها بعقد جديــدة حمــراء اللون حتى لاتهرب منها الأسماك إذا علقت بها، وكــنت أنــا أتابــع جنياتى الصغيرات على سطح الماء الذى هدأ تماما، كنت أراهن من فوق سطح الماء وهن يتحركن فى الأسفل وكنت أقول لجدى ذلك فكان يضحك ويقول

-آه يابن الكلب ياملقط..

ثــم يترك كل مافي يده وينهض واقفا ويحملنى بيد واحده من علــى أرض الفلوكة ويلقى بى فى الماء.. حيث كنت أغوص إلى جنياتى لكنه لم يكن يتركنى أهنأ، إذ أجده خلفى فاتحا لى عينيه فى المــاء ، فــنغوص معــا فــى الأماكن القريبة من الشاطئ وغير

العميقة، نظل في ذلك لساعات طويلة، كنت قد تعودت على ذلك، ولـــم أكـــن أستريح إلا حين أفعل ذلك معه، كان كثيرا مايضحك ضحكته العالية حين نستطيع الفوز بسمكة كبيرة أو بعض المحار والبكلويز الكبير.

وحـــين نعـــود إلى القارب يستمر فى حكاياته عن أم السعد، وعـــن عـــدم رغبته فى الثراء، وهى رغبة أصيلة فى أسرتنا كما قال، يعود عهدها إلى الجد الأول والجد الثانى الذى رفض عرض الجنـــى، ولـــم يطلب منه مالا، كان يردد دائما، لدينا مايكفينا وأي زيـــادة عن مايكفينا ستخصم من حق إنسان آخر، كنت أتعجب من طريقته في التفكير، لكني لم أقل لأحد أبدا ماأفكر فيه!.

(٤٥)

- قربنا نوصل..
- مهما وصلنا هانفضل برضه بعيد..

كـــان الـــتعب قـــد حل بى وهو مازال فى ألغازه كنت اشعر بـــذلك، أشـــرت له بما معناه، هل دنونا، فأجابنى بذلك اللغز الذى تركه لى.

(٤٦)

كــان يانـــى كثير الحديث عن بلاد (الجريس) التى كنا نطلق علـيها (الجــريك) أو (الجــريج) ، يأخذ فى شرب مشروبه وهو جــالس علـــى تلـــك الطاولة فى ركن الصالة مرتديا فانلة داخلية بيــضاء، لم أعرف وقتها أن تلك البلاد تسمى بلاد الإغريق، كان نقــلا غــريبا للحــروف، لكن كيف كان يتأتى لى وقتها مع عدم معرفتى التعبير عن ذلك، ولم أدر حقيقة من نشأ أولا الإغريق أو الفراعنة وماهى العلاقة بينهما، وماهى العلاقة بيننا الآن وبين من عاشـــوا فـــى تلك العصور، كان ذلك فوق إدراكى وفوق عقلى، تحــدث عــن هذا المعبد العجيب الذى يقع فى أعلى تلة فى أتينا، وكـــيف كان يصطحب عشيقاته الصغيرات إلى هناك، وكيف كان ينتظر تلك الطيور الكبيرة فى قلب الليل ولكنها أيضا لم تكن تأتى، فكـــان يتخـــيلها بعد أن يكون قد غرق فى مشروبه مع البنت التى معـــه فلا يعد يفرق بين الحقيقة والخيال، كيف كان يتخيل رحلات أوديسيوس وهو واقف على الشواطئ الصخرية فى اليونان، وقال إنه كثيرا ماكان ينزل الماء ينتظر جنيات البحر، كان يتخيل أنهن يتراقصن حوله ايضا.

هـل اختلقت ذلك عن طريق (يانى)، فاستقرت تلك الخيالات داخلـي لـتأخذ معهـا عقلي كله، كنا أنا وجدى فى الفلوكة وكان غاطـسا تحت سطح الماء فأخبرته بأننى رأيت الجنيات فابتسم فى وجهـى، وسألنى فى تحد عن مكانهن الآن، لاأدرى لماذا نظرت بعيدا ناحية قوس قزح الذى كان يقسم السماء وأخبرته بأنهن هناك الآن، لقـد ابتعدن بعد صعودك للماء، تطلع هو أيضا لقوس قزح، وضحك ثم صمت فجأة، وقال.

-يمكن يكون عندك حق..

تطلـع فى وجهى فى المرة الأخيرة كثيرا بعد ذلك، ولم يقل لأحد ماحدث أبدا.

(٤٧)

كنا نتجه جميعا نحو النادى، حيث سيتم زفاف حامد الفاروقى إلـى خالتى حنان فى تلك الليلة، كان الشتاء عاصفا فى ذلك العام، وكانـت الأمطـار قـد استباحت كل الحوائط والسطوح وأسفلت شـوارع أوجيـنه والتلاتيني وكتشنر وتلك الصخور السوداء فى الحمـيدى وغيره، كان أبى يسير فى الخلف وأمامه خالاتى وأمى وإخوتى وبعض الأقارب والجيران، وكان يانى يسير مع زوجته، وكـان عمـى خـضير فى المقدمه بعكازه الغريب، يضحك مع

خالاتى، وخلفه جدى وجدتى اللذان أخذا فى حديث هامس، وكنت أسير بجانب أبى الذى لاحظ ارتعادى من البرد ففتح أزرار معطفه وأدخلنى إلى جانبه، فدخلت إلى هناك وفجأة لاحقتنى جنياتى الصغيرات فى ظلام المعطف، كن فوق رأسى تماما فانطلقت منى تلك الضحكة الطفولية، ففتح أبى معطفه فجأة وسألنى فى عنف:

-بتكلم مين ياوله؟

لم أستطع الرد، فتمتم وهو يبتسم.

-آه يابن المجانين.. هاتجيبه منين ماهو كله من ستك وجدك.

وأغلق معطفه مرة أخرى فلم أضحك لجنياتى فى تلك المرة بل أخذت أبتسم وأتحدث معهن فى صمت، حدثتهن عن تلك المرة حين انتظرني في البلكونة كان واقفا بها يتطلع إلى الشارع من حيث آتي، حين لمحني اختفى في الداخل، ورأيته وأنا صاعد فبدأت أرتعد، كنت أدري بالجريمة التي ارتكبتها عقب خروجي من المدرسة، فتح الباب، وأمسكني من ذراعي وألقى بحقيبة المدرسة، وأمرنى بخلع ملابسى، ثم قام بلحس صدرى بلسانه، كان قد أدرك أننى هربت إلى البحر، سألنى.

-رحت البحر..

هززت رأسى فى استسلام فيما كانت ستى قد أقبلت ووقفت خلفى فى انتظار ماسيفعله، وكان لابد أن ينتهى الأمر بتلك العلقة الساخنة والحرمان من الخروج، لكنه فى هذه المرة لم يفعل شيئا

مـــن ذلـــك، ســـحبنى من يدى ودخل بى إلى الحمام وفتح الدش وأوقفنى تحته، وكان يتحدث عن خطورة الذهاب إلى البحر وحيدا خاصة عند غروب الشمس لاأدري لماذا فكرت في أبوللو، أيكون هـــو الـــذي أوقـــف أبي، كنت أبتسم وأنا أشهق أيضا تحت الماء البارد، حين قال أبي:

-أحسن تغرق

-أنا مش ممكن أغرق..

-ليه سمكه ياوله..

-لأ بس انت عارف إنى اتولدت فى الميه

-انت مين اللى قالك الحكاية دى..

-ستى

-والله الولية دى خربت دماغك..

ثـــم ابتسم أخيرا وطبطب على رأسى بعد أن انتهى من إزالة رغاوى الصابون من على جسدى وقال:

-هتخـــرج معايـــا دلـــوقت.. رايحين القهوة هاطلبلك سحلب تشرب ومش عاوزك تفتح بقك خالص فاهم.. تقعد جنبى مؤدب..

كنت سعيدا للغاية فهى المرة الأولى التى يصطحبنى معه إلى المقهى، كان يعتقد بأننى كبرت وأننى يجب أن أخرج معه أحيانا.

كانـــت تلـــك المـــرة الأولى التى أرى فيها أصدقاءه وبعض أطفـــالهم فى مثل سنى، كانوا جميعا جالسين يتكلمون عن خطاب عبد الناصر الأخير وعن انتخابات النقابة وعما سيفعلونه.

أشـــار أبـــى إلى الانتهازيين الذين تحدث عنهم عبد الناصر وأنهـم لايجب أن يعطوا أصواتهم إلا لمن يستحقه، وفوجئت بأن أبـــى مرشـــح لانـــتخابات العمال فى مصنع الغزل والنسيج، كان يتحدث عن عبد الناصر وعيناه تلمعان، قال بأنه الوحيد الذى حقق أحـــلام العمال فى هذا البلد، وتحدث أيضا عن الاتحاد الاشتراكى ودوره المنتظـــر فـــى تطوير البلد وتطوير ثقافة الناس، الشعب، وبأنهم يجب أن يفتحوا أعينهم لأعداء الشعب، لاأدرى لماذا تركت الأطفـــال وانغمـــست فى متابعة هذا الحوار، وفجأة تاه كل الكلام منـــى حين رأيت جنياتى، كن هناك بعيدا فى السماء، وفجأة خيل لى أننى لمحت أبوللو معهن فى السماء فنهضت إلى هناك، انسللت مـــن جانب أبى ولم يلاحظ هو ذلك، وقفت فى التلاتيني، فى قلب الـــشارع، بعيدا عنهم، وكادت سيارة مارقة تدهسنى، حين صرخ الناس على المقهى، نهض أبى فزعا، وركض نحوى وحملنى من علـــى الأرض فجـــأة، وأخـــذ يتحســـسنى وكنت أبتسم بشكل ما، وأجلسنى بجانبه وهو يزعق فى وجهى حين هدأه أصدقاؤه وقالوا شـــقاوة عـــيال، تطلع فى وجهى كأنه يؤنبنى على قيامى، لكننى بكيت فجأه، ولم يدر سبب بكائى الحقيقى، قال بعضهم إنه خوفى، بينما كنت أنا أعلم بأن سبب بكائى هو اختفاء أبوللو وجنياتى.

عـــدت مـــع أبـــى تلك الليلة وقد غمرت السعادة قلبى برؤية أبوللـــو حتـــى ولو للحظات، استقبلتنى ستى بجانبها على السرير، وسألتنى عماحدث فأخبرتها بكل شئ، سألتها فجأة:

-بتحبى عبد الناصر ياستى..
-أيوه بحبه
-ليه ياستى..
-مش عارفه ياوله.. بس لولا هو ماكناش سكنا فى البيت ده..

فكرت للحظات.
-سمعتى صوته وهو بيخطب فى الراديو
-أيوه ياسيدى سمعته
-تفتكرى الصوت بيتنقل فى الراديو إزاى
ابتسمت وقالت.
-مش عارفه.. بس أهو كله شغل عفاريت
-يعنى كل حاجه فيها عفاريت..
-أنا عارفه.. (ثم صمتت قليلا وابتسمت وعاودت الكلام)
- آه يامقرم*.. يللا نام..
كانت مازالت تبتسم وهى تشد اللحاف إلى صدرى وقالت:
-يللا نام .. بكره فيه مدرسة..
تطلعت إليها كانت أسئلتى بلا إجابات محددة لديها، وكان كل شئ مرتبط بالجنيات والعفاريت، أيقنت سبب حبى لستى، كانت

*مقرم: تعنى الذكى أوالحويط، الذى يدرك ماوراء الكلام.

لاتمــتلك إجابـــات عقيمة لاأفهم منها شيئا، كانت حلولها بسيطة، وكان حضنها دافئا يمتلئ بالملائكة والهدوء.

(٤٨)

كانت المرة الثانية التى أخرج فيها مع أبى قبل دخوله السجن بالقاهــرة بــزمن قليل، حين ذهبت معه إلى المصنع. ذهبت معه لــيلا، كان الجو حارا وكنت أعده بأننى ساظل مستيقظا معه حتى الصباح، رددت ذلك على مسامعه طويلا حتى رضخ فى النهاية، حملت عامود الطعام الذى تعده له أمى أثناء خروجه في الورديات الليلــية بالمــصنع، وركبت أمامه على عجلته قبل أن تبيعها أمى قبــيل الحرب بقليل، كان الجميع يحيونه وهو داخل إلى المصنع، مــنذ الــبوابة حتى قاعة الغلايات فى مصنع الغزل والنسيج، كان يــصعد علــى تلــك الــسلالم الحديدية المعلقة على الغلايات من الخـــارج، ليــراقب شيئا ما أو ليقرأ عدادات الغلايات التى كانت عقاربهـــا تدور فى كافة الاتجاهات، ثم يهبط، بعد ذلك يأخذنى فى جــولة فى المصنع، قابلت كثيرين، لاأتذكر منهم أحدا الآن سوى بــواب المــصنع، كـــان صعيديا ضخما بعض الشئ يرتدى ذلك المعطــف الصوفي ذا اللون الكاكي الكالح، وكان يشعل سيجارته

جالسا لايفعل أى شئ سوى رفع يده بالتحية للجميع، حتى أنا شخصيا لم أفلت من تحيته، كنت أشعر بأن هناك سحابة من نوع ما تقف فوق رأسه، حتى أبى حدثنى عنه ذات يوم بعد زمن طويل، فى منتصف الليل كان السهر قد أعيانى، كان يأتى لأبى كل فترة كثير من العمال بالمصنع يتحدثون معه، كانت كلها أحاديث حول انتخابات نقابة العمال بالمصنع، وكان أبى شديد الحماس، كان يتحدث كثيرا عن عبد الناصر وعن رغبته فى رؤية العمال يحصلون على حقوقهم، أبسط حقوقهم فى الحياة أن يعملوا جميعا، وأن تختفى البطالة، يذكرنى باليوم الذى ذهب فيه ليسجل اسمه فى دفتر كبير بالمحافظة ضمن الذين يبحثون عن عمل، لم يستغرق الأمر عدة أيام حصل بعدها على عمل بالمصنع، فكيف لايحب عبد الناصر.

يتذكر تلك الأيام التى كاد يتسول فيها، لولا عبد الناصر ومافعله معه، ليس مهما إن كان رآه أو لم يره، إنه يذكر ملامحه جيدا ويحفظها، ويردد كلماته فى الصباح والمساء، كان سعيدا بنا وبحياته، لاينغص حياته أى شئ، حتى كان هذا اليوم الأسود الذى كانت الحماسة قد أخذته دفاعا عن حقوق بعض العمال بالمصنع، كان يعلم بأن المدير ينتمى لتلك الشخصيات الانتهازية التى تحدث عنها عبد الناصر فى خطبه كثيرا، وحين واجهه بسرقات المصنع، وسرقات الأقمشة وبيعها في السوق السوداء، وبعدم اهتمامه بحصول العمال على حقوقهم، ووقوفه في وجه النقابة،

وبـــأن قرابته لأحد الضباط الأحرار هي السبب وراء تعيينه مديرا للمصنع بينما هو لايفقه شيئا في الحقيقة سوى مصالحه الشخصية، ونعـــته أخيـــرا بالانتهازية، وبأنه أحد أعداء الشعب، تطور الأمر ســـريعا بيـــنه وبين مدير المصنع إلى أن أمسك أبي بتلك المقشة وطـــارده فى جنبات المصنع، وفى النهاية هاهو يقضى فى السجن عـــدة شـــهور، دفاعـــا عـــن العمـــال وحقوقهم ووقوفه فى وجه الانـــتهازية، وهاأنـــا أسير فى تلك الليلة وراء عمى خضير خلف مصنع الغزل والنسيج بحثا عن أمل.

(٤٩)

مالـــذى فعلـــه خالى مسعد بعد أن هربت خالتى أم هاشم إلى اليونان، اختفى هو الآخر بعدها بعدة أيام، إثر العديد من الشكلات مـــع إخوته البنات ولما لم يجد من يقف بجانبه اختار الرحيل هو الآخـــر، قالـــت خالتـــى حنان إنه لايستطيع مواجهة كلام الناس، ولاأدرى لمـــاذا كـــان الـــناس يتكلمون؟ وماعلاقة ذلك بخالتى أم هاشـــم، إنها فى اليونان الآن تقابل أبوللو وكل الآلهة التى سمعت من يانى عنهم، لاشك أنها قابلت زيوس، ولاشك أنها زارت جبال الأوليمب، ولاشك أنها ركبت مع أبوللو فى عربته كنت متأكدا من

ذلـــك لاأدرى لمـــاذا؟ وصلنا منها خطاب بعد عدة أيام كتبته إلى خالتـــى حنان، أرسلته من بلاد الجريج، بلاد هؤلاء الآلهة العظام، قالــت إنهـــا فى أتينا، أصبحت تعمل الآن وتسكن فى أحد الفنادق القــريبة مـــن ســاحة الحمـــام هناك وقريبة فى نفس الوقت من الأكـــروبوليس، لـــم أفهم ماهو هذا الأكروبوليس، كنت أنتظر أن تحكـــى شيئا عن أبوللو، لكنها لم تذكر شيئا إلا فى نهاية الخطاب حـــين وضعت ملحوظة صغيرة موجهة لى، بأنها لم تقابل أبوللو بعـــد، لكـــنها حين ستقابله سوف تسلمه رسالتى، انتظرت خطابها الثانـــي طـــويلا لكنه لم يأت حتى خرجت أنا على حدود بورسعيد فاقدا النطق خلف عمى خضير.

(٥٠)

تـــزوجت خالتى حنان معنا فى نفس الشقة، وأصبحت غرفة الـــنوم الثالـــثة لخالتى حنان وحامد الفاروقى، حتى عاد لليمن مرة أخرى، كانت أحيانا تأخذنى معها فى خروجاتها، كانت تسير تكلم نفـــسها، أو تكلمنـــى ولم أكن أدرى بماذا أجيب، هاهى حامل فى ابنـــتها، وكـــان ذلـــك قبل النكسة بزمن طويل حين أنجبت ابنتها الأولـــى، وحينها عاد حامد من اليمن، لم يجلس طويلا، وعاد بعد

عـــدة أيام إلى سيناء، تاركا لها حملا آخر فى بطنها، وذهب أبى إلى السجن بالقاهرة.

حين أنجبت ابنتها الأولى، كنت أتطلع إليها فى لفتها، ورأيت هـــؤلاء الجنيات حول رأسها، ولم أحدث بذلك أحدا، وكان وجهها يضحك دائما، وكنت أسأل جدتى عن سبب ضحك ابنة الفاروقى، فكانـــت تقـــول لى إجابة واحدة، إن الملائكة هم الذين يفعلون بها ذلـــك، ولـــم أفهم أبدا كيف يمكن لطفل صغير أن يعقل شيئا عن الملائكة!!

(٥١)

لـــم يـــبق أخيـــرا سوى لغز وحيد لا أجد له إجابة، أين أمى وجدتى؟ ولم يجبنى عمى خضير، كان يردد فى تلك اللحظة:

– طاعـــون فـــى كل حاجة.. ظاعون فى مراتى وولادى.. طاعـــون فـــى يانـــى.. طاعون فى مراته .. طاعون فى أبوك.. طاعون فيه.. طاعون فى عفاريتك وجنياتك.. ( وتوقف ونظر لى بعينـــين ناريتين وأكمل ضاحكا) طاعون فيك انت كمان.. وكمان طاعـــون فيه.. وعلى رأي حميدو "صنعة يلعن ديك دي صنعة".. طاعـــون فـــيكم.. طاعـــون فـــيكم .طاعون فيكم ..طاعون فيكم ..طاعون فيكم ..طاعون فيكم.

وفجـــأة سقط أمامى على الأرض غارقا فى نوم عميق.. بعد ثوان تصاعد شخيره الذي أعرفه جيدا، كانت ملامحه هادئة لم أدر مـــاذا أفعـــل.. جلـــست بجانبه على الأرض أتطلع حولى، أسدد نظراتـــى السريعة المتلاحقة إلى كل الأركان علي أتبين شيئا في الظلام في البداية، أتطلع إلى السماء.. أحاول الصراخ.. لاصوت ولا حس.. كل شئ صامت.. لم أستطع أن أفهم إلى من على وجه الـــتحديد كـــان يوجه عمى شتائمه ولعناته، لقد وجهها لى ولنفسه وللجمـــيع، مـــاذا كان يقصد بهذه الشتائم المتلاحقة، ولماذا ثورته المفاجئة التى حيرتنى سنين طوال، فلم أهتد لإجابة محددة، لكنني كـــنت أعلـــم أن يفعل ذلك حين يضيق صدره فيوجه شتائمه إلى المجهـــول، إلـــى الحـــوائط، والـــسحب، والبشر الذين لايعلمون الـــسائرين عـــن بعد، ولكن منذ متى كانت مدينتنا صامتة؟.. كان علـــى أن أعترف فى تلك اللحظة أن مدينتنا ماتت وشبعت موتا.. وأنـــنا الآن جالـــسان فوق جثتها.. حتى أنا لاأستطيع أن أبكى ولا أســـتطيع أن أتكلم ولا أستطيع أن أصرخ، كنت تعبا للغاية، وكان عمـــى خضير على الأرض قد بدا هادئا تماما يتصاعد شخيره في انـــتظام كان متسارعا في البداية ثم أبطأ رويدا رويدا حتى أصبح مـــثل دقـــات الـــساعة، كان صوتا مترعا بالحياة في تلك اللحظة بالـــذات، يكسر حدة السكون والخوف الذي كان يتعاظم في البداية داخلي ثم سرعان ماسكن.

(٥٢)

وضعت رأسى على ظهره وأسلمت عينى للسماء، وكانت تلك المـــرة الأولــــى التى رأيت فيها أبوللو عن قرب، على الرغم من الليل، لكننى رأيته يسبح فى السماء هناك بعيدا خلف النجوم، وكان قــد بــدأ يقتـــرب منى هو وجياده، أراه يقترب قافزا عبر النجوم والكـــواكب، كـــان ســـريع الحركة ومع ذلك كنت أستطيع رؤية ملامحــــه جـــيدا، فابتسمت ابتسامة كبيرة، أقبل حتى وقفت عربته أمامـــى، فسحبنى من فوق عمى خضير في هدوء بديع ووضعنى جانـــبه وخلع تلك العصابة المربوطة حول رأسي، ووجدت نفسي فجأة قادرا على الكلام، قلت له جمله واحدة:

– استنيتك كتير .. الجواب بتاعى وصلك!!

ابتـــسم فـــى وجهى ثم احتضننى بيده اليمنى وكانت أصابعه كبيــــرة للغاية، وهنا أدركت أنني بصحبة إله فامتنعت عن الخوف الذي كان قد تملكني للحظات، وانطلق بى إلى السماء وهناك بعيدا رأيـــت الـــنجوم الفـــضية عن قرب، ولاعبت جنياتى الصغيرات الممتلئات بالمرح والألوان، كن يضحكن تلك الضحكات الصغيرة، يطـــرن بالقـــرب من رأسي فأتفحصهن مليا، كن جميلات بشكل

لايـــصدق، كن رغم ألوانهن مائيات الجسد فكنت أرى الكون كله مـــن خلال أجسادهن الصغيرة، كأن أجسادهن الصغيرة مرصعة بـــتلك النجوم البعيدة، أو كأن تلك النجوم كائنات حية تتحول فجأة إلـــى فراشـــات لهـــا ذيول طويلة لامعة، كنت أرى عيني أبوللو الكبيـــريتين، وكفـــه الـــضخمة وهو يناولنى قدحا ما ذهبى اللون فتجـــرعته، ثـــم صـــعد بي هناك قرب القمر الغارق في السكون، فـــضحك لـــي هـــو الآخـــر، ثم أعقب ذلك إلى الشمس فلم أشعر بحرارتها، فخرجنا من دائرتها إلى الأعالي هناك بعيدا لأغرق في هـــذا الـــنور الـــذي لاينتهي، ومعي أبوللو وجنياتي الصغيرات، ووجـــدت نفـــسى أنام وقد اطمأنت نفسي للمرة الأولى منذ رحيل جدتـــي، فهبط بى إلى الأرض مرة أخرى، ووضعنى فوق صدر عمـــى خـــضير هذه المرة الذى كان قد فرد يديه على اتساعهما، واتخذ من الأرض سريرا عريضا فى تلك البقعة الرملية، فنمت أنا الآخـــر، وكـــنت أفكـــر بأننى لم أطلب منه أجنحه لكننى فى تلك اللحظـــة كـــنت قانعا تماما بما تم، فقد تحققت كل أحلامى فى تلك الليلة هناك أمام مدخل القابوطى، ولم يرنى أحد، كنت كطفل أفكر بأنـــه على الأقل يجب أن ترى جدتى وأمى وأصحابي الذين كنت أتـــشاكل معهـــم ماأنا فيه، لكني بشكل ما كنت سعيدا بأننى كنت وحـــدى معه، وقلت لنفسى فى الصباح سوف أخبر عمى خضير بأننـــى أريـــد رؤيـــة أمى، وبأننا يجب أن نذهب إليهم مهما كلف الأمر، كنت قد اكتفيت من أحلامى فى تلك اللحظة.

(٥٣)

فتحت عينى على قرص الشمس فى السماء، كان كبيرا للغاية كأنــه ســقط مــن السماء بيننا، كأننا نحن الثلاثة هى وأنا وعمي خــضير فقــط الكائــنات الوحيدة في هذا العالم، وكأن لها عينان كبيــرتان تحدثنــى من خلالهما، وكأننى أدرك نظراتها، لكنى لم أستطع مواجهتها كثيرا، كانت حامية للغاية، ولم أدرك أننا نائمان فوق جزيرة من الملح إلا في تلك اللحظة، وكان جافا تماما، وكان عمى خضير راقدا لم يتحرك، فجأة حركتنى السخونة ولفحة هواء شاردة، تقلقل عمى خضير من مكانه وكنت قد اعتدلت جالسا، فتح عينــيه هــو الآخر ببطئ، تطلع إلى، ثم أغلق عيناه مرة أخرى، حــدقت أيضا للسماء، وعدت أحدق لقرص الشمس الذى أخذ في الابــتعاد ســريعا كما كان قريبا منذ لحظات ، كان يحاول الكلام، سمعت صوته، كأنه يأتى من قعر بئر بعيد:

(قال شيئا لم أسمعه بوضوح)

ثــم ســكت وعــاد يردد نفس الكلمات، فلم أسمع شيئا للمرة الثانية.

تطلعــت إليه، وكان يحاول الكلام، كانت شفتاه ترتعشان، ولم أدر الــسبب وراء ذلك، هل هي حمى أصابته، أم صعوبة مايريد قوله، أم أنه يشعر بالبرد فى هذا القيظ اللعين، وخرجت الحروف أخيرا من بين شفتيه:

-أمك..

ســكت للمـــرة الثانية، وكأنه عاد لالتقاط أنفاسه، كان يحاول أن يقــول شــيئا مــا لـــى، شئ شعرت في عينيه بأنه أخفاه عني طويلا، شئ لم يعد يستطع إخفاءه أكثر من ذلك، شعرت بأنه تعب للغايـــة وأنـــه خائف من أن يموت لذلك قرر أن يقول لى ماأخفاه عنـــى طـــويلا ، راح وأغمـــض عينيه، ثم عاد بنفس الكلمة مرة أخرى:

- أمك..

ثــم خفت صوته تماما، وفتح عينيه، وتطلع لي طويلا كأنه لم يرنـــى من قبل، كنت أظنه يتفحص الدم الجاف على ذقنى والذي حاولـــت غسله عدة مرات لدى أم هدى فلم أفلح، لكنه ترك آثاره علـــى تلـــك العصابة حول رأسي، كمن يراني للمرة الأولى، كأن وعـــيه أصبح ماثلا أمامه بأنني موجود منذ زمن طويل معه، كان يـــتطلع لـــي فـــي ذات الوقت كأن روحه تخرج من جسده، وعاد يكمل:

-ماتـــت .. مـــش فاهم.. ماتت .. ماتت.. طاعون في الدنيا كلها!

..

..

..

**نهاية المقطع الأول**

# المقطع الثاني

# خيار هرقل

## (٥٤)

هل كان عبد الناصر يعلم بما أنا فيه الآن؟ وهل كان بإمكانه إنقـاذي ممـا وضعني هو فيه؟ هل كان يعلم بكل ماسيحدث لي؟ وهل أستحق منه كل هذا؟ وهل دخول أبي السجن كان هو وراءه؟ هل ذهاب عمي حامد للحرب هو المسئول عنه أيضا؟ وهل خطط لكـل ذلـك؟ لماذا لم يطلب مساعدة أبوللو وربما أى إله من تلك الآلهـة التـي تسكن جبل الأوليمب، كلها كان يمكن أن يكون لها دور في حل تلك المعضلات؟ من المؤكد أنه كان سيحل له الكثير مـن هذه المسائل! هل يعلم أيضا بأنني وعمى خضير نركب هذه العـربة النقل القديمة الصدئة منذ ليلتين؟ هل يعلم بأنني لم أر أمى مـنذ ما يزيد عن الأسبوعين وبأنني غاضب من كل ماحدث لى؟ وأننـي غيـر متأكد حتى الآن من حقيقة ماقاله عمي خضير؟ هل ماتت أم أنه قال ذلك بسبب ضربة الشمس التى جعلتنا لمدة يومين نائمـين فـي منـزله قبل أن نقرر الخروج؟ أم أنه قال ذلك بفعل منقوع الصرم الذي كان يتجرعه؟ أم لأنه قد يكون.. ربما.. ربما زهـق منـي؟ حتى لو كان قد زهق مني فإنني لايمكن أن أتركه

الآن، إلى أين أذهب؟ رغم كل ذلك فإننى لا أعرف جيدا ماذا كان يمكن أن يحدث لو لم أجد عمى خضير!!

كنت أشعر بالاختناق وأنا جالس فوق عربة النقل الكبيرة وحيدين أنا وهو، نمر بالقرى المكتظة بأطفال بؤساء، والطرق الطينية الوعرة، وتلك الأسفلتية الممتلئة بالمطبات والحفر، كما أن الشمس طول النهار لاتغيب فنضطر للاختباء منها في جميع أنحاء سطح العربة، فننتقل من مكان لآخر نتحاشى الشمس، أشعر أحيانا أنها لاتود أن تغيب، والهواء الساخن السريع الحركة الذي يجفف عقولنا وأعيننا، والرطوبة الخانقة في أحيان أخرى التي تكبس على صدورنا، والحرارة التي تحرق وجوهنا وظهورنا وأقفيتنا على مهل، والكلاب النابحة، وأشجار الكافور ذات الرائحة الزكية التي نتوقف تحتها أحيانا، والتي تخفف عنى ماأراه أو أسمعه أو أحس به أحيانا، لم نكن أقل منهم، من الأشياء والحيوانات والبشر ورموز الطبيعة الخالدة، السماء خالية من السحب تماما فأشعر بها كصحراء لانهائية، لقد مددنا أيدينا لكل من كان بالطريق، حصلنا على بعض الكلمات المشجعة وبعض البيض والخبز المرحرح والشمسي والفاش والمنين والقرص والجبنة القريش والجبن القديم وحبات طماطم وخيار وكوسة وبلح وجرجير وفجل وسريس وملانة وشرش فى كيس بلاستيكي وويكة فى طبق وفخذة فرخة مسلوقة وملوحة وساندوتش باذنجان، وأرغفة ممتلئة بالفول والطعمية وبعض الشاى الناشف وبعض السكر فى النهاية وأخيرا

قطعـــة بطيخ، ولم يخل الأمر من بعض نظرات الشفقة والدعوات لـــنا، وكـــان عمـــى خضير يضع كل ذلك فى جراب من الخيش أحـــضره معه، لاأدرى إن كنت أعرف هذه الأسماء وقتها، لأنني رفـــضت طـــويلا أن أعرفها ليس لسبب محدد، لكنني كنت أعتقد بأننـــي أنتمـــي لعالم الأسماك والآلهة المحلقة حول الشمس وليس عـــالم الأرض وتلـــك النـــباتات الغريبة، كنت معلقا من عرقوبي ببورســـعيد التى أصبحت خلفى الآن بعشرات الأميال، حتى حين ذهـــبت لجـــدى الثاني في القرية لم أود أن أحفظ تلك الأسماء لكن هاأنـــا قد تذكرتها بالرغم من رفضى التام لها، لكنها كانت تتكرر بشكل دائم أمامي.

(٥٥)

هذه المرة الثالثة لى خارج بورسعيد، بعد ولادتي الغريبة فى الماء فى عام (١٩٥٦)، وزيارتي لجدي في أعماق الريف، هاهي المـــرة الثالـــثة التـــى أخرج فيها، هل كنت أرفض خروجي حين وقعـــت واصـــطدمت رأســـى بالأرض ورحت فى تلك الإغماءة فأذهـــب للمستـــشفى لترحل أمى أو تموت ومعها جدتي وأخوتي، ولأجـــد نفسى وحدي غريبا فى مدينتي التى أفرغت فجأة من كل

علامـــات الحـــياة التـــى أعرفها ولتحل مكانها حياة كاكية اللون لامعنى لها بل أكاد لا أشعر بوجودها، أمضيت عدة أيام باحثا عن عمـــى خـــضير حتى وجدته، وبعد عدة مشاوير فى المدينة قرر الرحيل فجأة بعد أن اكتشف أن أمل أم سناء قد غادرت هى أيضا، اتخـــذ قـــراره بالمغـــادرة في لحظات، قرر فجأة بعد (١١) عاما مغادرة المدينة هو أيضا، وتناسى تماما موضوع قدمه المدفونة مع دانة مدفع التي انفجرت وهو يحرك رأسه إلى الخلف يشاهدها فى قلـــب الـــشارع هـــناك فى المسافة الواقعة بين بورصة السعيدية وســـينما مـــصر، وبعـــد أن وقع صارخا في الشارع حمله الناس وركـــضوا بعيدا لتنفجر الدانة بعد ذلك تاركة حفرة كبيرة ولتختفي قدمه معها، يقول لي أحيانا وهو يضحك أن الناس كانوا يركضون بـــه وكانت رأسه تتطلع للخلف يشاهد قدمه للمرة الأخيرة قبل أن تتلاشى مع انفجار الدانة، كان يردد دائما بأن دماؤه تفرش شارع كـــسرى كله كيف نسى ذلك فجأة لا أدرى، كان قد أدمن الخروج مـــن بورسعيد والذهاب لشاطئ بحيرة المنزلة أو ليجلس هناك بين الـــتلال الرملية خلف مطار الجميل، تلك التلال الكابية اللون، كان ينتظـــر قـــدوم الـــشتاء لتكون كل صباحاته هناك لاحتساء منقوع الـــصرم وصـــيد العـــصافير والـــسمان، أما ليالي الصيف فكانت للعـــشيقات فـــي المساء، والغريب أنه كان يستطيع العوم ويغوص بهـــن فـــي أعمـــاق المتوسط، كان يصطحب عشيقاته أو زجاجة المـــنقوع الـــذي لم يتخل عنها أبدا، وكانت جدتى تردد بأن حادثة

قدمــه قد تركته مجنونا ولذلك فهي قد سامحته على كل شئ حتى لــو كان يحتسي هذا المنقوع، كانت تخاف فقط أن تطولنا جرسة* بــسبب "عمايلــه السوداء"، الغريب أنه كان يصر أن أناديه بعمي على الرغم من أنه كان أخا لأمي، كان يرفض تماما كلمة خالي، لاأدري لمــاذا؟ هل كانت هناك علاقة ما بين اختفاء أم سناء وبين رغبته فى الخروج؟ كيف سار فى شوارع القابوطى فى قلب الليل يصرخ ويحاكم الجميع، وأنا أسير خلفه لا أكاد أعي شيئا.

عــدنا بالعربة النقل مرة أخرى، إلى بورسعيد حيث أصرت الــوحدات العسكرية في الطريق على عودتنا وركوب القطار من بورســعيد، وقفنا على الرسوة هناك خارج بورسعيد، لاأدري من أين أتى هذا القطار الذي نركبه الآن، كان الرصيف ممتلئا بالبشر، وكــنت أعتقد بأن المدينة قد خلت منهم ولم يتبق سوى عمي وأنا وبعض الجنود والكلاب والفئران، حتى دلافين القناة قد هربت كما يخــيل لــي، فى القطار ركبنا سويا وهو لا يكاد يعي ماذا يحدث، كأنــنا ندخل في نفق مظلم لانخرج منه إلا لندخل نفقا آخر، كانت رحلتــنا ســويا بهدف العثور على ماتبقى من أسرتي، أما هو فلم أســتطع أن أعلــم حقــيقة أهدافه؛ فقد كان يغير رأيه دائما، كنت أنتظــر تلك اللحظة التي سيغير فيها رأيه ولم تطل كثيرا، إلى أن فــتح عينــيه فى الفجر على أصوات حركة عجلات القطار، كان

---

*جرسة : بمعنى فضيحة ومنها الفعل يجرس فلانا أي يفضحه، ربما تكون مشهورة هذه الكلمة فى محافظات مصر، لكنها تستخدم بكثرة هناك.

القطـــار يـــسير بشكل بطئ للغاية، ولم نكن ندرى السبب، وحين رفعـــت بصري إلى النافذة أخذت أتلوى وأتحرك فى عنف، وهنا استيقظ عمى خضير.

كنت أتطلع من نافذة القطار وكان الوقت فجرا، كان الضباب يرحل إلى الأعلى أو باتجاه الجنوب مع حركة رياح صيفية نادرا ماتأتي في هذا الوقت بالتحديد، كانت تهب لاندري من أين؟ وكنت قد توقفت عن التفكير في جنياتي الصغيرات وفي أبوللو منذ بعض الـــوقت، التصقت عيناي بالأسفل بجوار عجلات القطار الحديدية، كـــان يـــسير ببطء لامتناه، كأننا نركب عربة كارو، وكانت ترعة الإسماعيلية تبدو على بعد عدة أمتار.

أطل عمي خضير برأسه معي، وفجأه بدأ هائجا، ثم قام وهو يـــصرخ بإفـــراغ كل مافي جوفه، وكان صوته هو الوحيد الذي أسمعه:

-ياأولاد الكلب .. ياأولاد الكلب.. ياأولاد الكلب

وتوقـــف أخيـــرا وأخذ يتطلع في سكون وهو يلهث، ثم سقط علـــى الكرســـي بجانبـــي وانزلقت أنا إلى جواره على المقعد من النافذه.. كنت ألهث أنا أيضا في رعب، لم ينمحي هذا المشهد من ذاكرتي حتى اليوم.

(٥٦)

كـيف تنمحي انكساراتنا؟.. لاتنمحي شأنها شأن تلك الجروح العمـيقة التـي تتـرك علـى أجسادنا ندوبا غائرة يراها الجميع ويمصمـصون شفاههم، لايمكنهم رؤية ندوب عقولنا، لكنها تظل هناك في مكان ما، لاتبرحه أبدا، آلاف الذكريات الأخرى لايمكن أن تغطـيها، آلاف الأطنان من الأتربة لايمكن أن تخفيها، ملايين الأفراح لاتخفي ندوب الذاكرة، ندوب الجسد يمكن إخفاءها ببعض العملـيات الجراحية أما ندوب العقل فلاتنفع فيها أدوات الجراحة ولايـنفع لهـا الجـراحون أو الجراحات التعويضية، الحل الوحيد المثالـي كـان فـي رأيي أن نفقد الذاكرة، نفقدها تماما، أن نكون كقطعة خشب تسبح على وجه الماء، لاتدري من أين أتت ولا إلى أين تذهب، أن نفقد عقولنا فقد أصبح الإنكسار جزءا لاينفصل من ذاكـرتنا، يراوح دائما في نفس المكان، من استطاع نسيان جروح الروح والعقل..

لاأحد،

لاأحد،

لاأحد.

(٥٧)

كـــنت أحدق في القطار من الداخل بعد أن سقط عمى خضير فـــي غـــيابات النوم، واستسلم بعد أن تقيأ، رفع عكازه وأسنده إلى صـــدره وراح في غيبوبته، كانت شفتاه تتحركان، كان يحاول أن يقـــول شيئا وكنت أحاول قراءة مايقول، أحدق في وجهه، أتفحص ملامحـــه، شـــعره الناعم الأسود الطويل، وبشرته البرونزية التي اكتـــست بطـــبقة مـــن الملـــح والعرق، وتلك الغضون والتجاعيد المحفـــورة فـــي وجهه، توقفت وعدت برأسي إلى الوراء محاولا التفكيـــر فيما يحدث، لكني لم أستطع أن أدرك شيئا، كنت أتسائل عـــن قدرتنا على الرحيل بعدة ليال من إعلان عبد الناصر للنكسة والتنحي، كأنه كان يعترف بأنه لاقدرة له على احتمال الأمر، كأنه يسقط من كل تلك الأبراج التي صنعتها له، كأنه يعلن فشله، كأنه يعتـــرف بأنـــه وراء كـــل أحلامنا المستحيلة التي تلاشت في أيام قليلة، كأنه يقول لنا عليكم بالقهر، لكن هناك فى ركن ما داخلى لم أصـــدق كل ذلك، كما فعلت تماما مع جدى، لم ينهار عبد الناصر أمامـــي حتـــى بعد دخول أبي السجن، كنت مؤمنا بأنه لو عرف فـــسيخرجه، كل ماعلي أن أرسل إليه هو الآخر بخطاب، سأفعل ذلك حين أرتاح، حين أجد أمامى قلما وورقة، يجب أن أفعل ذلك

فــي أقــرب وقت، كيف لم أفكر في ذلك من قبل، على الأقل لن يفعــل معـــي مثلما فعل أبوللو، نحن هنا في مصر ولسنا فى بلاد الجــريج، مــن المؤكد أنه سيرد، إذا رجع عن فكرته في التخلى عــنا، عليه أن يطرح تلك الفكرة جانبا، عليه أن يرجع إلى مقعده ويقاتــل معنا أو نقاتل معه، ذكر ذلك عمي خضير، لقد فعلها من قــبل فى ستة وخمسين ويمكنه أن يفعلها الآن مجددا، رأيت بعض الأشـــخاص الذين ساروا في الشوارع يعلنون رفضهم لتنحيه، من أين ظهروا بعد اختفائهم من كل شوارع المدينة التي علا كل شئ فــيها العجــز والتــراب، الشوارع النظيفة اللامعة اختفت وحلت محلهــا شوارع غريبة خالية من البشر، كأنها تشبه أنفاق الفئران، كــنت أشـــعر بأن تلك الحيوانات الباقية تمرح في دمي، وتشربه، وتتقــيأه فى أركان شوارعنا وعلى شواطئنا التي ماتت، في سينما (الأهلـــي) حين كنت أهرب لأتفرج على (شازام) وهو يتحول إلى بطل طائر يجوب أعماق الفضاء والبحار، فيحمي حبيبته ويقضى على جميع أعدائه، كيف وانتنى تلك الفكرة الغريبة بأننى يمكن أن أكــون مثله؟ وحتى البطل في فيلم (سانجام) كان طيارا أيضا، أنا لــست أقــل مــنهما سواء كنت أمتلك أجنحة أو عباءة يمكن أن تــساعدني علـــى الطيــران أو أمتلك طائرة، كنت أتمنى أن أقابل أبوللـــو وجهـــا لوجه لأطلب منه تلك العباءة أو الأجنحة، كنت قد طــرحت فكــرة الطائــرة جانبا الآن، إذ ستحتاج مني إلى وقت للــتدريب عليها، أما العباءة أو الأجنحة فالعمل بهما سهل، كانت تلــك الفكرة تبدو مستحيلة لي الآن، حتى إذا امتلكت تلك الأجنحة

فإلى أين أذهب بها، أذهب إلى خالتي فى أثينا، أم أذهب إلى جدتى التـــي لاأعلم إلى أين ذهبت هي وإخوتى، ولو حاولت الذهاب إلى أبـــى فلـــن أستطع لأننى لاأعلم فى أى سجن هو الآن، فهمت من عمـــى خضير أن مصر بها عشرات السجون، ففى أى سجن هو يقبع الآن؟ أمْ أذهب إلى أمى إذا كانت حقا قد ماتت، وأذهب أيضا إلـــى جـــدى فـــى سابع أرض أبحث عنهم، كيف أدلف إلى أودية الموت؟ وكيف أتحدث مع (عزرائيل)، وماهي اللغة التى يمكن أن أتحدث بها معه؟ أتذكر كلمات جدتي حين قالت لي بأن (عزرائيل) يـــتحدث الـــسوريانية*، ولم تشف غليلى بحديثها عنها، كانت لغة ســـرية خاصة بالملائكة وبشعوب قديمة كانت تعيش في مكان ما، لاأعـــرف أين مكانهم الحقيقى، حتى بعد سنوات لم أعرف، كنت أسألها هل معنى ذلك مثلا أن كل كلمات لغتهم يغلب عليها حرف الـــسين؟ أو الـــراء أو الـــنون؟ لم تستطع أن تجبنى وهى جالسة تحتـــسي فـــنجان قهوتها الصغير، قالت فقط فى اقتضاب إنها لغة ســـنتكلم بها يوم القيامة، كيف نتحدث يوم القيامة بلغة لم نعرفها؟ هـــل سيلهمنا الله بها، ولماذا اختارها على وجه اليقين؟ لم أعرف؟ كنت أشعر بأن هناك سرا ما في كل إجابة كنت أتلقاها، هناك شئ غامض لم أستطع أن أحل ألغازه، وكنت متأكدا بأنني يوما سأحل تلك الألغاز خاصة حينما أكبر، حينما أصير في قامة أبي أو عمي خضير، لكن هناك شيئا ما أيضا يقول لي بأن ذلك ليس صحيحا،

*تنطق أيضا السريانية وهى لغة تحدثت بها عرب المشرق قبل مجئ الإسلام.

وبأنني سأخلق لنفسي دائرة أخرى من المشاكل أعيشها، وعلى ذلك كنت متأكدا بأن كل تلك الأفكار ستذوب وتختفي يوما ما، ولن يبقى على سطح ذاتي شئ آخر، أردت منذ بضع ليالى أن أقول لها ألا يشبه كل مايحدث يوم القيامة، لكنها لم تكن موجودة، فكرت في ذلك وأنا أحاول تقليد أبي في حلاقة ذقنه.

## (٥٨)

أدقق فى العربة التى جلسنا فيها، بعض النساء والأطفال الذين استلقوا على المقاعد فى فوضى عارمة، بعد عدة ساعات شاهدت الضفة الأخرى لترعة الإسماعيلية، كان هناك عساكر فى الناحية الأخرى يبتسمون ويشوحون بأيديهم، وحين نظرت لعمى خضير فى تساؤل قال:

-اسرائيليين..

أخذت أتطلع إليهم محاولا التدقيق في ملامحهم لكنهم لم يكونوا يختلفون عنا كثيرا، سوى أنه كانوا يضحكون فى الوقت الذى تصاعدت من أعماق عربة القطار التي نركبها نهنهات خفيضة لتكسر صمت العربة.

هاأنا أراهم للمرة الأولى وجها لوجه، صمت يائس مسموع ونهنهات مرتعشة، تصل إلى أسماعنا مختلطة بأصوات الضحكات

العابـــرة للتـــرعة إليـــنا، يتوقف القطار ويسير فى هدوء، تنقطع الأصـــوات فجأة، أتطلع مرة أخرى لم يكن هناك أحد فى الناحية الأخـــرى مـــن التـــرعة سوى الرمال الصفراء العريضة، اختفت الحياة فجأة كما ظهرت، كأني كنت أتطلع إلى أشباح مجهولة آتية من عدم.

يخـــرج عمـــى خضير رغيفا ويقسمه نصفين بينى وبينه، ثم يخـــرج قطعـــة مـــن الجبن الأبيض ويقسمها أيضا نصفين فيضع نصفها في نصف رغيفي ثم يقضم النصف الآخر مع قطعة خبز، أبدأ فى الأكل فى صمت، ثم أتوقف وأتطلع إليه، وأعيد النظر إليه فـــى تـــساؤل، لكنه يشيح بوجهه بعيدا عني، كان مدركا لما أريد ســـؤاله عنه، لكنه لم يجبنى، تركنى أحاول أن أتخيل كيف ماتت أمـــى؟! هـــل ماتت حقيقة أم لا؟ لم يجبنى أبدا فى تلك اللحظات، تركنـــى لخيالاتـــى وأوهامى، تركنى لأسئلة لم أسألها أبدا، كانت حيرتى هى كل عقلى فى تلك اللحظة وكانت شفتاى مخيطتين فلا أتكلم أبدا!!

(٥٩)

هاهـــو خـــيارنا الوحـــيد أنـــا وهو، بعد أن نهض من نومته الاضـــطرارية، فى القابوطى على تلك الأرض الملحية. وقال تلك

الكلمــات التــى أصابتنى فى مقتل ، كنت أشعر بأن هناك شيئا ما غيــر طبيعــى فى كلماته، لم يتحدث عن أمى إلا فى تلك اللحظة وهــو نــائم، شــتمنا كلنا ولعن جدودى وجدوده، وترك الطاعون والــسل يمرحان فى الرذاذ الذى تناثر من فمه وهو يحرك رأسه صــاحيا مــن نومــته التــى انهار فيها على الأرض، ليقرر بعد صــحيانه أن نخرج من المدينة فورا، ولم أكن أدرى كيف سنفعل ذلــك؟ فلــم يكــن هناك أحد يمكن أن يساعدنا على ذلك، إلى أن اكتــشفت أن الحياة تسير بعيدا عن ناظرى، أنا وحدى الذى كنت أراها ميتة، أنا وحدى الذى لم تكن للحياة مظاهر أمام عينيه، كأن الحياة هى ماكنت أعيش فيه، فلما انتهى ماأعيش فيه، تحولت إلى الموت، ماهو الوجود بدون أن يكون لدينا إحساس به، وحين نفقد هذا الاحساس يتحول الوجود إلى عدم، أليس هذا هو معنى الحياة.

ليــست لدينا خيارات كثيرة هو أو أنا، فخيارنا أن نبقى معا، فهــو الــباق من حياتى السابقة، ربما أكون عبئا عليه، لكنه يقول أحــيانا بأن حياته تسير كما هى فى وجودى، ولو لم أكن موجودا لفقــد طعم كثير للحياة، نتعلق أحيانا بقشة ليبقى لحياتنا طعم، وقد تكــون شــوكة، حتى الشوكة نحتاج إليها، نتشبث بها أحيانا على الــرغم من الألم والدماء التي تفجره من أجسادنا وأرواحنا، لكنها أحيانا خير من اللاشئ.

بعــد قــرارنا بالرحيل، أو قراره هو بالأحرى ولم ينتظر أى معارضـــة منـــى، سرنا عائدين إلى منزله، وهناك جلس يحتسى

مـــنقوعه، وأخذ فى حديث طويل عن أم هدى، ولم أكن أنتظر منه هـــذا الحديث، كنت أريده أن يتحدث عما حدث لأمى، لكنه لم يأبه لمـــا كـــان يراه فى عينى كان يهرب من نظراتى بشكل أو بآخر، كـــان يتحاشـــانى يكلمنى كأننى غير موجود، ربما نسى ماقاله لى عن أمى، ولم أكن أستطيع الإلحاح عليه، كنت معلقا من عرقوبى معه.

كنا نسير فى بطء عائدين إلى منزله، حين قال فجأة وهو يهز رأسه، كأنما يقنع نفسه بالفكرة قبل أن يقولها، وتحدث كأننى الذى سيتخذ القرار في الذهاب من عدمه:

– أنا عايز أروح لياني تانى..

وكـــان علـــى أن أرضـــخ لخياراته للمرة الثانية، سرت وأنا لاأعلم إلى أين نسير، ثم اصر على أسنانه وقال.

–لازم أقول له إننا هانمشى ( ثم صمت قليلا) .. مش ممكن نمشى إلا لما نقول لهم.. مش كده.. لازم نقول لهم.. عيب نمشي كـــده برضه.. مش كده.. انت إيه رأيك.. (تطلع نحوي ثم انفجر ضاحكا).. آه مش واخد بالي.. داء الطاعون في دماغي..

ولـــم أفهم لماذا يجب أن نقول لهم إننا سنغادر، من سيهتم إذا غادرنـــا بورســـعيد أو مكثنا بها، لقد غادر الجميع دون أن يقولوا لأحـــد إنهـــم ســـيغادرون، وغادر الأهل دون أن يأخذونى معهم، تركونى لحيرتى مع عمى خضير، كنت أنظر إليه أحيانا لأتأكد أنه لـــيس مجـــنونا، كيف يتأتى له أن يتجرع هذا المنقوع ويسهر تلك

الليلة الصاخبة بعد إعلان عبد الناصر للنكسة بعدة أيام، وكيف تأكد الجميع بعد الحرب بيومين أيضا أننا خسرناها رغم تأكيد الإذاعة لنا بأننا ننتقل من نصر إلى آخر، عشرة أيام انتهت فيها الحرب وغادر الجميع فجأة، خلال ثلاثة أيام خلت بورسعيد من كل شئ وأصبحت أيامى كلها هامشية لاحركة فيها ولا إحساس.

حين جلست مع هدى عاودنى هذا الإحساس قليلا لكنه اختفى بعد ذلك حتى جنياتى الصغيرات تركننى مع عمى خضير ولم يعاودن الظهور بعد ذلك، حتى بت أعتقد بأنهن لن يظهرن مرة أخرى.

خلت ذاكرتي الآن من كل الناس الذين عرفتهم خلال السنوات السابقة حتى الولد الذى كانت مشاجراتى معه لاتنتهى اختفى أيضا ذات يوم، مات، وبعدها بأيام اختفت من بعده أخته، ثم اختفت أمه وأبوه وجدته وجده مرة واحدة، لاأدري إلى أين، لكنني كنت متأكدا بأن مصير أخته سيكون مميتا أيضا، لاأدري أيضا من أين أتاني هذا الإحساس وجثم فوق صدري فلم أستطع منه خلاصا إلا بعد سنوات؟!.

أحاول أن أتذكر مشاجراتى معه فتخذلنى ذاكرتي كما خذلنى الجميع، عدا عمى خضير هو الوحيد الذى تفتحت عليه حياتى الآن، إذا صح أن أطلق عليها حياة، ليس لى خيار فى هذا الأمر، على تقبله كما هو، فهو الوحيد الذى يمكنه أن يدلنى على الطريق

الآن، الطـــريق إلى جدتى وإخوتى على الأقل، وإن كنت أعلم بأنه بحالته تلك سوف يكون طريقنا معا ممتلئا بالمصاعب.

كـــنت أدرك أن هناك مصاعب كثيرة علينا اجتيازها معا فى رحلتنا إلى مرفأ أحلامى القديمة، لكنني كنت مصمما على المضي حتـــى الــنهاية في طريق البحث عن الجميع، كنت صغيرا لأفكر بهـــذا، لكـــن هـــناك كثيرا من الأشياء في حياتنا التي تتملكنا فلا نـــستطيع منها فرارا، سواء كنا مفتوحي العينين أم عكس ذلك، إنه القدر في النهاية.

(٦٠)

لاأدرى كـــيف كـــنت أفكر بهذه الطريقة، هانحن واقفان مرة أخرى أمام عمارتنا، بعد أن هبطنا من القطار وهو متوقف وعدنا ســـائرين كـــأن بورســـعيد لا تريد لنا أن نرحل منها، تتشبث بنا، تتـــشبث بي، كنت أعشقها، كأنني لم أغادرها أبدا، هاهي السقالات الخـــشبية التـــي كانـــت معدة لإضافة طابق جديد في عمارتنا في أماكـــنها، ولم أكن أدري من سيقوم ببنائه الآن ولمن؟ ينادى عمى خـــضير علـــى ياني، لاأحد يجيب، نصعد السلالم وندق الباب بعد مدة تفتح أم هدى، تستقبلنا بنفس الترحاب وتأخذ فى إعداد الفطور فيما يأتى ( ياني) من الداخل مازحا وهو يدعك عينيه.

-انت خبيبى رخت فين؟

رد عمي خضير بنفس لهجته وهو يبتسم، وكان ( ياني) يعلم أنـــنا نحاول تقليده أحيانا، وكان مرحا للغاية، فلم يتوقف أبدا أمام محاولاتنا الطائشة معه

-اخنا رخنا مشوار صغير ورجعنا ياخواجه..

-انـــت أكـــيد مافطرتش لسه .. فيفيا ياخضير.. نفطر سوى ونشرب كاس خبيبى..

بانـــت علامات الارتياح على وجه عمى خضير، وأتت هدى مـــن الـــداخل وتعلقت بيدى. كان هناك سبب ما لعودتنا إلى يانى وهـــدى لم أستطع تحديده تماما، كان عقلي مغلقا، ومجبرا على أن أسير في نفس الطريق، كان يريد شيئا من ( ياني) لكن ماهو على وجه التحديد لم أستطع أن أخرج بتفسير واحد للأمر، لقد دخل بعد الإفطـــار إلى الغرفة الداخلية هو وياني جلسا طويلا، وحين خرجا لـــم أفهـــم شيئا كان وجه عمى خضير مصفرا، ولم أستطع تفسير ملامـــح يانـــي، كان هناك شيئا ما غير طبيعي، شتان مابين ليلة أمـــس وهـــذا الصباح، لم أسأله، كنت أسير معه فقط، كنت أفكر أحيانا بأن على أن أهرب منه، لكن كان السؤال إلى أين أذهب؟.. لـــم أستطع الاهتداء لمكان واحد، لكني عثرت أخيرا على ضالتي، (كريستينا) كيف نسيتها فى هذا الزحام، كان علي أن أذهب إليها، إلـــيها وحـــدها فقـــد كانت ملاذي دائما حين تغلق كل السبل في وجهـــى، عرفتها منذ أعوام ثلاثة حين ضللت الطريق لأول مرة، علـــي أن أذهـــب إلـــيها الآن، علي أن أحاول، لم أستطع مقاومة

الفكـــرة طـــويلا، كـــان على أن أفكر بأي وسيلة أترك فيها عمي خضير لساعات أذهب إليها ثم أعود، يجب أن أراها، الآن قبل أي وقت آخر.

(٦١)

كـــان شـــم النـــسيم، وكنا جميعا في بورفؤاد، بعد أن ركبنا المعديـــة الكبيرة التى عبرت بنا إلى الناحية الأخرى حيث تكلمت مع دلافين البحر وأنا معلق على سورها الخشبى، كانوا يصرخون علـــى هناك لكنى لم أكن أسمع سوى صوت تلك الدلافين البيضاء اللامعة تحت أشعة الشمس الهائلة التي كان يطلقها أبوللو – الذى كـــنت قد سمعت باسمه عرضا لكني لم أكن قد صادقته بعد– تلك الأشعة التي كانت تشتد أحيانا كلما تكاثفت سحب الشتاء كأنهما في صـــراع كل منهما تريد السيطرة على السماء، تحت تلك الأشجار التى تتناثر على الشاطئ المواجه للبحر جلسنا على تلك الحشائش الطـــويلة، بعـــد ساعات من أكلنا للبيض الملون والسمك البربوني المقلي على هيئة كف اليد* وكفتة البراغيث، لا أدرى كيف انسللت

*يـــتم قلي سمك البربوني الصغير في بورسعيد بطريقة مختلفة أحيانا عن قلي بقية أنـــواع الـــسمك، حيث تجمع كل أربع أو خمس سمكات وتلصق معا من ذيولها على هيـــئة مـــروحة باســـتخدام الدقيق وتقلى، ويطلق على هذا النوع من القلي "مشبك سمك".

مـــن بيـــنهم وركضت خلف تلك الطائرة الورقية الملونة، تابعتها بعيني وأنا أسير خلفها حتى وجدت نفسي فجأة بعيدا عنهم، لم أهتم كثيرا كنت أتابع الطائرة الملونة، بين تلك البيوت البيضاء المكونة مـــن طابقـــين ومتراصـــة بجوار بعضها البعض، والتى صنعت أبـــوابها وشـــرفاتها مـــن خشب أبيض لامع أيضا، انشغلت عن الطائـــرة للحظات ورحت أتفرج على تلك البيوت، وحين تطلعت للـــسماء كانت الطائرة قد اختفت، وأدركت أننى ضعت عن أهلى، وقفـــت وحـــيدا هناك بين بيتين من تلك البيوت لاأعلم ماذا أفعل، كنت أمام خيارين، إما أن أحاول العودة من حيث أتيت أو الوقوف مكاني لاأتحرك ولأنى لاأعلمَ شيئا عن الطريق الذى أتيت منه فقد اختـــرت الحل الثاني الأسهل وكانت الشمس قد بدأت في المغيب فـــي مكان ما خلف تلك البيوت البعيدة، وحين بدأ بكائى يتصاعد انفـــتح أحـــد أبواب تلك البيوت وخرجت منه امرأة صغيرة السن، بيـــضاء قـــصيرة إلـــى حد ما، ترتدي تلك الثياب البيضاء وتضع صـــليبا كبيرا على صدرها، كان وجهها ناصع البياض ، فتوقفت فجأة عن البكاء وأنا أجرى مقارنات بينها وبين ستي، كان بياضها شـــاهقا غـــريبا لم أشاهده من قبل، وكانت الأعوام الست أو السبع التـــي أرزح تحتها تسمح لعقلي بعبث طفولي غريب فكنت أركب بشرتها على وجه ستى فأجد ستي إمرأة جميلة للغاية، كيف لم أكن ألاحـــظ هذا الجمال، هل سواد اللون يمحى الجمال، وهل البياض يـــبدي الجمـــال إلـــى هذه الدرجة، توقفت عن البكاء تماما حين اقتـــربت منـــي، وأخذت تحدثني بتلك اللغة الغريبة، فلم أفهم منها

شـــيئا، قلـــت لها إنني كنت مع أهلي منذ دقائق، ولا أعلم إلى أين ذهـــبوا فجـــأة، أمـــسكت بيدي وتحركت بي إلى نهاية صف تلك البيوت الجميلة الغريبة وتطلعت للأمام فلم نجد أحدا فعادت للناحية الأخـــرى، كانت تحدثني بسرعة فلم أع شيئا، وأخيرا سحبتني من يـــدي إلـــى داخـــل المنزل الذي خرجت منه، فجأة ظهرت أمامى امـــرأة أخـــرى أكبـــر منها سنا لكن وجهها كان ممتلئا بالتجاعيد والـــنمش وتـــرتدي نفـــس الملابس التي ترتديها المرأة الصغيرة، تبادلا حديثا غريبا سويا، فهمت منه أنني لايجب أن أدخل هنا وأنه يجـــب أن أخـــرج، تطلعـــت حولي في حيرة لولا ضغطة المرأة الصغيرة على كفي حينها شعرت بشئ ما يقول لي لاتخف.

(٦٢)

تـــركت عمى خضير يصعد السلم صعدت خلفه أول خطوتين وكـــان هو قد صعد السلم كله في خطوتين ووقف أمام شقة ياني، وفجـــأة انسللت عائدا، راكضا في اتجاه القناة كنت أجري وألهث، عبـــرت من خلف العمارات، فلا يستطيع عمي أن يراني، عبرت (الخـــرارة) وسينما الأهلى ومصنع الثلج ودخلت من شارع جانبي إلـــى الحمـــيدي، كانت كل المحلات مغلقة، باعة السمك والسمان واللحـــم والخبـــز، قلب المدينة الساهر حتى الصباح أصبح مغلقا،

أرى بعـــض الأشباح فأتخفى منها، تعثرت وكدت أسقط، استندت بمرفقـــي على الحائط، حين وجدت أمامي فجأة واحدا من هؤلاء العــساكر الذين تناثروا في أنحاء البلدة يختفون طويلا ثم يظهرون فجـــأة، ولم أكن أعلم جيدا ماذا يفعلون؟ كانوا مختلفين عن هؤلاء الـــذين رأيـــتهم نائمين على بطونهم بعيد قليلا عن شريط القطار الـــذي أقلـــنا أنا وعمي خضير، مختلفون قليلا عن هؤلاء الميتون والقتلـــى الذين امتلأت بهم ترعة الإسماعيلية، كيف عدنا فجأة بعد كـــل تلك المسيرة الليلية مابين القطار والعربة أنا وعمي خضير، لاأدري لمـــاذا كـــنت مسرورا بالعودة وكنت أركض معه بعد أن وصلنا مشارف المدينة وتوقفت بنا العربة النقل هناك بين عربات الجـــيش المتوجهة إلى بورسعيد وكيف تركنا ذلك الضابط بعد أن تفحـــص أوراق عمي خضير، تردد كثيرا قبل أن يتركنا لولا بكاء عمي خضير له، كما أشاح له بعكازه وسقط على الأرض صارخا في حالة هستيرية وتقلب على الأرض قبل أن يمسكه الضابط من يـــده في حنان ويربت على كتفه، ولم يكتف عمي خضير بذلك بل قـــال له إنه بقدم واحدة يبحث عن ابنته ولابد له من العثور عليها، كانت شمس الفجر على وشك الظهور، وكان كل شئ أحمر قاتما فـــي الخلـــف وكان الباقي في مخيلتي صورة هؤلاء الجنود القتلى والعـــربات العـــسكرية المقلـــوبة في الترعة، كان هذا هو معنى الحـــرب التـــي نخوضـــها الآن، حرائق وقتلى واختفاءات وموت وجحيم وصوتي المقطوع وغياب أهلي، وموت أمي إذا كان موتها

صحيحا، على أن أجد حلا، الحل ليس لدى عمي خضير المقسوم بـين زوجـته وإبنتيه، وبين زوجة ( ياني) وابنته منها، هدى كما صـرح لـي، فهو مثلي أيضا لايعرف ماذا يفعل، ربما أجد الحل لدى كريستينا، كريستينا وحدها، كان الخوف الذي يملؤني من أن لا أجدها يكاد يقتلني، وحين وجدت هذا العسكري أمامي، لا أدري لمـاذا صرخت داخلي وركضت في الحميدي إلى الأمام دون أن أنظـر خلفي، الأمام فقط، كدت أتعثر وأسقط أكثر من مرة، لكني كـنت أعود وأتماسك، كانت أضواء الشارع شاحبة زرقاء وغير موجودة في الكثير من النواصي ورؤوس القرن ، ولأول مرة في حياتـي أكتـشف بـأن الحميدي شارع طويل، طويل للغاية، يكاد لاينتهي، كان هو مخرجي الآن إلى قناة السويس، كم ركضت فيه أنـا واللالّي، ولبنى وهدى وسيد الفحام أخو لبنى على الرغم من شـجاراتنا الكثيـرة العنيفة سويا، وكم اختبأنا بين عربات السمك والخـضار، وحتـى داخلها، لم يكن شئ يحول بيننا وبين مانريد فعله.

(٦٣)

لبنى، لماذا لم أحك عنها من قبل، كيف نسيتها في خضم كل مايحـدث، لم أكن قادرا على التركيز في كل الأشياء والأشخاص،

بعض الأشخاص يبرزون فجأة من عدم اللحظة لنكتشف أن حياتك علـــى صـــغرها امـــتلأت بالكثير، الكثير من الضحكات والدموع واللعنات والآمال والاحباطات، لبنى سري الأول عن المرأة، قبل هـــدى، فلم تكن هدى سري الأول، ربما كانت خالتي أم هاشم هي المـــرأة الأولى التى رأيتها عارية، لكنها كانت خالتي، فلا أظن أن عينـــي وقعت منها على سوء أما لبنى فعلى صغرنا فلم نكف عن الـــبحث عـــن ســـر المرأة داخلها، ونقلته لي كاملا دون خجل أو حياء، لكن عقلى الصغير أحيانا لم يستوعب ذلك، كنت أبحث عن تحقـــيق أحلامـــي الصغيرة دون أن أهتم كثيرا بمحاولات المرأة الـــصغيرة، إلى أن كان ذات يوم هناك خلف مطار الجميل، كنا قد خرجنا من المدرسة ظهرا ونحن حاملان حقائب المدرسة الجلدية، لاأدري كـــيف أقنعتني بأن نسير في الاتجاه المعاكس ناحية مطار الجمـــيل، هناك في أشتوم*، ربما لم أكن في حاجة إلى أن يقنعني أحـــد بالـــذهاب إلـــى هـــناك فكم ذهبت وحدي بعد الخروج من المدرسة، لم يكن الطريق طويلا، سرعان ماوصلنا إلى هناك وبين تـــلال الـــرمال الكثيرة خلعت ملابسها كلها كما ولدتها أمها، كنت أتلفـــت حولـــي مخافـــة أن يظهر عمي خضير فجأة فقد كان هذا المكان ملجأه حين يود الانفراد بنفسه وحيدا، لكنه لم يكن موجودا، كـــنا فـــي العاشرة تقريبا من عمرنا هذه السنة المجهولة تماما في

*أشتوم الجميل: هي المنطقة التي يقع فيها مطار الجميل في بورسعيد.

حياتـــنا لغرقنا في ملذات الاكتشاف قبل أن نعي، ولم نكن نعلم أن الحرب على الأبواب، كان صدرها صغيرا للغاية، ولم أستطع أن أحدد ملامح هذا الشئ الذي بين فخذيها، طلبت مني أن ألحقها في الماء، وركضت هي إلى حافة الشاطئ تغوص بقدميها الصغيرتين فـــي حبيـــبات الـــرمال والمياه لتفك أسرار الحياة، لم أتردد كثيرا فخلعـــت ملابـــسى أنـــا الآخر وركضت خلفها إلى المياه الساخنة بأمواجها الهادئة تماما، قفزت لأغطس عميقا هناك في قلب الماء، كـــان العالم أزرق تماما أمام عيني، وكانت تلك الأسماك الصغيرة اللامعـــة تـــركض فـــي جماعات، أبتسم إليها وأتخيل جنياتي أو أستحـــضرها، ثـــم أقـــب لأجدها أمامي، كانت تتكلم فلا تصمت، تكلمت كثيرا عما يفعله أبوها وأمها على السرير وأنها تراقب ذلك كـــل يـــوم، وماتراه منهما، وأنها تريد أن نفعل ذلك معا، ولم أفهم كثيـــرا مما قالته، تركت نفسى لها، كانت تقبلني، ولم أعرف أبدا كـــيف تكـــون القبلة، هل هي نفس القبلة التي أراد خالي مسعد أن يأخـــذها مـــن كريستينا؟ كانت تحدثني عن محاولات أخوها سيد الفحـــام لتقبيلها، كما أسرت لي بأنه يعريها وهي نائمة وأنه كثيرا ماحـــاول الـــنوم معهـــا وأنها تشعر بالقرف منه، أخذت أتفحص ملامحهـــا وأنـــا في الماء، كانت بيضاء وسمينة إلى حد ما وكنت أشـــك بأنهـــا تصلح للقبل أو لأي شئ آخر، حتى حين كان يحدث ذلـــك لم أكن أشعر بأي شئ، سواء على سلم العمارة حين تجدني مـــع هدى فلاتتركني إلا وشفتاها تلامس شفتي، وكانت أيضا ذات

ملامـــح حـــادة فكان أنفها صغيرا كأخيها لايكاد يظهر في وجهها الأبيض الدائري ولكن عينيها كانتا واسعتين أكبر من عيون أخيها وفـــيهما مايشبه الجحوظ، لم تختلف كثيرا عن أخيها، كنا غارقين فـــي أفعال طفولية حين سمعنا هذا الصوت آتيا من مكان ما على الـــشاطئ، فالتفتـــنا سويا ناحيته، كان على إحدى التلال المرتفعة يقـــف ســـيد الفحام أخوها الأكبر واللالى صديقنا المشترك، كنت أتطلع إليهما في خوف مختلط بسذاجة، فيما كان سيد الفحام، يلقى بالـــسباب والشتائم بصوت عال فوق رأسي ورأس أهلي جميعهم، كان يقول بأنه سيقتلني ويشرب من دمي وكنت أعود بظهري إلى الـــوراء في الماء وكانت لبنى خلفي تماما ترد عليه سبابا بسباب قائلة بأنها لاتخاف منه، وأنها ستفعل ما تشاء، بل هددته بالقتل ان اقتـــرب مـــنا، وكانت تردد بينها وبين نفسها بصوت خفيض غير مـــسموع كلمة تكررها لم استطع أن أسمعها في البداية لكن حين أصـــبحت خلفـــي تمامـــا ســـمعتها تقـــول بـــصوت خفـــيض " هقتله..هقتله..هقتله"، وكان هو مستمرا في سبابي دون أن يستمع إلى ماتقوله.

(٦٤)

لم أتسائل كثيرا عما يفعله عمي خضير، أو ماذا قال لياني أو زوجـــته، ومـــاإذا كـــان يبحث عني أم لا، كنت أركض في نهاية

الحمـــيدى حـــين انـــدفعت سيارة حربية صغيرة أمامى وتوقفت، فــتوقفت أنا الآخر أتطلع حولي في حيرة، كان ضابط وجندياتان، أدركـــت في تلك اللحظة من عمري على وجه التحديد، أنني فقدت ســطوتي علـــى المدينة، وأنه لم يعد مسموحا لي بحرية الحركة، هاأنـــا أصـــادفهم فـــي كل الشوارع والأزقة كالجراد حين ينتشر، كانـــت جدتي تحدثنى عنه أحيانا، فأتخيل أسراب النمل في بعض بـــيوت بورسعيد الخشبية القديمة وكيف سقط بعضها بفعل النمل، وكيف أعادوا بنائها، لم أدر ماذا أفعل فاستسلمت وقد انحنيت على قدمـــي أمـــسك ركبتـــي بكفي، صوت لهاثى المرتفع هو الصوت الوحـــيد المسموع مختلطا بصوت خطوات الأحذية العسكرية التي تقتـــرب مني وإضاءة السيارة الخافتة والتفاتات لجنود على مبعدة، كنت أشعر بأن هناك من يراقبني من الأعلى، هناك بعيدا بين تلك الـــنجوم الفـــضية، لكنني لم أستطع أن أحدد من، هل هو أبوللو أم جنياتي الصغيرات، وضع الضابط يده على كتفي، وسألنى:

–رايح فين كده.. وبتجري ليه؟

ارتفعـــت بقامتـــي ونظـــرت إلـــيه حاولـــت الكلام فخرجت الأصوات من فمي غائمة لامعنى لها، قال فى ود واضح:

–إهدأ .. خد نفسك.. وحاول تتكلم

لـــم تكـــن محاولتي الثالثة أو الرابعة أو الخامسة بأفضل من محاولتي الأولى، أدرك أنني لاأستطيع الكلام، فهمس لي:

–أخرس .. مش كده..

هــزت رأســى، فربت عليها ودعاني في لهجة آمرة هادئة لركوب العربة معه، ركبت بين الجنديين في الخلف ولم أستطع أن أتحقــق من ملامحهما في تلك اللحظة، وانطلقت السيارة عائدة من الحمــيدي مــرة أخرى، ولم أدر بعد ذلك إلى أين اتجهت، وجدت نفسي في شارع الثلاثيني* لا أدري كيف؟ كنت قد فقدت بوصلتي فــى بورسعيد في تلك اللحظة، كانت المدينة يعاد تشكيلها جذريا، ولم أكن أدرى عن ذلك شيئا.

(٦٥)

هــدأت حدة النقاش بين المرأتين، أحسست بأن المرأة الثانية الأكبــر سنا قبلت بفكرة مكوثى وبياتي معهما الليلة على مضض، ولكــنها أكــدت علــى المرأة الصغرى بأننى يجب أن أرحل في الصباح أو هكذا فهمت من إشاراتهما وحديثهما الجريجى الطويل، رأيــت الفرح في عيون المرأة الأولى التي أمسكت بيدى وصعدنا معــا إلى الطابق الثاني، أغلقت الشرفة، كان الأثاث بسيطا للغاية، أخــرجت من دولاب الملابس كمية كبيرة منها، خاصة تلك التي تناســب جــسدى، كانــت ملابس جديدة ملونة، كنت أتعجب من

*شــارع الثلاثيني في بورسعيد سمي كذلك لأن عرضه ثلاثون مترا فاشتق من هذا الرقم اسمه.

احتفاظها بهذه الملابس، لكنى اخترت بعضا منها وجدته جميلا، خاصة البنطلون الدنجريه الصغير، والقميص الأبيض الذي كان يمتلئ بورود ملونة، كنت أشبه عمي حامد حين ارتديتهما، وأحضرت لي أيضا هذا الحذاء ذا النعل الكريب، ثم أخذتنى إلى الحمام، وهناك خلعت عني كل ملابسى ووضعتني تحت الدش، ثم دعكت جسدى كله بالماء والصابون، وبعد ذلك جففتنى، وأخذت في وضع الملابس على جسدى النحيل، ثم وضعت أمامى كمية كبيرة من الطعام فالتهمتها جميعا. كانت تضحك وهى تضع الطعام في فمي وتحدثنى وأنا لاأكاد أفقه شيئا من حديثها، كانت تتكلم إلى كثيرا وتردد بعض الكلمات كأنها تؤكد على أننى أفهم حديثها، لولا أننى لاحظت تلك الكلمة التى كان يرددها أيضا ياني، كلمة غريبة "فيفيا" كان يرد بها دائما على أم هدى إذا أراد إنهاء الحديث وكنت أستطيع أن أرى أمارات الاستسلام على وجهه الأحمر، وكان يصرخ أحيانا " فيفيا.. فيفيا..فيفيا"، كانت تلك الكلمة تعني الانصياع والقبول والتأكيد على تنفيذ الأمر، فأخذت أردد لها "فيفيا" وهى تضحك وترددها معي، كان صوتنا يعلو ويهبط ويتداخل وينفصل ويتهادى ويتسارع ونحن نتضاحك هي وأنا، تجرى خلفي تحاول دغدغتى، هناك في الشرفة في منتصف الليل وكان صوت البواخر العابرة للقناة يأتينا عاليا أحيانا مختلطا بكلمة "فيفيا" اليونانية من فمى وفمها.

أخـــذت تحاول تعليمي بعض الكلمات اليونانية، كانت تحاول الـــتحدث بالعـــربية، وكنت أضحك لأننى لم أكن أفهم ماذا تقول، قالت:

- باراكالو[٢].. باراكالو.. باراكالو..

كنت أردد خلفها دون أن أدرى حقيقة ماذا تريد ، ثم قالت:

- مين فادلاك.. باراكالو.. مين فادلاك.. باراكالو

وأدركـــت أنني حمار فلم أفهم ماذا تريد.. لم أفهم باراكالو .. ولـــم أفهم مين فادلاك وكنت أظنها كلمة يونانية حتى عهد قريب، إلـــى أن أدركـــت أنها تعنى "من فضلك".. وربما ظنت أنني أكثر ذكاءا مما أبدو عليه على صغر سنى فدفعت إلى بكلمة أخرى:

- إفخاريستو[٣]..

فرحت أتطلع إليها غير مدرك تماما لما تريد أن تخبرني به :

- إفخاريـــستو بولـــى .. شـــوخران.. إفخاريـــستو بولى.. شوخران..

كـــنت أضـــحك وأركـــض أمامها وتوقفت هي عن محاولة تعليمى، وسألتني أخيرا وهي تضع كفيها تحت رأسها كمن يحاول النوم:

- أتيموس .. كيمامه..

---

[2] تعنى لو سمحت أو من فضلك ParakalÕ

[3] بمعنـــى أشكرك جدا أو شكرا EvkharistÕ Poly, وينطق حرف الفاء كأنه V في الإنجليزية

– كيمامه..

نطقتها بهدوء خلفها، كنت قد تعبت من الركض أنا وهي في الغرفة العلوية، كانت تحضنني وتقبلني تلك القبلات السريعة على خدى كلما نجحت في محاكاتها أو أضحكتها، كنت أشعر بهذا الحنان الخفي الذي يمكنني التقاطه في أى مخلوق، وكنت ناسيا تماما لكل ماتركته خلفي وأنا واقف أبكي بجوار منزلهما الأبيض، رفعت غطاء السرير وأدخلتني تحته وخلعت ملابسها ودخلت معي، وتطلعت لي وهى تقبلني وقالت:

– كاليسبيرا بيذي مو[4] .. كاليسبيرا يا ساغيري..

ولم أفهم ماتريد قوله، فأخذت تردد أمامي :

– كاليسبيرا.. كاليسبيييييييرا..

فقلت لها أخيرا

– كاليسبيييييييييرا..

كانت الشرفة مفتوحة وكان هواء البحر المتوسط يضرب وجهينا وكنت قد بدأت أغفو في أحضان كريستينا الراهبة اليونانية على شاطئ قناة السويس هناك في هذا العالم العجيب ناسيا كل شئ حتى جدتى لم أتذكرها، كيف تم ذلك لا أدري، حتى أنني لم أفكر في الطريقة التي سأعود بها إلى أهلي وهل بحثوا عني أم لا؟ وكيف قضوا ليلتهم بدوني؟ ومتى اكتشفوا اختفائي؟ وماذا

[4] كاليسبيرا kalesera وهي كلمة مركبة من kale بمعنى طيب / خير، وكلمة spera بمعنى مساء / الليل، وبيذى مو paidi mou بمعنى ياصغيري

فعلـــوا بعدها؟ أسئلة كثيرة لم أهتم بالإجابة عليها، كيف كنت أهتم وأنـــا أشعر بأنني انتقلت لعالم آخر وزمن آخر لم يكن في حسبان عقلي الصغير!.

(٦٦)

قبل حادث البحر وقبل أن أخلع ملابسي تمامًا مع لبنى هناك بعيدا خلف تلك التلال الرملية التي تقع أيضا خلف مطار الجميل، كـــان ذلـــك مطلع العام الذي ذهبت فيه للمرة الأولى إلى المدرسة الابتدائـــية، كانت بعيدة عن عمارتنا في المساكن الشعبية، بالقرب مـــن الجـــبانات حيث كان يدفن موتى المدينة، كنت أخاف الذهاب هناك حتى لاتخرج لي العفاريت والأعوان كما كانت جدتي تقول لـــي، ومـــع ذلـــك ذهبنا إلى هناك أنا وسيد الفحام واللالي وأخوه الأصغر رضا وكذلك الولد ميمي الذى يلعب الجمباز في المدرسة والولد سامبو ابن عم سيد الفحام بعد أن خرجنا من المدرسة، كيف أقنعنا سيد بالذهاب إلى هناك، كانت دعوة لاكتشاف العالم المحيط ببورســـعيد والذي لم نخترقه من قبل، وكانت تجربة للتخلص من الخـــوف، لقـــد اتهمني بالخوف من العفاريت، وكان علي في تلك اللحظة أن أثبت له أنني لاأخاف من العفاريت، ولا أخاف من أي شـــئ، ولاأخافـــه هو حتى، فعلى الرغم من شجاراتنا التي نادرا ماخـــرجت مـــنها منتـــصرا، لم يكن من السهل أن أنسحب، كنت

أتطلـــع في عيونهم الصغيرة كنت أرى علامات التحدي لقدراتي، كـــم حدثـــتهم عن قدرتي على التعامل مع الجان وبأنني أحمل هذا المـــس، كانـــوا يضحكون قائلين بأنني "نتاش"*، كان على في تلك اللحظـــة أن أثبت لهم أنني لست نتاشا وأنني لم أختلق تلك الأفكار وأن جدتي على الأقل وحدها تعلم علم اليقين بأنني لست "نتاشا".

ســـرنا معا ككومة من التراب تنفجر بفعل الريح، ركضنا إلى هـــناك حيث الجبانات، وعلى مدخلها وقفنا جميعا، وفجأة دفعوني للأمـــام، أتطلع حولي فلاأرى أحدا فيما هم يقفون في الخلف تماما لايتحـــركون، وكانت أمارات التحدي تشتعل في عيونهم، أصبحت أمـــامهم بحوالي عشر خطوات ثم عشرين فأكثر، دخلت بين أول جبانتـــين وكـــنت أرتجف وأتردد بينما كنت أتلفت ناحيتهم لأرى ضـــحكاتهم المكتومة قبل أن تنفجر، قطعت أربع خطوات أخرى إلـــى الـــداخل، وفجأة التفت خلفي فلم أجدهم كانت صيحاتهم وهم يركـــضون عائدين من حيث أتينا، فعلوها أولاد الكلاب وتركوني هـــناك وحـــدي أمام جيوش الجان والعفاريت والأشباح والأعوان والأرواح، تلفـــت حولـــي كان كل شئ أسود غطيس، كأن الدنيا أظلمـــت فجـــأة فـــي عيني، فركضت إلى الخلف فأخذت أصطدم بالحـــائط وأسقط، كان الرعب قد سيطر على تماما وفجأة سمعت صوتا آتيا من الخلف فكدت أسقط مغشيا علي.

*نتاش : كذاب

## (٦٧)

حين ظهر سيد الفحام واللالي، كنت في الماء أقف بلا حراك وأنا أتطلع إليهم بينما غطست لبنى وتحركت حتى وقفت خلفي تماما تتطلع من وراء ظهري إلى أخيها الذي كان الشرر يتقد من عينيه، بينما وقف اللالي يضحك وهو يشير نحونا، وكان يأتيني سباب سيد مشوشا، وكنت أعلم أنني مقبل على شكلة كبيرة لاأعلم كيف سأخرج منها، وكنت أفكر بأنني عار الآن تماما وأن ملابسي هناك بين يديه، كنت واقفا في الماء أحرك قدمي تلك الحركات الخفيفة، وكانت لبنى خلفي تماما والشمس خلفنا، كنت أتمتم محاولا استدعاء أبوللو لإنقاذي في تلك اللحظة من بين يديهما، وكنت أفكر أيضا فيما ستفعله لبنى، ندهت في سري على جنياتي أن يأتين ويحملنني أنا ولبنى عاريين فوق بساط الريح إلى أي مكان آخر لايوجد فيه سيد الفحام، لكنها بدأت تشتم أخاها من خلف ظهري، الذى أخذ يلم بعض الأحجار من الرمال ويلقيها علينا، كنت أظن أن بعضها يسقط على وجه الشمس وبعضها يسقط على وجه الماء، كنت حذرا من أن يسقط شئ منها علينا فكنت أغوص أنا وهي أحيانا، وكنت أسبح بهدوء إلى الناحية

الـصخرية خارجا من الماء حين صرخ عليه اللالي بأننا سنهرب مـنهما، فركضا نحونا ملتفين من الناحية الأخرى فانطلقت سابحا تحـت المـاء عائدا بسرعة وكنت أعلم بأنهما سيكونا بطيئين في الحـركة على الرمال، فأخذت غطسا سريع لأظهر بعد عدة أمتار قـريبا من الشاطئ الرملي وفي قفزتين كنت أمام ملابسى فحملت ملابـسي بين يدى وركضت بكل مافي من قوة عاريا تاركا خلفي حقيبتـي التـي لم أعبأ بها في تلك اللحظة، لكني عدت وتناولتها، كـيف لاأدري، اجتزت الكثبان الرملية وكان بيننا حوالى الخمسة أمـتار وكـنت أعلم بأنني أخف وأسرع منهما بكثير، لكن الحقيبة الثقـيلة التـي كنت أحملها كانت تعوق حركتى فألقيت بها خلفي، وأكملـت ركضي عاريا على الأسفلت أمامهما فسبقتهما بخطوات كثيـرة فـتوقفا فجـأة فتوقفت أنا الآخر وأخذت أحاول أن أرتدي لباسـى الداخلـى وحين قمت بمحاولة ارتدائه وجدتهما يركضان نحـوى فأكملـت ارتدائه سريعا وعدت للركض، كنت في الأمام واللالي خلفي يحاول أن يلحق بي، وسيد خلفه، ركضت بكل مافي مـن قـوة حتـى سـبقتهما بخطوات كثيرة، كان الأسفلت لامعا والشمس تعكس سرابا أمامي بعيدا، أمسك بملابسى وتوقفنا جميعا مرة أخرى حين أتاني صوته عاليا:

-هاتروح مني فين ياله.. شنطتك معايا ياروح امك.. هاأديها لأبوك..

وهــنا أدركــت ماوقعــت فيه فتوقفت تماما وأخذت أرتدي ملابسى، البنطلون والفالنه* والحذاء، سرت قليلا حتى اختفيا حين تــوقفت فجأة وقررت العودة إليهما للحصول على حقيبة المدرسة بــأي ثمن، كنت أعلم بأن الأمر سيتفاقم كثيرا، وكنت مدركا تماما بأننــي سأحــصل علــى بعــض اللكمات وربما السجحات، وبأن كرامتي سوف تمتهن، لكن ضياع الحقيبة أو تسليمها لأبي سيكون معناه علقة أكبر بكثير مما قد أناله، وهنا توقفت أتطلع إلى الشمس مخاطبا أبوللو في السماء:

-يعنــي انــت مــش عاوز تساعدني أبدا.. هو أني كل مرة أطلــبك فــيها مش هاألاقيك.. والله هاأخاصمك وما هاأعرفك بعد كــده.. يرضيك يعني إن يحصللى كل ده وانت بتتفرج كده.. أني قلــتلك أهــو لــو ماساعدتنيش مش هاأعرفك وهاأخاصمك ومش هاأكلمك تاني..

كــنت أغلي من الداخل، وكنت أعلم بأنه إن لم يفعل شيئا فإن في ذلك قطيعة بيننا إلى الأبد، وسأهجر كل خيالاتي وأفكارى عنه سأمحوها بأستيكة، فالإله لابد أن يقف بجانب من يحبونه، وإلا لم يعــد إلهــا في نظرهم هكذا كنت أفكر، لقد فعل أبوللو الكثير من أجــل الجــريج، وأيقــنت بأنه ربما لأنني مصرى فهو لايحاول مــساعدتي ولكــن فكرتي عن الآلهة أنهم لايفرقون بين الأجناس،

*الفالــنة: أصلها الفانلة، وهي اللباس الداخلي العلوى ولكن في اللهجة البورسعيدية يتم قلب حروفها استسهالا.

وهكـــذا كـــنت مطمئـــنا تماما وأنا عائد بإرادتي الكاملة إلى سيد الفحـــام، وكنت مطمئنا بأن (اللالي) لن يتدخل، وكنت أفكر أيضا فـــيما فعـــلاه بلبنـــى، كنت أخطو في ثقة فجائية لاأدري من أين واتتني!.

...

الهزيمة، كنت أشعر بالهزيمة الكاملة حين تملكني هذا الخوف القاتـــل أثـــنا وقوفـــي في الجبانات، حين حاولت الخروج فوجدت الجـــدران فـــي كل الطرق تسدها، حين وقعت تلك اليد على كتفي فانتفضت راكضا:

-انت ياوله .. تعالى هنا.. أنا عمك العربي..

تـــوقفت عـــن ركضي، وأخذت أنظر خلفي في تردد، أحاول التدقـــيق في ملامحه قد يكون جنيا أو عفريتا متخفيا، كان يضحك وهو يراني أتراجع للخلف في خوف، أخذ يناديني:

-تعالي ياله ماتخافش..

كان يمسك عجلته الممتلئة بالورد والفل والياسمين، سألته وأنا مازلت أقف بعيدا:

-طب اديني أمارة إنك عم العربي مش عفريت..

أخذ يضحك عاليا وقد توقف تماما:

-ماتخافش أنا عمك العربي اللي ساكن تحتكم في العمارة.

-وإيه كمان؟

-مش انت أبوك بيشتغل في مصنع الغزل والنسيج؟

-تعرف جدي؟

-أعرف جدك بياع الخضار؟

-لأ مابيبيعش خضار؟

-طب ياسيدي .. أكبر صياد سمك في بورسعيد..

هدأت تماما في تلك اللحظة فأقبلت ناحيته، فربت على رأسى وسألني:

-بتعمل إيه هنا؟

حكـيت لـه الحكاية أثناء خروجنا من الجبانات إلى الطريق الأسـفلتي، ركب بسكليتته، وركبت على المقعد الخلفي لها، وأثناء مشينا مررنا بسيد وميمى وسامبو واللالي، فشتمتهم:

-ياولاد الوسخة..

ضـحك العربـي، وكانوا هم يسيرون على الطريق الأسفلتي يـضحكون، فـتوقف ضحكهم وأخذوا يركضون وراءنا، فتوقف العربي بعجلته ناظرا إليهم بعنف، فتوقفوا جميعا وركضوا عائدين مـن حيث أتوا، وعاد العربي يقود البسكليته وكان يدندن بلحن ما وكـنت أشـعر بأن البسكليته تسابق الريح، وربما لو زاد السرعة قلـيلا لـصعدنا إلى فوق، إلى أعالي السماء، وكنت أبتسم سعيدا بأنني انتصرت على هؤلاء الأوغاد.

(٦٨)

في المنزل علمت بأنه علي أن أسافر للقاء جدي لأبي وللمكوث معه عدة أسابيع في الإجازة الصيفية في العام الذي سبق الحرب، كنت مندهشا تماما من هذا السفر المفاجئ وأسبابه، وكنت سعيدا لقيامي بالسفر للمرة الأولى في حياتي وحيدا، وكنت غير سعيد لأنني سأبتعد عن مدينتي وعن ستي وأمي وخالاتي وهدى وكريستينا، وشعرت بأن هناك في الأمر شيئا غريبا، لم يوافق أبي من قبل على سفري، وكان يرفض سفري وحيدا لجدى عشرات المرات، فلماذا وافق الآن؟ أما ستي فأصرت على أن أنام في أحضانها تلك الليلة، وبكت كثيرا، فيما أقبلت أمي بعد منتصف الليل لتخرجني من أحضانها فأرتدي ملابسي وتقبلني خالاتي، وأخرج مع أبي بحقيبة ملابس وبعض المأكولات، فأركب خلفه أيضا على البسكليته إلى محطة الرسوة، حيث وقفنا ننتظر على الرصيف قدوم أحدهم ليصطحبني إلى هناك في أبو زعبل في القطار.

(٦٩)

لـــم تكن علاقتي بآلهة الآوليمب قد تشكلت كلها بعد فلم أكن أعــرف إلا أبوللـــو مـــن أفكار سابقة وقراءات وحكايات مدرس الـــتاريخ الأستاذ عوض الحارتي، وكانوا يتهمونه أحيانا بالجنون، لكننى لم أكن أعبأ بما يقولون؛ ألا يقال عني أيضا بأن بي مسا من الجنون!، أو مس من الجان!، كنت أراه عاقلا للغاية، كان يتحدث إليـــنا فـــي هدوء وحب ومودة، لم يرفع عصاته في وجه أحد منا يـــوما، ولـــم أره يـــضرب أحد فينا يوما، كان يحرك عصاته في الهواء من بعيد وكنا نضحك، سألته ذات يوم:

-ياأستاذ عوض..

-أيوه يابني

-هو مش أبوللو يبقى إله..

-أيوه

-وزيوس يبقى أبوه..

-تمام..

-يعني احنا ولاد أبوللو..

ضحك في وجهي، ثم توقف قليلا يفكر فيما أقول، وعاد يبتسم ويتطلع لي في إعجاب بما توصلت إليه، وقال.
-مضبوط..
-يعني ممكن يبق اسمي على اسمه مثلا ابن أبوللو زيوس..
انطلق ضاحكا، وردد شيئا ما بينه وبين نفسه، ثم قال:
-كلامك منطقي ومعقول..
ركضت من أمامه دون أن أنتظر إجابة أخرى، وكنت قد أقسمت بيني وبين نفسي بأنني يوما ما سوف أصير ابنا لأبوللو، وأنني حين أكبر يمكنني أن أغير اسمي، صحيح أنني رأيت الأستاذ عوض أحيانا يكلم نفسه، لكنني أيضا لقيت ستي وهي تكلم نفسها، فلماذا لم يتهمها أحد بالجنون هي الأخرى، وكم وجدت أناسا يكلمون أنفسهم في الشوارع، حتى أنا أيضا أحيانا كنت أمشي أكلم نفسي، في الحقيقة لم أكن أكلم نفسي تماما وإنما كنت أكلم جنياتي الصغيرات، كنت أتحدث إليهن وكنت أطلب مساعدتهن في حل واجب الحساب الذي لم أكن أفقه فيه شيئا، كنت أري أستاذ الحساب كالمطرقة لايحمل في يديه سوى عصا كبيرة يهزها بعنف فوق رؤوسنا، وأحيانا ماكان يصيبه الجنون حين يدرك مدى بلادتنا في الحساب وعدم قدرتنا على التفرقة بين الصفر والواحد، فكان يدور بالضرب في كل الفصل، وكان يردد أن العلماء بيننا فقط هم الذين يستطيعون الحساب والجمع والطرح والقسمة أما البقية فسيعيشون تنابلة، لافائدة ترجى منهم، وأننا إذا

نجـــح واحـــد منا في أن يكون عالما فإننا يجب أن نأتي إلى قبره و"نطرطـــر"* علـــيه حين يموت، لاأدرى لماذا وقفت أمامه فجأة وقلـــت لـــه بأنني سوف "أطرطر" على قبره، وهكذا حصلت على علقة لم يأخذها حمار في مطلع في ذلك اليوم البغيض وسكت عن الكلام معه بعد ذلك نهائيا فطردني عدة حصص ثم عفا عني فجأة ولـــم أدر أبـــدا الـــسبب، الحقـــيقة أن هذا كان رأي جميع أساتذة الحـــساب مـــن بداية أول مدرس في التاريخ الإنساني حتى آخر مـــدرس فـــيهم فـــي نهاية التاريخ، لكنني كنت أفسر الأمر بأنهم فاشـــلون لأنهـــم لم يستطيعوا أن يحببونا في الحساب، لماذا نحب مدرسي اللغة العربية والتاريخ والرسم والموسيقى ونكره مدرسي الحساب بالذات، لأنهم كلهم كانوا كتلك المطرقة في يد أستاذنا.

(٧٠)

الشخصية الثانية في علاقتى بآلهة الأوليمب كانت هرقل، أما زيـــوس كبيـــر الآلهة فلم أكن أعلم عنه الكثير ولم أحاول، تركت ذلك لزمن قادم أستطيع فيه أن أقرأ عنه، توقفت معرفتي عنه كلها

*نطرطـــر : نتـــبول ولا أدري إن كان لها علاقة باللهجة البورسعيدية أم لا إذ أجدها شائعة حتى في القاهرة.

حول أنه كان أبا أبوللو، وأنه كان يعشق النساء، وكانت مغامراته كثيـرة معهن، فقد قال لنا مدرس التاريخ الأستاذ عوض أنه كان "بـتاع نـسوان"، وربمـا هذا هو السبب في عدم احترامي له من ناحـية، لكـن مـن ناحـية أخرى كنت متيقنا من أنه كبير آلهة الأولـيمب، أمـا هـرقل فقد رأيت أفلامه في سينما الأهلي، لكن العـبارة التـي سمعتها من الأستاذ عوض لصقت في نافوخي ولم تغـادره حـين تحدث عن وقوعه في أزمة الاختيار بين الفضيلة والرذيلة، ولم أستطع أن أفسر في ذلك الوقت هاتين الكلمتين، وإن كـان الأستاذ عوض قد قال بأنه تعرض لمحنة أن يختار بين أن يكون الشر في الأرض أو الخير، وأخيرا اختار الخير بعد أن كاد الشر يسيطر عليه.

لـم يكـن سـؤال الفرق بين الخير والشر قد أخذ طريقه إلى عقلـي حتـى تلـك اللحظة، وإن لم يتركني بعد ذلك أبدا، وكان تعـريف الـشر على وجه التحديد هو السؤال الأهم، فأخذت أفكر كثيـرا، ولـم أهتد إلى إجابة، لم أحاول أن أتعب نفسي كثيرا في الفـرق، أو مـا إذا كـان الذي يحدث لنا خيرا أو شرا، لقد كنت أضـحك لأنني لم أجد فروقا كبيرة، كنت أرى في ذلك الوقت بأن هـرقل تـم اللعب في دماغه، وأن زيوس السبب، وكنت أرى أن زيـوس غاوي لعب، سواء مع النساء أو مع الأفكار، وبالتالي فما طـرحه كان في مخيلتنا فقط، وعلينا نحن فقط أن نختار الأفضل للجمـيع، هـل كنت حقا أدرك ذلك وأنا في هذه اللحظات النادرة

التـــي كنت فيها قادرا على التفكير؟ لاأستطيع الإدعاء بذلك، لكني اهـــتديت بشكل ما أن ماكان مطروحا على هرقل مسألة غريبة لم يكـــن يجب أن تطرح، كنت قد تعلمت أن الفضيلة والرذيلة كالنور والظـــلام، إمـــا أن نعيش في النور وإما نعيش في الظلام، ولكن الـــنور والظلام متتابعان، نراهما كل يوم، وعلى ذلك فالحياة هكذا تمتلـــئ بهـــذا وتمتلـــئ بـــذاك، كانت جدتي تحدثني عن الفضيلة وتـــشبهها بالجنة، والرذيلة تشبهها بالنار، وكانت تقول بأنه عليك أن تخـــتار، إنـــه نفس موقف هرقل، كلنا نتعرض لنفس الموقف بـــشكل أو بآخـــر، ولكنه كان أولنا، فلماذا وجدت الرذيلة إذا على الأرض إذا كـــان قد اختار الفضيلة.. كان الأمر أكبر من قدراتي فكـــنت أقف عند تلك الأسئلة متحيرا لكني كنت أرى الفضيلة في لمـــسات هدى وكلمات ( ياني) وطبطات أم هدى واللحظات التي يفـــيق فـــيها عمي خضير، واللحظات التي مرت بنا على العربة الـــنقل، وكـــان الـــشر المطلق في جثث الجنود التي ملأت ترعة الاســـماعيلية وفـــي تلك العربات المحترقة، وفي ركوبي في تلك العربة الآن، كنت أشعر بأن هناك شرا مستطيرا سيحدث!.

كنت أعتقد أيضا بأننا جميعا نقع في لحظة الاختيار هذه الآن، هـــل اختـــرنا أن نحـــارب؟ ولماذا تشتتنا جميعاظ هل نجلس في بورســـعيد أم نرحل عنها؟ هل ماتت أمي فعلا أم أن عمي خضير يلعـــب في دماغي؟ هل سجن أبي كان اختيارا للفضيلة أم اختيارا للـــرذيلة؟ هل اختيار عمي خضير لمنقوع الصرم اختيار للخير أم

للشر، للفضيلة أم للرذيلة؟ هل ذهاب عمي حامد الفاروقى للحرب مـع اسـرائيل بعـد أن كـان يحارب في اليمن خير أم شر، هل اخـتفاؤه فـضيلة أم رذيلة، هل اختيار أي أحد منا في حياته لأي موقـف، هـل هو اختيار للفضيلة أم للرذيلة في ظل عدم معرفتنا بالمستقبل، هاهو أبي اختار مايظنه فضيلة، وهاهو الأمر قد انقلب علينـا جمـيعا رذيلة وشرا، ماهي تلك اللحظة علي وجه التحديد التـي يمكن أن نختار فيها اختيارا صحيحا؟ عبد الناصر نفسه قد يكـون اخـتار الحرب من وجهة نظره بأنها فضيلة وهاهو الأمر يـنقلب علينـا جميعا رذيلة لاتنتهي؟ كيف كان له أن يعلم؟ وكيف كـان لعمي خضير أن يعلم وكيف كان لأبي أن يعلم؟ وكيف كان لي أن أعلم أنني حين ركضت خلف البراشوت الهابط من السماء أنني أركض وراء الرذيلة، وهاهي نتيجة اختياري الآن هو ما أنا فـيه؟ كـيف كنت معميا إلى هذه الدرجة بأن اختياري في لحظة معينة وزمان معين وإحساس معين لا يجب أن يخدعني؟ على أن أفكر جيدا، لكن من يستطع أن يفكر جيدا، حتى عبد الناصر أخطأ وحتى أبي أخطأ وحتى عمي خضير أخطأ وحتى أنا أخطأت، كنا جمـيعا مخطئـين فـي خياراتنا على الرغم من كل ماحولنا من مظاهـر وأدلـة تمنعـنا من ارتكاب هذا الاختيار الخاطئ، كانت أقـدارنا تدفعنا إلى هذا الخطأ.. أم أننا جميعا يجب أن نخطئ، في الـوقت الـذي لايجـب فيه على الآلهة أن تخطئ، فهاهو هرقل لايخطـئ الاختيار في اللحظة الأخيرة، ولكن من الذي يحكم على هـرقل، آلهـة مـثله، أمـا نحـن فمـن يحكم علينا ليس مثلنا،

وإنمـــا هـــم نفـــس الالهـــة الـــذين يختفون هناك في أعالي جبال الأوليمب!.

(٧١)

لـــم يخطـــر ببالي حين ركضت هاربا من عمى خضير أنني يمكـــن أن أقـــع في هذه المشكلة، كنت راكبا في تلك اللحظة في عمـــق السيارة العسكرية، كأنني كنت أنظر من خارج السيارة إلى أبـــي، كانـــت ملامحي غارقة أيضا في الظلام مثله تماما، كأنني أفعل نفس أفعاله وأتخذ نفس صوره، كنت صغيرا للغاية كي أدرك كـــنه مايحدث وأسبابه، سواء مع الآخرين أو مع أنفسنا، ولم تكن هناك أي إضاءات سوى سيجارة الجندي الذي يجلس بجواري أما الجـــندي الآخر فهو نائم في نهاية العربة، حين يحاول سحب نفس منها فتشتعل أكثر، فكانت تظهر تفاصيل السيارة الداخلية للحظات ثم تختفي، ولم يكن بداخلها مايسترعي الاهتمام، حتى وجه الجندي الجـــالس بجـــواري كنت أشعر بأنني رأيته من قبل في مكان ما، وكـــنت قـــد رفعت رأسي من بين يدي وأخذت في التلفت حولي علني أعلم أين أنا، لكن كان كل شئ غارقا في ظلام أشبه بمدينتي التـــي تـــضئ للحظـــة ثم تختفي طويلا حتى شمس أبوللو لم تكن تظهـــرها، أو أنني كنت غائبا عنها لاأتطلع إلى ملامحها في ذلك

الوقت، لم أكن أعرف بالضبط ماهى مشاعري الحقيقية، كان الألم يـــشدني إلـــى جهة وكانت ذكريات جدتي تشدني من جهة أخرى، وكانت ملاطفات أمي التي لم أعد أعلم عنها شيئا تشدني من جهة أخـــرى وكان أبي وحامد الفاروقي وجدي من جهة أخرى، كانت تخـــتلط في ذهني الأشياء والحوادث فلم أعرف هل أنا أعيش تلك الحوادث أم أتخيلها؟ كيف دخلت في قلب تلك السيارة فجأة؟ ولماذا كـــان صـــوت لهاثي عاليا ضخما هو وصوت حذاء الضابط على أرضـــية شـــارع الحميدي؟ ولماذا تركت فجأة عمي خضير هناك على درج العمارة في منطقتنا الشعبية؟ ولماذا كنت أركض؟ وعن ماذا كنت أبحث بالتحديد؟ كأنني فقدت ذاكرتي فجأة أيضا.

بدأت أحدق في الظلام محاولا استيعاب الموقف وعما سأقوله للضابط حين أهبط من السيارة التي كنت لاأعلم إلى أين تتجه، أو ماهـــي وجهتها الحقيقية، ولماذا أنا هنا الآن؟! كانت تسير غارقة فـــي الظـــلام فـــي شـــوارع المدينة الميتة، لاأسمع سوى صوت عجلاتهـــا، وبعـــض الأضواء الضعيفة المتفرقة التي تظهر كبقع ضـــوئية فـــي ظلام الجسد المترنح، وكنت أتخيل تلك الأماكن في لحظـــة ما من زمن سابق تمتلئ بالأنوار، عرجت السيارة عابرة إلـــى شارع الثلاثيني وكانت بورصة السعيدية مغلقة، واتجهت من هـــناك إلى شاطئ البحر حيث كان استاد بورسعيد، ثم دارت من شارع جانبي في نهاية الاستاد، سارت ببطء ثم توقفت هناك قريبا من الرمال حيث رأيت أمواج البحر القريبة منا للغاية. هبطت من

الـسيارة أنا والجندى في انتظار هبوط الضابط الذي استغرق وقتا طـويلا حتـــى هبط منها وسرنا خلفه في الظلام حتى تلك الخيمة التى كان ينطلق منها ضوء ضعيف لايكاد يرى.

(٧٢)

كـــان موج البحر ساكنا تماما لاحس ولاصوت له، كأنه مات هـــو الآخر، أين ذهب هدير الأمواج، وأين ذهبت أصوات انفجار فقاقـــيع المـــاء التـــي كنت أميزها بسهولة وسط آلاف الأصوات الأخـــرى التـــي كانت تتناثر على الشاطئ خاصة في الصيف أو آلاف مـــن أصـــوات الطيور التي كانت تجتاحه في الشتاء لتأكل الأســـماك الميـــتة ولتتشاجر مع بعضها البعض، حتى إننى كنت أتخـــيل أننـــي أســـتطيع تمييز صوت حركة أقدام الحناجل وهي تـــركض فـــوق الرمال الذهبية رافعة كلاباتها الضخمة أمامها في أوقات الفجر تحسبا لأى عدو قد يفاجئها لتحفر لنفسها حفرا تختبئ فـــيها، كـــان كـــل شئ غائما ومائعا ومستباحا، كان كل شئ بلا صوت.

(٧٣)

فــي أحضان كريستينا كنت أتقلب، وكانت الشمس قد غطتنا ونحــن نائمــان سويا علٰى سريرها الأصفر اللون وكانت السماء الزرقاء تبدو على البعد وقد امتلأت بتلك الطيور البيضاء، وكانت كريــستينا ترتدي قميصا خفيفا للغاية فكنت أشعر بثدييها تلامسان وجهى وكانا مختلفين تماما عن تلك الأثداء التي شاهدتها من قبل، كانــا صــغيرين بارزين بروزا خفيفا كانا قريبا الشبه بصدر لبنى لكن كان فيهما شيئا ما غريبا لم أستطع إدراكه، فتحت عيني لأجد عينــيها الزرقاوين الواسعتين فكأنني أنظر إلى سحابة زرقاء في الــسماء، تبتــسما لي، وكانت تردد وهي تمرر بيدها على شعري الأسود.

- كاليميرا[5].. كالميييييييييرا..
- كالمييييييرا..

كانت نوعا مختلفا من البشر لم أتحقق منه بعد، بيضاء تماما ولهــا عيــنان ذوات ألــوان غريبة كنت أظنهما زرقاوين وأحيانا أجــدهما خــضراوين، وأحــيانا رماديتين وأحيانا شفافتين تماما

[5] كليميرا بمعنى صباح الخير

تترقرق فيهما كل الألوان، لم تكن طويلة، ولم تكن قصيرة، فكيف رأيتها قصيرة في المرة الأولى حين تقابلنا، كانت تتكلم في سرعة عجيـبة أحـيانا فلاأسـتطيع أن أفهم كلماتها، التي لم أكن أفهمها أصـلا، نهضنا سويا وأخذنا نقفز على السرير، يحاول كل منا أن يقفز أعلى من الآخر، ثم دخلنا إلى الحمام حيث غسلت لي وجهى وألبستنى تلك الملابس الجميلة، كنت أشعر بأنني أشبه ديكا ملونا، فلـم يحـدث أن ارتديت مثل هذه الملابس الملونة من قبل، وكنت أتخيل بأن أهلى لن يعرفونني بها، أتانا ذلك الخبط على باب غرفة كريستينا فتوقف كل شئ، فتحت الباب لتجد أمامها الراهبة العجوز الأخرى، تكلما سويا، وكانت الراهبة العجوز تتحدث إلى كريستينا بصوت عال وكنت أشعر بأنها تتشاجر معها، وكانت بعد كل جملة تـشير إلى ففهمت أن الأمر يتعلق بي، ربما كانت تسألها لماذا أنا هـنا حتى الآن، فاختبأت خلف السرير، وأخيرا انتهت الأصوات، إذن فقـد عـادت من حيث أتت، أخذت كريستينا تتقدم مني وهي تبتـسم وكانـت عيـناها ممتلئتين بتلك الدموع، ارتدت كريستينا ملابسها البيضاء ووضعت الصليب، وكنت مازلت أرى في عينيها تلـك الدمـوع الخفية، خرجنا سويا بعد الإفطار إلى الشارع ومنه إلـى قـسم الـشرطة، وقبل أن ندخل الكراكون اشترت لي تلك الطائـرة الورقـية الملـونة، كنت أسير معها ونحن ندفع الطائرة الورقية إلى السماء، وهناك في الكراكون جلست على ذلك المقعد الطـويل، فـيما أخذت هي تتحدث مع الضابط، ثم عادت لتجلس

بجـــواري، كانت تتحدث إلي وأنا أكاد لاأفهم شيئا، لكنني أحببتها، هذا هو إحساسي الوحيد ناحيتها، بعد ساعات كانت كل أسرتي في الكـــراكون، كانـــت جدتـــي قد أمسكت بيدي بينما أخذت أمي في الـــبكاء، وخـــرجنا ســـويا، ذهـــبت كريستينا معنا حتى العمارة، وصعدت معنا، فهمت أنها كانت تريد معرفة عنواننا، حتى يمكنها أن تأتـــي لي بملابس جديدة دائما لأخوتي ولي، وكانت أيضا تأتي فـــي بعـــض إجازاتها لتجلس معنا يوما بطوله، وكانت تفضل أن تصطحبني بتلك الطائرة الورقية إلي شاطئ البحر لنقضي ساعات هـــناك أنا وهي نلاحق الطائرة وأمواج البحر، أخذت تتحدث مع خالتـــي أم هاشـــم التي فوجئت بها تتحدث اليونانية أو تحاول أن تـــتحدثها وكانـــتا قـــد أصبحتا أصدقاء وكنت سعيدا للغاية بأنني الـــسبب، اتفقـــتا على اللقاء بشكل دائم تقريبا على أن تصطحبني خالتي أم هاشم معها في كل مرة تذهب للقائها سواء في بورسعيد أو بورفؤاد، حتى كان ذلك اليوم الذي تشاجرا فيه مع خالي مسعد على الشاطئ أثناء سيرنا أنا وهي وخالتي في ذلك الشتاء البعيد.

(٧٤)

كـــنت عائـــدا مـــن نفس الطريق مستعدا لمواجهة الولد سيد الفحـــام، الغـــريب أنني كنت متيقنا تماما من أن أبوللو لن يتركني

وحـــيدا فـــي تلك "الشكلة"، كنت قد استجمعت قبضتي في جانب، وفي الجانب الآخر كنت قد أمسكت حجرا، أخذت أتحمس للمعركة فـــبدأت أركض وفي لفة الشارع خلف تلة الرمال وجدتهم سائرين كان سيد الفحام ماشيا يعرج، بينما أمسك برأسه التي كانت "تشلب" * الـــدم مـــنها بغـــزارة، وكان وجهه ممتلئا بالرمال وكان يبكي بصوت عال، وكان (اللالي) سائرا بجانبه يحاول أن يرى الجرح، وكـــنت أرى خلفهما لبنى وقد ارتدت ملابسها بينما تحمل حقيبتها وحقيبتـــي فـــي يديها. توقفا أمامي، وفجأة صرخ سيد في وجهي، فانتحـــيت جانـــبا فتطلع لى (اللالي) أيضا بلا مبالاة، كأنني غير موجـــود علـــى الإطـــلاق، وتـــوقفت لبنى أمامي ومدت يدها لي بحقيبتـــي فألقـــيت الحجـــر من يدي سريعا وتناولتها منها وسرت بجانـــبها، فيما كان يصلنا صوت بكاء سيد. حاولت أن أفهم منها ماحدث، فقالت بأنها حين خرجت من البحر عارية حاول الإمساك بهـــا ســـقط علـــى الأرض واصطدمت رأسه بحجر، أو أن هناك حجرا ربما وقع من السماء فوق رأسه، لاتدري كيف حدث الأمر فجـــأة، ولما حاول أن يضربها حين نهض سقط على الأرض مرة أخرى بعد اصطدامه بأحد الأحجار الكبيرة فأصاب ركبته. ارتدت ملابسها دون تردد وحملت حقيبتينا معا، لاأدري لماذا كنت أشعر بـــسعادة غامـــرة، تأخرت قليلا وأنا أتمتم بالشكر لأبوللو، أتطلع

---

*تشلب الدم: مجروحة تنزل منها الدماء

للسماء باحثا عنه لكني لاأراه، كنت أعلم أنه لن يتخلى عني، وبدأت أتحدث إليه.

– مش عارف أقولك إيه، أني فعلا بأحبك قوى ونفسى أبقى زيك، أو أطير معاك أو حتى تدينى جناحين، المهم خلليني أشوفك، وبلاش نجيب سيرة زيوس علشان انت عارف إني ماباحبوش، وعايزك تيجي المدرسة، ياريت العيال يشوفوني معاك يبقى تمام علشان ماحدش يقول على "نتاش" تاني، وبعدين برضه براحتك المهم ماتنسانيش، أني واحد من الناس اللي بيحبوك على الأرض برضه، متشكر ياأبوللو..

كنت أتطلع إلى السماء بعينين دامعتين غائصا في لحظة الفرح تلك ولم أكن أعلم ما الذي يخبئه لنا القدر حين نعود.

كان سيد الفحام يسير باكيا في الأمام ومعه "اللالى" يحاول تهدئة روعه، وكانت لبنى تسير بيننا تغني أغنية مدرسية بشكل خليع، وكنت أنا أسير بالخلف حاملا حقيبتي على كتفي أحدث أبوللو، وكانت أمواج البحر قد بدأت في صخب مفاجئ مع اشتداد حركة الرياح، وكانت فسية العفريت* التي تسبب دوامات رياحا دائرية صغيرة قد بدأت تعبث بالطريق، ومع ذلك كنت قد بدأت أضحك.

---

*فسية العفريت: لفظ يقال على الريح الفاسدة التي يطلقها العفريت من مؤخرته وهي تعني دوامات الريح الصغيرة المحملة بالأتربة في كثير من البلاد في مصر ومنها بورسعيد.

(٧٥)

دخـــل الضابط الصغير إلى الخيمة أولا وغاب دقائق ثم نادى علـــى فـــدخلت ومعـــي الجندى. لم تكن الإضاءة تسمح إلا برؤية ضـــعيفة للغايـــة داخل الخيمة حين أتاني صوت الضابط الكبير، وكـــنت أحـــاول تخيل ملامحه في هذا الظلام إلا أنني لم أستطع، لكنني لاحظت زجاجة منقوع الصرم التي أمامه والتي كان يشرب مـــنها مباشـــرة ثم يتوقف لحظات وأدركت بأنه ربما يعرف عمي خضير أو ربما التقاه هنا أو هناك، أو ربما يعرف ( ياني) أيضا. لـــم أستطع بعد ذلك إلا أن أحدد مكان خروج الكلام منه فانتبهت إليه حين صرخ في وجهي:

– انت اسمك إيه؟

– ..

تطلع إلى الضابط الصغير، وقال كمن تذكر.

– آه انـــت قلـــت لي إنه أخرس.. يمكن مش أخرس.. يمكن بيـــستعبط ..بيستهبل..العيال دي شياطين..(ثم تطلع إلي وسألني) عموما انت بتعرف تكتب؟

(هـززت برأسى) فأعطاني ورقة وقلما، اقتربت من مصدر الضوء فيما عاد برأسه إلى الخلف فلم أحاول التطلع إليه. وضعت الـورقة علـى الطاولـة وأمـسكت بالقلم، توقفت قليلا ثم كتبت، لاأدرى مالـذي دفعني إلى أن أكتب إسمي بهذا الشكل الغريب في الظلام، لقد فكرت قليلا في أنني لو كتبت اسمي العادي فربما كنت بالنـسبة إلـيه إنسانا عاديا وربما تحدث مشكلة أكبر مما أنا فيه. وعلى ذلك لابد أن يكون إسمى كبيرا حتى يطلق سراحى سريعا، فكتبت في الورقة.

– إبن أبوللو زيوس..

ودفعـت بالـورقة إليه في تردد. لقد فعلت مافعلت دون أن أكـون متيقنا تماما من النتيجة. لكني كنت متيقنا تماما من العلاقة التـي تربطنـي بأبوللو زيوس، ولم يكن هناك لدي أدنى شك في ذلـك، لكننـي في نفس الوقت لم أكن متأكدا من أن هذه الفكرة قد يقـبلها الآخرون أو لايقبلونها؟ كان امتحانا للفكرة وعلى الآن أن أتقبل كل النتائج. كان القائد يحاول قرائتها وأخيرا نطق الاسم.

– إيه ..؟؟

تطلع إلي طويلا في غيظ ثم أكمل:

– أبوللـو وكمـان زيوس.. نعم ياروح أمك هو أني ناقص مجانين..

سـقط برأسـه قليلا ثم عاد لأخذ جرعه من منقوع الصرم، ومـسح فمـه ووضع الزجاجه، وأخيرا نهض من مكانه في تثاقل

واتجــه ناحيتـــي، وقال لى في هدوء غريب، كنت أشعر بصوته خارجا من مكان ما عميق للغاية غير فمه، فأتى ثقيلا :

- اسمك إيه ياوله..

لم أرد أن أكون "نتاشا" أمامه، فاشرت إلى الاسم المكتوب في الــورقة، فــتطلع للورقة ثم تطلع إلي، وفجأة انهال بكف يده على وجهـــي، وأدركـــت في تلك اللحظة مدى الخطأ الذى وقعت فيه، كانـــت الـــصفعة مـــن القوة بحيث انطرحت أرضا، وانطلق هو يشوطني بحذائه وأنا على الأرض لاأستطيع حتى أن أصرخ. كان الألـــم يأتينـــي من كل الجهات. كنت أشبه بكرة من النار تحترق ولاتـــستطيع أن تشكو، تقف مكانها لاتتحرك، هل هذا هو الشر؟! لاأدري مالذي دفعني إلى التفكير في ذلك في تلك اللحظة، أم أنني أصبحت مجنونا، وحين انتهى كان صوت لهاثه يتصاعد:

-يـــابن الكلب طيرت الحبتين اللى في نافوخي.. كنت رايح تقابل مين ياوله..

كـــان حـــذاؤه قد طال حاجبي مكان جرحي القديم، وقفصي الـــصدري وكـــنت أشـــعر بأن هناك شيئا ما قد طق فيه، وكدت أصرخ من الألم لكن صوتي لم يخرج أيضا.

-انطق طاعون ياخدك.. كنت رايح للاسرائيليين مش كده..

كـــنت أتطلع إليه وأنا على الأرض وأنا أكاد لاأرى. كنت قد سقطت إلى الخلف على ظهرى أنتظر حركته التالية.

-لــو مــوتك دلــوقت الجــيش مــش هايحاســبني ولا حد هايحاسبني.. ولا ربنا حتى هايحاسبني.. انت جاسوس مش كده.. جاســوس يــابن الكلب.. بتستهبل يابن الكلب وعامللي أخرس.. انطق .. وحياة أمك ماهاأسيبك إلا لما تنطق..

توقف قليلا يلتقط أنفاسه، وقال:

-كنت رايح تقابل مين ياوله..؟

وانهــضنى الجندى ودفع لي بالورقة، لم أكن قادرا حتى على الــتقاط أنفاسي، ووضع القلم بين يدى، وكنت محنيا بالكاد أستطيع الوقــوف ، بينما غرقت رأسي في الرمال، ولم أكن أعرف كيف أكتب وأخيرا كتبت.

– كريستينا..

ومـــاأن قرأها مرة أخرى حتى كاد أن يقتلني، حين أمسك بي مــن قفــاي وقذفنــي نحــو المنضدة لأسقط أنا وهي، لولا تدخل الضابط الصغير، الذى أمسك به:

– ياباشا خلاص الوله هايروح في إيدك..

– يــروح هــو احنا ناقصين.. مش كفاية عبد الناصر وعبد الحكيم عامر.. واليهود .. والزفت والقطران اللي إحنا فيه، علشان يجيلــى ده يقوللي انه ابن .. ابن مين ياله.. وبعدين مين كريستينا مــين دى ياوله.. وكمان أبوللو زيوس .. انت اسرائيلي مش كده .. ده أنــت ليلة أهلك فل.. أني هاأسهر معاك للصبح.. ماوراييش غيرك الليلة.. كل حاجة ضاعت.. فيها إيه لما تضيع انت كمان..

(٧٦)

بعـــد لحظـــات من صعودي إلى شقتنا، وكنت قد سبقت سيد ولبنـــى و"اللالـــي"، لاحظت أن أبي في الداخل يقرأ شيئا ما وكان مـــشغولا في حديث مع أمي عن انتخابات النقابة في مصنع الغزل والنسيج، فانسللت إلى غرفة ستى وألقيت بحقيبتي ونزعت مريلتي ســـريعا وانطلقت إلى الحمام قبل أن يلاحظني أحد، ووقفت تحت الـــدش أزيـــح طعم الملح الذي التصق بجسدي كنت أعمل بسرعة حتـــى أســـتطيع الخروج قبل أن يلحظنى أحد، كانت هناك أزمات دائمـــة علـــى الحمام، فقد كنا نقف طابورا أحيانا خاصة فى أيام الإجـــازات أمام بابه، خرجت من الحمام، فإذا بكل العائلة، خالاتي وأمـــي وجدتـــى وأبـــي واقفون على الباب يتطلعون إلى سيد وقد أمسكه أبوه "عبده الفحام" وأمه "علية القرص" من قفاه السمين أمام أبي، وقد سميت علية بالقرص لأنها كانت قصيرة وسمينة، فكانت تـــشبه قرص العجين، كان أبي أطول من عبده بكثير، وكان واقفا يـــستمع إلـــيهما فـــي هدوء، بينما كان الرذاذ يتطاير من فم عبده ليـــسقط على وجه ابنه، وقد انتفخت عروقه فيما كانت أمه تتطلع

إلـــى في غيظ، وكانت لبنى التي دخلت شقتنا ووقفت خلفي تحاول أن تقرصني من الخلف.

-شوف ابنك ضرب الوله وفشخ* له رأسه إزاى..

أدركـــت بـــأن مصيبة ستحدث بعد دقائق، وتطلعت إلى لبنى محـــاولا الاستنجاد بها فهي التي تعرف الحقيقة كاملة، استشهدت بها، لم يستمع لي أحد أما هي فكانت مستمرة في محاولة قرصي، ثـــم بـــدأت أصواتهم تعلو، وظل الزعيق متبادلا برهة، ثم هدأ كل شئ حين قال أبي بأنه سيعاقبني عقابا شديدا على مافعلته في سيد، وانتهـــى الأمـــر عند ذلك أو هكذا ظننا، ودخلنا فيما كنت أحاول الاختباء خلف جدتي، حين صرخ في أبي:

-هاتقوللى كل اللى حصل من غير "تنتش".. وبعدين عبده ده رد سجون ومراته ست بتخانق دبان وشها وأنا مش ناقص، راجل فاضي وأنا مش فاضي له.. يللا انطق..

كـــنت أتطلع في وجهه محاولا تجنب كل مايمكن أن يوقعني فـــي دائـــرة اللوم ومن ثم التعرض للضرب وهى المرحلة الثانية، وسننتقل للمرحلة الثالثة المتعلقة بعدم الخروج وربما الحرمان من المدرســـة نفـــسها، كـــنت أفكر بسرعة، على أن أخترع قصة ما تنقذني من ذلك، وكنت مترددا في عملية الاختراع هذه لأنني أعلم أن هـــناك أطـــرافا أخرى يمكن أن تنقل الصورة كما كانت، إذن

*فشخ : فتح فتحة كبيرة ، والمعنى هنا أنه شج له رأسه نصفين

علـــى أن أقـــول الحقيقة دون أن أقول الحقيقة فعلا، وهكذا نزعت من الصورة لبنى وسباحتنا سويا دون ملابس خلف مطار الجميل هـــناك، وقلـــت الباقي وأنا متردد لأن حكاية البحر لن يتركها أبي دون عقاب ما، وحكيت مافعله أبوللو معي، وحين انتهيت سحبتني ســـتي مـــن يدي فجأة دون أن تترك لأبي أو لأي مخلوق فرصة التعلـــيق والاصـــطياد فـــي الماء العكر، ودخلت بي الغرفة وهي تدمدم، وقالت قبل أن ندخل موجهة حديثها إلى أبي الذي كان يقف أمامهـــا غير قادر على التدخل، كانت بتلك الحركة قد أعلنت عن انتهاء المحاكمة وتلاشى أي فرصة للعقاب، خاصة في ظل علمهم بأنني كثيرا ماتعرضت لإصابات على يد سيد الفحام دون أن يعلم أبي، ولذلك وجدها الجميع فرصة للانتقام من سيد، وفي ظل عدم علم أبي بهذه الأحداث، فكان من المناسب وفقا لتفسير ستي إفلاتي بأي شكل من بين يديه.

-شفت حتى الملايكة معاه..

وكـــان الجمـــيع يضحك، دخلنا أنا وهي، وجلست معها على السرير، وتحت اللحاف سألتني مرة أخرى:

-هـــو مـــين سي أبوللو ده اللي انت بتحكي عنه.. انت ياوله مـــش هاتـــبطل نتش.. ابعد من سكة الوله سيد بن علية القرص، دول ناس غاوية شكل وشبيحة..

كان كل شئ هادئا هذا المساء، انسحب الجميع، وخلت الشقة مـــن الـــصياح فجأة، ولجأت خالاتي وأمي إلى النوم وخرج أبي،

ونامت ستي، وصحيت أنا لأفكر فيما فعله أبوللو معي اليوم، ولكنني كنت أعتقد بأن ماحدث في شارعنا بعد هذا اليوم كان سببا مباشرا للحرب التي حدثت بعد ذلك، إذ لم أتوقع أبدا ماحدث في اليوم التالي حين تفرجت المدينة كلها على شارع "الفتوات" وهو يتحول إلى أكبر مظاهرة في تاريخ المدينة.

(٧٧)

كنت أنا وكريستينا وخالتي أم هاشم نركض على الشاطئ ممسكين بتلك الطائرة الورقية وكانت ضحكاتنا السريعة تملأ الفضاء وكانت قد مرت سنتان تقريبا على تعرفي إليها، لم يكن هناك أحد معنا، كانت كريستينا قد أقبلت بعد العصر واصطحبتني أنا وخالتي، ولم يكن هناك ضرر في ذلك سوى مادمدمت به جدتي ولم يعقب عليها أحد، قالت شيئا عن النصارى وربطت ذلك بي ثم سكتت، خرجنا إلى الشاطئ الخالي، كانتا تركضان معي أحيانا وأنا أحاول أن أصل بالطائرة الورقية الملونة إلى سقف السماء، وكنت على يقين بأن الرسالة إذا وصلت لسقف السماء فإنها من المؤكد ستصل لأبوللو، إنه الوحيد الذي يسيطر على السماء تماما، وهي مفتوحة أمامه ليل نهار، إذن ستقع عينه عليها

بعـــد أن تخترق السحب ثم الصحراء الزرقاء، وتصل إلى النجوم، كـــنت قـــد قررت إرسال رسالتي الأولى لأبوللو من خلالها، من خـــلال الطائـــرة الورقية الملونة، توقفت وكنت قد أحضرت معي الـــورقة والقلـــم، حكـــيت لخالتي أم هاشم ماأريده، فضحكت أولا وتـــرددت قلـــيلا قبل أن تخبر كريستينا ماأريده بالضبط ، كانت كريستينا تبتسم لي في ود، حين بدأت أقرأ الرسالة لها ولخالتي أم هاشم، وكنت متأكدا أنها لن تفهم شيئا مما أقول، لكنها قاطعتني:

-أبوللو..

-أيوه أبوللو.. وزيوس كمان .. بس أنا ماباأحبوش..

-أتيموس[6]..

وانطلقـــت ضاحكة تلك الضحكة العالية، أخذت تطلع إلي وقد بانـــت على ملامحها تلك السمات التي أعرفها جيدا، فسارعت إلى القول:

-لا مـــش مجـــنون.. والمصحف مش مجنون.. باراكالو.. باراكالو .. علشان خاطري..

وكنت أظن أنها رفضت أن تكتب شيئا، فيما أخذت خالتي أم هاشم تحاول شرح الأمر لها، فهمت منها أنها قالت لها أن علاقتي بأبوللـــو قديمة جدا، وأنني أعرف الكثير عنه وكذلك عن زيوس، وأننـــي كثيرا ماأسألهم في البيت أسئلة لايستطيعون الإجابة عليها،

---

**[6] أتـــيموس Atimos لفظة تقال عند الضيق والزعل من شخص ما، ولكنها خفيفة في ميزان ألفاظ الشتائم اليونانية، وهنا تعني ياملعون!!!**

وقالـــت لها في النهاية أنني مهووس أبوللو، وربما قالت لها بأنني أعشق أبوللو أكثر من الجريج أنفسهم، حتى ( ياني) نفسه وعدني بأن يأتي لي بتمثال لأبوللو من أثينا ليضعه عندي، وأخبرتها أيضا بأننـــي أعلق بعض صور لأبوللو تحت السرير وهو سر لايعرفه أحـــد علـــى الإطلاق، واستغربت من معرفة خالتي أم هاشم لهذا الأمـــر فقد كنت قد أخفيته عن الجميع حتى جدتي لم أحك لها ذلك أبـــدا، كـــيف يتم فضح أسراري هكذا، ألايكف الكبار عن العبث بأحلامـــنا؟ ابتـــسمت كريـــستينا، وكنت أبتسم لها بتودد أن تقوم بالكـــتابة سريعا، محاولا تناسي كل ماقالته خالتي لها، كانت تتكلم كلمتـــين جريجـــي وكلمتين عربي فكنت أفهم تقريبا كل ماتقوله، وحاولت انهاء هذا الحوار العبثي من وجهة نظري قائلا:

-باراكالو كريستينا..

نطقت في النهاية :

-ثا غرابسو[7].. ثا غرابسو..

كـــنت أتطلـــع لها ولاأفهم ماتقول، هزت لي خالتي أم هاشم رأســـها بأنهـــا وافقت، تركت مابيدي في قفزة واحدة، واحتضنتها وقبلتها في خدها فيما كانت ضحكاتها ترن في أذني، وكانت تمسك بكتفـــي بيديها الصغيرتين، كنت أرى عجبا فيهما، كانتا أصغر من

---

**[7]أي ســـأكتب: ثـــا Tha: أداة استقبال توضع قبل الفعل المضارع للدلالة على الفعل فـــي زمـــن اللمستقبل القريب، والفعل هنت جرافو Grafo أي "أكتب"، وتم تصريفه بسبب Tha في صيغة المستقبل**

---

يدي، كيف لم ألاحظ ذلك من قبل، كانت أيضا قد خلعت قلنسوتها البيضاء التي ترتديها وكان شعرها الذهبي يطير خلف ظهرها، قالت لي خالتي بأنني يجب أن أقرأ الرسالة وستحاول هي ترجمتها بالجريجية قدر ماتستطيع، تمهلت قليلا وكان قلبي يخفق وأخذت أقرأ على مهل، وأنا ألتقط أنفاسي:

**العزيز الغالى أبوللو**

**وربنا حضرتك غالي قوي.. اني باشكرك على كل مساعداتك عشاني مع السوله سيد الفحام.. بس عايزك تحقق لي أمنية واحدة.. واحدة بس.. شفت بقى أني مش طماع إزاي.. وأني شايف برضه إن الأمنية دى مش كبيرة عليك، يعني مسألة الجناحين دول.. أني كل يوم بأقوم من النوم أدور عليهم، يعني لو سمحت هم مش جناحين كبار لأن أني لسه صغير..أني عاوز جناحين كل واحد منهم من ريشة واحدة بس ريشة كده ملوكي على رأي ستي.. ريشة كبيرة، يعني لو ممكن تحقق لي الأمنية دي.. واوعدك إني مش هاأروح بعيد، المسألة كلها عاوز آخد لفة كده على بورسعيد من فوق لاأكتر ولاأقل.. نفسي اشوفها كلها حتة واحدة..على فكرة أني بحب بلدي قوى والله زي انت مابتحب اثينا كده.**

**والسلام ختام**

**ابنكم**

وكتــبت مــن ورائى كريستينا تلك الرسالة بالجريكى وكانت خالتــي أم هاشم تملي عليها ماكتبت بالعربية جملة جملة وتنتظر حتى تنتهي كريستينا فتبدأ بجملة جديدة حتى انتهينا، نفس الكلمات، لــم أدعها تزيد حرفا واحدا ولا حتى نقطة، كنت قد أعددت عدتي فــي رأسي قبل أن نأتي إلى البحر، كنت أريد أن أكون محددا في طلبــي، وكانــت تكتب وتضحك، وفي النهاية وضعنا الرسالة في الطائرة الورقية، بين الخوص وورق الجلاد الأزرق، وحين انتهينا لــصقتها مثبتا إياها بقوة.بحيث لاتنخلع وتطير في الهواء وحدها، وأخــذت أركض بالطائرة وهن خلفي يصرخن من الفرحة، كنت أركض للأمام حتى تعلو وتعلو، كانت الطائرة تصعد إلى آفاق لم أرهــا مــن قبل، كنت أريد لها أن تطاول النجوم وأن تعلو حتى فوقها، حتى علت وأصبحت تكاد لاترى، أصبحت صغيرة للغاية، كانت تشبه جنياتي الصغيرات في تلك اللحظة اللاتي كنت أراهن يحملن الطائرة أيضا ويرفرفن حولها، وكنت سعيدا للغاية، كنا قد أحضرنا خيط دوبارة* طويل، أطول من أي خيط دوبارة رأيته في حياتــي مــن قبل، وحين اطمئننا إلى أن ارتفاعها أصبح مناسبا، أمــسكنا بطرف الخيط وقطعنا، أحسست بأنني أطلقت لها حريتها فارتفعــت أكثــر لأعماق السماء حتى اختفت بعد دقائق، وأدركت حيــنها بــأن رسالتي قد وصلت أبوللو، وأنه على الآن أن أنتظر الجناحين.

---

*دوبارة : حبل رفيع ولكنه قوي لاينقطع بسهولة.

(٧٨)

لـــم نسر طويلا بالعجلة، أبي وأنا، وكنت أتطلع للمدينة للمرة الأولى ربما في الثانية عشرة ليلا، كان كل شئ نائما، لكن حركة الحمـــيدي لـــم تهدأ، هاهي العربات الممتلئة بالسمك تأتي، وهاهم عمـــال البلدية يقومون بتنظيف أنهار الشوارع الحجرية مما علق بالأحجار السوداء من بقايا السمك والخضار واللحم، وهاهم سائقوا عـــربات الحـــنطور نائمـــون داخلها في وداعة، كان الجو جميلا وكانـــت النجوم تشع في ليل المدينة، أقف على محطة القطار مع أبـــي، وكان قد أتي بحقيبة ملابسى وبعض الطعام ونفحني خمسة وعـــشرون قرشا، حين توقف القطار، أقبل علينا سائقه، كان أكبر مـــن أبـــي في العمر وكان كرشه يرتج أمامه، يرتدى تلك الحلة الرصاصية وكابا بنفس لونها، سلم عليه وأمسكني من يدي وحمل حقيبتـــي في يده الأخرى، كنت ذاهبا لجدي الآخر الذي رأيته من قـــبل مرتين أو ثلاثة لدينا في بورسعيد، وكان ذلك قبل أن يموت مباشـــرة، لاأدري لماذا ألح على أبي في ذهابي، كانت تلك المرة الأولـــى لـــي في القطار، بكت جدتي كثيرا، فيما أحضر لي جدي قفـــصا من المشمش تركه أبي في غرفتنا بعد أن تناوله من جدي

علـــى مـــضض، وكـــان جـــدي يؤكد علي بأنني يجب أن أسلمه بنفـــسي إلـــى جدي الآخر، ولم أعرف أبدا كيف كنت سأفعل ذلك لـــولا تـــدخل أبي في الأمر، وترك إخوتي يأكلون بعضه في تلك الليلة.

تـــرك القطار المحطة وكنت أشير لأبي من الشباك وكان هو يبتـــسم، استغرق الطريق طويلا ورحت أنا في النوم بعد لحظات، وحـــين فتحت عيني، كنت أتطلع لذلك السواد اللانهائي الذي يحيط بـــنا مـــن كل مكان، حين أتى السائق وسحبني أنا وحقيبتي وكان القطـــار علـــى وشك التوقف، كان الوقت ليلا، وحين توقفنا على المحطـــة هـــبط وأنـــا معه إلى الرصيف وهناك كان يقف جدي ضـــاحكا وأخذنـــي في أحضانه ورفعني من على الأرض، لكنني كنت أشعر بأن به شيئا ما، كان وجهه عجوزا عن آخر مرة رأيته فـــيها لديـــنا في بورسعيد، سلم على السائق وودعه، وسلم السائق علـــى أيضا وقبلني في خدي ورحل، بدأنا التحرك أنا وجدي حين دخـــل إلى المحطة قطار آخر، فتوقف جدى لشراء بسكويت لي، لاحظـــت نزول طابور من الرجال الذين يرتدون قمصانا بيض أو بـــذلات ومعاطف، وكانت أيديهم مكبلة بقيود حديدية، من القطار الآخر، فتوقفنا قليلا حتى عبروا، وحين سألت جدى عنهم أشار لي بالصمت، وكان هناك عدة جنود وضابط خلفهم، حين فوجئت بأحد الجـــنود يدفـــع أحـــدهم في ظهره وكان رجلا كبيرا، فسقط على الأرض فحـــاول بعـــض الـــشباب ممـــن في أيديهم القيود رفعه،

فاندفعت من فم الضابط جملة متلاحقة من الشتائم، فتحامل الرجل على نفسه ونهض، وعادوا إلى السير من جديد حتى اختفوا تماما، وحـين كانـوا يهـبطون سلم المحطة تطلع أحد الشباب منهم لي وابتـسم فابتسمت له، ولاحظ جدي ذلك، فجذبني من يدي وانطلقنا خارجين من المحطة.

كـان فـي انتظارنا خارج المحطة رجل يقف بجانبه حمار، ركبـنا الحمار فمشى على مهل ولاحظت أن الأرض هناك متربة للغايـة، بجانـب الكثيـر من الحفر الطينية، كما أن الجميع يسير مـرتديا تلـك الجلابـيب والطواقـي الـصوف البنـية الطويلة أحـيانا، القـصيرة أحـيانا أخرى، وكان الجميع يلقي على جدي بالـسلام، وكـنت سـعيدا للغايـة فقد كانت تلك المرة الأولى لي التـي أركـب فيها حمارا، كنت ممسكا بعلبة البسكويت، وأخرج جـدي مـن جيـبه كوزا من السكر البني الذي يشبه حبة الجزر وأعطانـي إيـاه، كنت أقطع منه قطعا صغيرا داخل فمي متلذذا بطعمـه، لكنني كنت أفكر في سر تلك الابتسامة التي رأيتها على وجـه الـشاب، وسبب وضع القيود الحديدية في أيدي هؤلاء، ولم يطـل تفكيرى كثيرا إذ انشغلت بأشجار المانجو والجوافة والموز، وتلـك التـرع الصغيرة التي تبدو في كل مكان حتى وصلنا إلى منزل جدي.

(٧٩)

فـــي المرة التالية التي قابلنا فيها كريستينا كانت بداية الشتاء ومـــع ذلـــك كـــان هناك بعض الناس المتناثرين هنا وهناك على البحـــر، كـــنت أنا وخالتي أم هاشم على البحر نتقاذف تلك الكرة، حـــين أقـــبل هذا البحار اليوناني، كنت أراه للمرة الأولى، فتركتنا خالتي وجلست هناك معه تحت الشمسية وكان أحمر اللون ذا شعر خفيف، كنت أتعجب كيف يجرى الحوار بينهما، لكنني أدركت أن خالتي تعرف اليونانية وأنها حين نزلت القاهرة وغابت لعدة شهور كانت تدرسها، وهاهي الفرصة أتتها مع كريستينا كي تتعلم أكثر، كمـــا أنها بمعرفتها لهذا البحار سوف تتعلم كل شئ، لكنني لم أدر مـــن أيـــن عـــرفته، وإن كنت قد سمعت أنها عرفته عن طريق المراســـلة، ولم أفهم وقتها ماذا يعني ذلك؟ بعد عدة ساعات تركنا البحار وكان قد سلم علي، وابتسم في وجهي ومشى من حيث أتى، وحـــين بدأت أفكر كيف يمكنني أن أستفيد من هذا الأمر، كان قد اختفى، فجأة ظهر خالي مسعد، جلس معنا وأخذ يضحك مع خالتي وكريستينا، وكنت أنا أحاول الإنصات للماء، كنت أشعر بأن موج البحـــر يحدثنـــي وبأننـــي يمكن أن أسمع كلماته سواء من صوت

المـــوج أو مـــن هسيس الفقاقيع التي تنفجر، لاأدري شيئا عن تلك الكلمات التي كان يصبها البحر في أذني، كنت أشعر بأنه يقرؤني المـــستقبل، ومع ذلك فهو لم يقل لي أي شئ عن كل ماحدث بعد ذلك، لكنني كنت اشعر بأن هناك كثيرا من الحوادث الرهيبة التي سوف تقع، ومع ذلك كنت أستسلم لأحداثي اليومية، ولم أكن أتطلع إلى مابعد الغد، كان أبوللو هو شغلي الشاغل فلم أنتبه إلى مايقوله البحر وأمواجه، وإلى الأسرار الصغيرة التي كانت تبثها لي فقاقيع المـــاء حـــين تتفجـــر، كنت أعيش عالما لايتكرر كثيرا في حياة البـــشر، كنت أكون خيالاتي بارتياح شديد، وكنت أعد نفسي لتلك المقابلـــة التـــي كانت أمنية بعيدة المنال في ذلك الوقت، وإن كنت أشـــعر بأنها ستتحقق يوما ما، كنت متأكدا من ذلك، لا أدري من أيـــن أتاني هذا الشعور اليقيني! لكنني لم أفكر يوما في أن أبوللو يمكن أن يموت ويختفي تماما، كان ذلك أمرا لايمكن أن يخطر لي علـــى بال، ولا لماذا يموت بعد كل هذا العمر الطويل، لماذا يمكن أن يمـــوت الآن، لـــم أفكـــر في ذلك، لكن كان هناك من بين تلك الفقاقـــيع من أخبرني بأن ذلك يمكن أن يحدث، كنت متأكدا تماما الآن بـــأن أبوللـــو قد حانت نهايته لكن كيف وأين ، لم أكن أدري تماما، كنت في حاجة إلى نبوءة أخرى.

تركت خالتي أم هاشم خالي مسعد وكريستينا تحت الشمسية، وأقـــبلت نحوي، أخذتني في جانبها وقد وضعت يدها على كتفي، كان يبدو عليها أنها تفكر في أمر ما، سألتها:

-مين ده اللي كان معاكي ياخالتي..
تفحصتني في شك قبل أن تجيب، وقالت
-احلف الأول إنك مش هاتجيب سيرة لحد..
-وحياة أبوللو ماهاأجيب سيرة لحد.. ماتخافيش..
تطلعت لي في شك أولا ثم انفرجت أساريرها
-أنـــي عارفـــة إن أبوللو غالي عندك قوي علشان كده أني مـــتأكدة إنك مش هاتقول لحد..أني عارفة إنك راجل دلوقت.. (ثم صـــمتت قليلا) .. ده بحار يوناني.. احنا متفقين على الجواز بس إمتى مش عارفة..
-يعني بتحبيه..
تفحـــصتني مـــرة أخرى كأنها أدركت فجأة بأنني قد كبرت، سكتت قليلا ثم قالت :
-بحـــبه مـــن زمان.. ومش هاأقدر أحب حد غيره.. أنا مش عارفه انت هاتفهم الكلام ده ولا لأ.. أني ..
وفجـــأة أتانـــا هـــذا الصراخ، كان صراخ كريستينا، فالتفتنا بـــسرعة لـــنجد خالي مسعد يحاول أن يكمم فمها، ركضنا نحوها وكانـــت تـــرتجف وقد توقفت عن الصراخ وكان كل من بالبحر يتطلع نحونا..
-إيه .. فيه إيه .. إيه اللي حصل..
توجهت خالتي بالحديث إلى خالي مسعد، الذي قال في سرعة وهو يمضى:

-صاحبتك دي مجنونة..
قال ذلك وانطلق بعيدا دون أن يبدو عليه أي شئ.
سألتها خالتي. وقد ضمتها إلى صدرها، ثم قالت لها:
-باراكالو..كاثيسته..
جلـست وهـي تلملـم نفسها، ربما لاحظت أنها تتحدث إلى نفسها، ثم نهضت فجأة وأصرت على الرحيل، وهناك تركناها في قلـب المديـنه ركبت حنطورا بعد عدة كلمات تبادلتها مع خالتي وقالت وهى تركب الحنطور إلى المعدية في طريقها إلى بورفؤاد وكانت تشيح لي بيدها وهي تبتسم:
-كالسبيرا أم هاشم.. كالسبيرا..ساغيري..
كانـت تناديـي بياصـغيري، وحين رحل الحنطور، سألت خالتي .
-هو حصل إيه ياخالتي..
-الله يخيـبه خالـك مسعد حاول يبوسها.. فاكرها واحدة من اللمامة اللى يعرفهم.. هاأخرب بيته لما أشوفه.
كـنت مغـتاظا منه أنا الآخر، كريستينا صديقتي أنا وليست صديقته، فلماذا فعل ذلك، سؤال أرقني كثيرا، إلى أن سألت خالتي ذات يوم.
-هو خالي مسعد حاول يبوس كريستينا ليه؟
-افتكرها بتحبه؟
-لأ طبعا مابتحبوش.. دي بتحبني أني.. أني هاأتشاكل معاه لما ييجي..

ابتسمت وقالت:

-لأ سيبهولي أني لما ييجي أني هاأوريه..

لكنه لم يأت إلا بعد عدة شهور كنا فيها قد نسينا الأمر برمته.

(٨٠)

في اليوم التالي لشكلتي مع سيد الفحام، وكنت محروما من الخروج والذهاب للمدرسة، وكنت جالسا مع جدتي في غرفتها أقوم بحل واجب الحساب أحاول استدعاء جنياتي، فيما لمحت أمي تخرج من غرفتها وقد لفت نفسها في ملائتها السوداء اللف اللامعة، وكان أبي في الداخل أيضا يؤكد عليها أن لاتتأخر حتى يستطيع أن يخرج لأصحابه على المقهى، سمعت إنغلاق الباب، فعدت لكراسة الحساب وأنا أحاول تخيل كيف يمكن الخروج من هذه المعضلات، كنت أرى الأرقام كأنها حروف جريكية كتلك التي كتبتها كريستينا في خطابي وأرسلتها لأبوللو، حين تناهى إلى سمعي صوت صراخ، ورفعت جدتي برأسها وقالت كلمتين سريعا.

-سعاد.. بنتي..

أمـــا أبـــي فقد خرج مسرعا من الغرفة ومعه خالاتي وخالي مسعد أيضا الذى كان موجودا من الغرفة الأخرى، وعاد الصراخ مرة أخرى، فقفز الجميع نحو الباب، باب الشقة، كان صراخ أمي واضـــحا تلـــك المرة وأنه آت من أحد شقق العمارة في الطوابق الأولـــى، قفـــز أبي حافيا على السلالم وكنت خلفه تماما وخالاتي خلفـــنا وجدتي في نهاية الطابور، كان صوت صراخ أمي آتيا من شـــقة " علـــية القـــرص" علـــى وجه الدقة، ولم يكن هناك مجال للأسئلة، نظر لي أبي وهو يستعد للمعركة :

–هاتلي الشومة اللى ورا الدولاب..

صعدت بسرعة إلى شقتنا من بين أقدام خالي مسعد وخالاتي فـــيما كـــان الاثنان أبي وخالي مسعد يحاولان كسر الباب، وحين كـــنت أصعد كان ( ياني) والعربي وزوجتاهما يركضون هابطين جمـــيعا نحـــو الأســـفل ليـــتحققوا ممـــا يحدث، دخلت إلى الشقة وأحـــضرت الشومة وركضت هابطا، وكان الجميع قد نجحوا في خلـــع الـــباب، وكنت أول الداخلين قفزا كانت أمي بين ثلاث نساء هـــن أم علـــية ، وعلية القرص زوجة عبده الفحام وأختها "القطة" هكـــذا كان اسمها وهي زوجة سيد ترسة الذي يسكن في العمارة المجـــاورة لنا، والمشهور عنه غيته في صيد الترسة ولذلك أطلق علـــيه اســـمها، كن غارقات في ضربها غير مدركات لما يحدث على الباب، وكان عبده الفحام زوج علية القرص واقفا يتفرج، كن يحاولن ضربها وتقطيع ملابسها من عليها وكانت ملاءتها اللف قد

سـقطت تحـت قدميها، كان أبي قد قفز مواجها عبده الفحام الذي حاول الفرار لكن أبي كان قد عاجله بقبضة يده على رأسه فسقط، فـيما قام خالي مسعد بسحب المرأتين علية أم سيد الفحام، ودفعها مـن قفاهـا خابطا رأسها في الحائط فسقطت، أما المرأة الأخرى "القطـة" فقـد أمسك بها بين يديه لاتتحرك، بينما قامت خالتي أم هاشم بسحب أمي من بينهم، وقامت خالتي حنان بمواجهة أم علية وزنقـتها هناك في أحد أركان الشقة وأمسكت بفردة حذاء لها ذي كعـب ألومونيوم وأخذت تضربها به على رأسها ووجهها، لمحني أبـي فتـناول مني الشومة بسرعة ورفعها فوق رأس عبده الفحام الذى كان يحاول النهوض وقام بتحريك رأسه ليتحاشى شومة أبى لكـن يد أبي كانت أسرع، فسقطت على يد الكنبة التي كانت أعلى من رأس عبده فهشمتها، وأكملت الشومة طريقها إلى رأسه فانفجر نـبع مـن الدماء ليغطى وجهه ويتناثر على ملابسه ووجهه، فيما أكمـل أبـي الطريق إلى البقية، كانت الشومة في يده لاترتفع إلا لتـسقط فوق جسد، وينتزعها من جسد لتسقط فوق رأس، وركض الجمـيع أمامـه إلى أسفل، على سلالم العمارة وهو خلفهم ومعه خالـي مـسعد، بعـد دقائق كان الجميع في الشارع، كانت لبنى تـصرخ تنادي أمها، وكنت أقف في مواجهة سيد الفحام، الذي لم يتحـرك فـي الـبداية، فجـأة تحول الشارع إلى معركة طاحنة، وتـدخلت أطـراف كثيرة، من أقربائنا وأقرباء عبده الفحام وعلية القـرص، حـيث كـان في الشارع في تلك اللحظة سكان ثلاث

عمـــارات مـــتجاورة تقريبا، وكانت كل عمارة بها بلوكين وبكل بلوك ثمانية شقق وكل شقة بها اثنين إلى ثلاثة أسر في عدد أفراد يقتـــرب مــــن العـــشرة تقـــريبا وعلى ذلك فإن متوسط من كانوا بالـــشارع بلـــغ تقريبا حوالى الثلاثمائة شخص، لكن الأمور كانت تـــزداد اشـــتعالا، كـــان هناك خلق كثير بالشارع، كان ذلك يشبه مايحـــدث تمامـــا في احتفالات حرق اللمبي في مواسم شم النسيم، وأخيـــرا أتت الشرطة، وتم القبض على الجميع، الذين ساروا بين العـــساكر كمـــا هم من شارع الفتوات من المنطقة الرابعة الشعبية حتـــى قـــسم شرطة العرب هناك بالقرب من المنطقة الأولى فيما كانت نصف بورسعيد تتفرج علينا من النوافذ والشرفات وتضحك.

في الكراكون، لم يتهم أحد أحدا آخر، وانتهت الشكلة الكبيرة بيـــنهم بمحضر صلح وقع عليه جميع الأطراف، وفي المساء كنا نجلـــس جميعا في شقتنا عبده الفحام مربوط الرأس وزوجته عليه "القـــرص" وقـــد تعلق ذراعها في رباط أبيض، بينما كانت رأسها مـــربوطة هـــي الأخـــرى، وأختها "القطة" التي كانت تنادى بذلك بسبب صوتها الرفيع وعينيها الذهبيتان، كانت تجلس بجوار خالي مـــسعد يحاول ملاطفتها، وكان زوجها سيد السماك جالسا بجانبها مـــن الناحية الأخرى، وأم علية التي كان وجهها كله منتفخا بفعل ضـــربات الكعب الألومنيوم وبجوارها كانت خالتي حنان تضحك وهـــي تضحك معها، شربوا شايا كثيرا، وأكلوا كثيرا، وكان جدي قـــد أحـــضر معه عدة بطيخات شليان ونمس بعد أن علم بماحدث

وبمحضر الصلح، سرعان ماتم تقطيعها وتم توزيعها على الجميع، كما أخذ ( ياني) يغني تلك الأغنيات الجريجية وكان الجميع يحاول أن يغنـــي معـــه، وأتى عمي خضير أيضا ومعه السمسمية، كان مـــشهدا غـــريبا للغاية، وكنت غير مصدق بأن هؤلاء الناس كان يمكـــن أن يقـــتلوا بعـــضهم البعض في الصباح، هكذا كنا، قلوب بيـــضاء وعقـــول صـــغيرة بسيطة لاتتحمل ما لا قدرة لها عليه، يغلـــون سريعا ويخمدون اسرع، كنت أراهم يحملون الخناجر في الـــصباح لبعضهم في الشوارع وتعلو أصواتهم، وفي المساء كنت أجدهم على المقهى كأن شيئا لم يحدث، لم تكن الحياة تحتمل الثأر أو الدماء كان البحر وحده يكفي.

## (٨١)

عـــاد الضابط للجلوس وقد هدأ تمام، وطلب كوبا فارغا من الجـــندى، وعاد يتطلع إلى، كنت قد تكومت على الأرض صامتا، تـــسقط مـــن عيني دموع غريبة، ورفع زجاجة المنقوع إلى فمه وتجـــرع بعـــضا مـــنها وتوقـــف فجأة وعيناه إلى أعلى، ووضع الـــزجاجة علـــى المنضدة، ثم أضاء المصباح قليلا وقام وأمسكني مـــن ذراعي واقترب من الضوء وأخذ يتطلع في وجهي ومد يده وخلع الرباط من فوق رأسى وتطلع للجرح، في ذقني ورأسى، ثم

عـــاد للجلوس، وكنت أتأوه دون صوت أحاول إمساك جانبى، أما جرح حاجبي فكان مازال ينزف، حين صرخ فجأة في الجندي:

-هاتولي دكتور ياولاد الكلب..حالا..

كـــان يصرخ في انفعال كأنه اكتشف شيئا غاب عنه في ظل حالـــة السكر التي كان بها، ولم أكن أدرى سببا لانقلابه المفاجئ، كـــان شـــر مطلقـــا منذ لحظات وأصبح خيرا مطلقا بعد لحظات أخرى، ما السبب في تقلباته في الاختيار؟ هل هذه طبيعة إنسانية؟ أم أن الله يخـــتار لـــنا كل شئ قبل أن نختار؟ فلماذا اختار لي أن أتعـــرض لكل ذلك؟ كان وراء هذا الأمر حكمة ما؟ حكمة أسميتها الحكمـــة الميكانيكـــية، لأدري مـــن أيـــن أتيت بهذه الكلمة، ربما لاحظـــت ذلـــك في حركة السيارة، أو غلاية الأقمشة في مصنع الغـــزل والنـــسيج أو في دفعات الريح لمركبتنا جدي وأنا، أو في حـــركة البسكليته وقارنت ذلك بما يحدث لنا، يمكن أن أدعي بأنه كان بإمكاني أحيانا أن أحكم على الأشياء، كانت كل حركة تؤدى إلـــى حركة أخرى وكل مشكلة تتفرع عنها مشكلات أخرى، وإلا كـــان عمـــي خضير مثلا كان قد ارتاح بعد زواجه، لكن مشكلته تطـــارده، وكـــذلك أبي وعمي حامد، كل واحد تطارده مشكلاته، ونظل في حالة الانقسام هذه حتى النهاية، نحن أشبه مانكون بتلك الحالـــة الميكانيكية، لايوجد شئ بدأ من الفراغ، إنها حركة تؤدى إلـــى أخـــرى، سلـــسلة ردود أفعال لاتنتهي لكنها مرتبطة بالحالة المـــزاجية لنا أو بما نريده ونبحث عنه في لحظة معينة. كانت كل

تـصرفات عمي خضير تؤكد لي ذلك، حين نصل إلى هذا القياس سنكتـسب تلـك الحكمة الميكانيكية التي نستطيع فيها الاختيار، لم يكـن الأمر يختلف لي عن تلك البسكليتة التي أحاول قيادتها حين تـركها أبـي ثـم باعـتها أمي بعد ذلك، كنت أتوقف أمام حركة التروس، والآن تكشف لي الحياة عن روحها، كنت قادرا رغم كل ذلـك على التفكير في هذا السبب الميكانيكي، لكن هل الأمر بهذه البساطة!؟.

كان القائد جالسا يتفرج على الطبيب وقد انتبه تماما الآن لكل مايفعلـه، كـان يشخص حالتي ويلقم الجرح في حاجبى، ويربط صدرى الذي كسر به ضلع، ويعيد الكشف على الجرح في رأسي، خـرج عدة مرات خارج الخيمة، كأنه لايتحمل مايراه، كان رجلا غـريبا للغاية، من أين اكتسب هذه القدرة على القسوة والحنان في ذات الوقت، وكيف كان يصرخ في الطبيب الصغير بأن يعتني بي تمامـا وبأنه سيخرب بيته إن لم أستيقظ في الصباح سليما معافى، وكـان يـسأله عـن سبب خرسي، كان يلقي عليه بآلاف الأسئلة والطبيب غارق فيما يفعله وفي النهاية يعطيني تلك الحبة المنومة، فأنـام في خيمة القائد، في سريره هو شخصيا، وكان جالسا طول اللـيل يحتسى منقوعه ويبكى ويغني، وأصدر أمرا بعدم إزعاجه إلى الضابط الصغير، فيما رحت أنا في النوم أحلم بأبوللو وجدتى وأحاول ألا أفكر فيما حدث أو فيما سيحدث.

**نهاية المقطع الثاني**

## المقطع الثالث

## دماء أبوللو

(٨٢)

مـــاذا يفعل القاتل حين ينتهي من إراقة آخر دم ضحاياه، ماذا يتبقى في تلك اللحظة بعد أن يصبح العالم كله ملكا له وحده، حين يجـد أنـه يعـيش في هذا العالم كله وحده وأنه يملكه كله، ماذا سـيفعل؟ واحـد مـن الأسئلة التي لم أستطع الإجابة عليها، ولم أعـرف إلـى من أتوجه بها، كان الجميع حولي عاجزون، كنت أعـيش في وهم خيالاتي وأسئلتي التي ليست لها إجابات حاضرة ولا ينتظر حتى في المستقبل المعلوم الحصول على إجابة.

كـان القاتـل معلـوما لي أحيانا وغير معلوم لي في أحيان أخرى، لم أكن أظن أنني سأصل إلى هذا الطريق في النهاية، كنت أتسائل فقط لماذا حدث كل ذلك؟ لماذا كانت كل الطرق تؤدى إلى هـذا الجحيم الذي لم ينقطع؟ كانت تبدو لي الأسباب واهية وكانت النـتائج وخيمة، لماذا انزلقنا إلى هذا الطريق، جميعا؟ ألم يكن من الممكـن أن نتفادى كل ذلك؟ ألم يكن من الأفضل أن تبقى الأمور والحياة على هدوئها ومفاجآتها البسيطة دون أن تتحول إلى بحيرة الـدماء الغليظة التي غرقنا فيها كلنا ولوثتنا دون أن تستثني أحدا؟

هــذه الدماء التي التصقت بي أيضا لاتريد أن تبارحني، لم أستطع أن أبعد عينى عنها بل ورائحتها التي كانت تملأ أنفي، كيف تكون كــل هذه الصدف والأحداث هي الطريق إلى الجحيم؟ كنت أعتقد بــأن الحــياة ليس فيها أيا من ذلك، إلى أن اصطدمت بها، كانت أحلامــي تحترق واحدة بعد الأخرى، كان إيماني ومعتقداتي بكل تلــك الأشياء التي حكت لي عنها جدتي أو قرأت عنها أو حلمت بهــا كــان يتهــشم أو يحترق على نار هادئة أحيانا وعلى نيران مــتوهجة حمقــاء فــي أحيان أخرى، كانت اختياراتنا هي السبب أحــيانا أو مــا نحــن مجبــرون عليه في بعض الأحيان، وكانت الصدفة هي السبب في أحيان أخرى، كانت أعتقد بأننا ميكانيكيون فــي حــركتنا، أشــبه بتروس هذه البسكليتة، أنا أسير إلى مصير محدد لايمكن اجتنابه، كان علي أن أؤمن بتلك الحكمة الميكانيكية، بــأن خياراتي ليست حقيقية وأنها مجموعة من الأوهام المتراكبة التى لايمكن تفاديها، وهاأنا الآن في تلك اللحظة وفي هذه المرحلة من العمر قد بدأت أؤمن بذلك.

مــات جدي أمامي وهو يدخن سيجارته ، هناك على شاطئ المتوســط، لم أكن أعلم بذلك بعد حين كنت ذاهبا لجدي الثاني في تلــك القرية القريبة من الصحراء، كانت بيئة مختلفة تماما علي، كــنت مبهورا بتلك الحيوانات، الحمير والجمال والخراف والماعز والبقر والجاموس والدجاج والبط والأوز والأفراخ الصغيرة، كان كــل ذلك مبعث دهشتي، كنت لاأعرف في بورسعيد سوى السمك

بأنــواعه المختلفة، وبعض طيور المتوسط، وهكذا ربطت بين كل عــالم وبين مخلوقاته، وإذا قبلت بهذه الفكرة البسيطة، فمن المؤكد أن هناك مخلوقات أخرى تعيش بيننا، البعض نراه والبعض لانراه يعــيش في عوالم أخرى، وطالما اختلفت البيئة إختلفت الكائنات، للبحر كائناته كما للبر كائناته كما للسماء كائناتها، وإذا كان الأمر كــذلك فكيف يطير أبوللو، كانت هذه هي المعضلة التي كان علي الــتحقق مــنها، لــم أكن أظن أنه علي أن أفكر في ذلك في نهاية الأمــر، فإذا كان أبوللو يملك جسد إنسان فإنه سيسقط، ولما لم أر إنسانا من قبل له أجنحة، كذلك لم أر من قبل خيولا أو حميرا لها أجنحة، وإذا لم تكن لكل هذه الكائنات أجنحة فهي بالتبعية ستسقط، هــل رأيــت إنسانا من قبل يحاول الطيران؟ أو حتى حمارا يقف علــى حافة جبل أو من فوق حافة سطح عمارة يحاول الطيران؟ هــل رأيــت حمــارا من قبل بين السحب؟ من المؤكد أنه سيسقط وسيــسقط مــن ارتفــاع شــاهق، دون أن تكون له فرصة على الطيــران، وإذا سقط واحد فقط فإن كل من سيحاول ذلك سيسقط وسيموت، هذا هو الأمر في النهاية، إذا فالآلهة الجريكية هي فقط التــي لهــا قــدرة على أن تكون لها أجنحة، أما الجان والأعوان والعفاريــت فــإن لهــم القدرة على التخفي، وربما تكون لهم تلك القــدرة الخفية على الطيران والتحليق لأنهم لايعيشون بيننا وإنما يأتون إلينا من مسافات بعيدة لم نعرفها، من بيئات وأماكن تستطيع أجسادهم فيها أن تكون شفافة، لقد فرض منطق الأشياء نفسه على

تفكيــري وعلى أن أقنع بذلك الآن، وهكذا طردت فكرة أن أكون مجنونا طالما أملك القدرة على التفكير، فلا يوجد مجنون يفكر في أشــياء مــتعددة، وإنمـــا يتعلق بفكرة واحدة، وأنا أملك عشرات الأفكـــار الحقيقية وغير الحقيقية، وما أسمعه وما أقرؤه أحيانا وما أراه كــذلك فـــي السينما سواء هؤلاء الذين يطيرون أو يطيرون بمـــساعدة آلات هم الوحيدون الذين رأيتهم يطيرون، فهل يمكنني أن أصـــبح مثلهم يوما ما؟ كانت تلك الفكرة أيضا من الأفكار التي تـــثقل علـــي يوما بعد آخر، لكنني كنت أطمئن نفسي بأنها ليست الفكرة الوحيدة وعلى ذلك كنت أعد نفسي بعيدا عن الجنون.

## (٨٣)

فـــي الـــصباح استيقظت على سرير الضابط، كنت مسترخيا تمامـــا، أحاول أن لاأفتح عيني، فقد ينقلب الأمر إلى حقيقة دامية لاأســـتطيع أن أفر منها، على أن أفتح عيني ببطء، على أن أتحقق من أن كل مايجري حقيقي، وحين فتحت عيني ، لمحته يتطلع في وجهـــي فانتفضت وحاولت النهوض من السرير سريعا والتراجع إلـــى الخلـــف، لكـــنه أمـــسكني من كتفي في هدوء وكانت عيناه

حمـــراوين تمامـــا، كان فيهما هذا الأسى، الذي لم أره ليلة أمس اللعينة، ربت على رأسي قائلا.

-ماتقـــومش من السرير.. خليك مستريح.. أنا عاوز أشوفك زي الحـــصان.. مـــش هاتقوم من هنا إلا وانت صحتك تمام.. أنا مش عارف إيه بس اللى خلاني أعمل فيك كده...

ثـــم أخـــذ يتحدث طويلا ولم أكن مدركا تماما لما يقول، كان يعـــتذر عما حدث، كان يتوقف ليمسح دموعه أحيانا، كنت مندهشا مـــن تلـــك الـــشفقة الفجائية التي حلت به، كيف يمكن للانسان أن يمـــارس الـــبغض والشفقة في آن واحد؟ من أين يأتي بذلك؟! ولم يكـــن هناك أحد آخر بالخيمة، صرخ على من بالخارج وطلب لي طعامـــا وشـــرابا، أكلت وأنا أتطلع إليه في خوف، بدأت أسترجع ماحـــدث، قفـــز إلى سطح عقلي السؤال الوحيد الذى كنت أحاول تذكـــره وبـــدأ يـــدور في ذهني في تلك اللحظة، كيف أذهب إلى كريـــستينا، كانـــت هي الأمل الوحيد أمامي، كيف أعبر القناة إلى هـــناك، إلـــى البـــيوت البيضاء في بورفؤاد، هل سأجدها أم أنها رحلـــت مع الراحلين؟ كانت قد قررت الذهاب للقاهرة، فهل ذهبت أم أنني سألحق بها، كان على أن أحاول أن أتعافى سريعا.

تـــوقفت عـــن أفكـــارى حـــين قال الضابط فجأة إنه يعرفني ويعرف جدي، وأننا التقينا من قبل، أين لايذكر الآن، ربما في أي مكان في بورسعيد من قبل، ربما أي شارع من شوارعها الثماني القـــريبين مـــنا، ربمـــا على بورصة السعيدية مع أبي، ربما على

البحر مع جدي، ربما في سوق الحميدي، ربما في شارع أوجيني، لكن كيف لم أره، لم أذكر أنني التقيت ضباطا من قبل، وكان ذلك غريبا للغاية، الوحيد الذي عرفته يرتدي تلك الملابس الكاكية كان حامد الفاروقي، كنت أدقق في ملامحه، لكني لم أذكر أنني أعرفه، ثم قال فجأة:

-أنا عايز أقولك إني مصدق إنك ابن أبوللو زيوس.. أنا ماكنتش في وعيي بالليل.. ومصدق إنك رايح لكريستينا.. وكمان أعرف جدك كويس.. كويس قوى.. الله يرحمه..

اتسعت حدقتا عيني من الدهشة، فلم أكن أعلم من قبل أن لأبوللو مراسيل، كنت أعتقد أنه مرسال من أبوللو في تلك اللحظة، وهاهو يكشف عن كل شئ فجأة، إذن أبوللو حقيقي تماما، ماكان يجب أن اشك في ذلك، لماذا شككت أمس في ذلك؟ أصر أيضا على أنني لن أتحرك من هنا حتى أسترد صحتي تماما، رغم محاولاتي المتعددة للنهوض والذهاب، واستسلمت أخيرا مقتنعا بأن كل مايحدث لي حقيقة وليس من نسج خيالي، وهكذا كنت أغفو كثيرا وأنام وأحلم بجنياتي وأمي وجدي وستي، وكنت أخرج أحيانا إلى الشاطئ حيث أرى الجنود متناثرين هنا وهناك ببنادقهم، أو بتلك المدافع التي توجهت نحو السماء والبحر، وكانت الشماسي والكراسي قد اختفت وإن لاحظت وجود القطط والكلاب، أما الفئران فلم أعد أراها، كأنها ظهرت فجأة واختفت فجأة كما ظهرت، لكنني كنت أشعر بوجودها، كانت القطط أيضا كثيرة،

وكانـــت الصراصير تمرح في كل مكان، داخل الكابينات الصيفية تمرح العناكب والصراصير، احتلتها، واختفى كل أثر للبشر الذين أعــرفهم، تحولوا إلى هؤلاء الكائنات التي ترتدى الملابس الكاكية والكابـــات والأحذيـــة السوداء الثقيلة، والعيون المرهقة والملامح المعذبـــة، اختفت رائحة الناس والزحام وحتى الضحكات، اختفت رائحة الحياة التي كنت أعرفها، لم يعد هناك سوى صمت غريب، ولـــم أكن أظن بأنها حالة مؤقتة، كنت أجلس على الشاطئ كثيرا أفكر في كل شئ مر بي، لكني لم أكن أجد حلا، في النهاية وضع ســريرا آخر لي داخل الخيمة، وأتى لي بملابس أخرى لاأعلم من أيـــن؟ إذن فلن أترك هذا المكان قريبا، وكان غريبا منه أن يفعل كـــل ذلـــك، لكنني كنت مقتنعا بأن أبوللو لن يتركني وحيدا، كنت جالسا أنتظر تلك اللحظة التي سيطلق فيها سراحي، لكنني لم أكن مستعدا أبدا لمفاجأته الثانية التي أسر بها لي!.

(٨٤)

حـــين دخلت المنزل الذي يقطن به جدي لأبي، لم أكن أتوقع أن يكـــون فـــسيحا هكـــذا قياسا إلى شقتنا ببورسعيد، كان السقف خـــشبيا كلـــه، تظهـــر العـــروق الضخمة وتلك الدائرة الضوئية

المفــتوحة فـــي سقف إحدى الغرف وكان يخيل لي بأنها صنعت حتى تخرج منها الجنيات فلا يكون أمامها أى عوائق من أى نوع، وكانـــت الجدران طينية تم دهانها بالجير عدا الغرفة التى ينام فيها جدي، كانت حوائطها مدهونة بدهان من نوع آخر، بعد أن دخلت بلحظــات، وجــدت كثيرا من النساء اللائى يرتدين تلك الملابس الملــونة الفــضفاضة اللامعـــة ذات الأكمام الطويلة والذيول التي تنساب على الأرض خلفهن وكن ذوات أحجام ضخمة، كنت أسير أمـــام عمتـــي فاتحا قدمي وضاربا بمقعدتي الصغيرة إلى الخلف ومحنــيا ظهــري محـــاولا تقليدهن وكن يضحكن تلك الضحكات الــسريعة، ولم يكن هناك أي رجل في المنزل عدا جدي، الرجال قابلـــتهم فقــط في المساء كانا زوجي عماتي، أصلعين بشوارب، أحـــدهما أبيض البشرة للغاية بجبهة لامعة، وكان قليل الكلام ولا أدري لمـــاذا كنت أخاف منه على الرغم من محاولاته للتودد لي، لكـــن إحـــساسي الذي لا يخيب فلم أحادثه أبدا، كنت أراه فأركض مـــن أمامه كأنني رأيت عفريتا، وكان جدي يأخذني بين أحضانه، ويهمـــس في أذني بأنه يعلم سبب خوفي منه، ومع ذلك لم يشرح لي أبدا لماذا؟ أما الآخر فكان قمحي البشرة وعلى جبينه عصفور صـــغير أخـــضر وكـــان يصرخ كل دقيقة " مافيش أكل يابهايم.. مافيش شاي يابهايم .. مافيش جوزه يابهايم" حتى أنني سألت جدي عـــن " الحـــاج بهـــايم زوج عمتي" فأخذ يضحك، وحاولت لمس عـــصفور جبهته وهو نائم فاستيقظ مفزوعا، وحين رآني قال وهو

يبتــسم " ياواد هاتطير العصفور " ثم عاد للنوم مرة أخرى، وكانت عماتــي وبــناتهن هن اللائي يملأن المنزل بالضجيج إضافة إلى صــياح الــبط والدجاج في غرفة مقفلة جانبية، تقع بجانب غرفة الفــرن التــي كن يعملن فيها طول النهار تقريبا، سواء في إعداد الطعــام أو الخبــز الــذي كان يخرج بأشكال متعددة، وكانت تلك المــرة الأولى التي أتذوق فيها البليلة باللبن والسكر، وتعجبت من وجود السكر في كل شئ.

بعــد أن مكثنا قليلا، أخذني جدي معه على الحمار إلى تلك الغابــة التي كانت مزروعة كلها بأشجار الموز والبرتقال، كانت حبات الموز تتلون بين الأصفر والأخضر، وكنت أظن بأن المكان يمتلــئ بجنياتــي اللاتــي يلعــبن فوق فروع الأشجار، لكن تلك الفرجات المعتمة بين الأشجار - هناك بعيدا - كنت أعتقد جازما بأنها تخفي كثير من العفاريت والجان ولذلك لم أكن أقربها.

كــان جــدي جالسا يشرب الشاي مع أصدقائه يتطلع لي كل لحظــة ليتأكد من أنني لم أقم بأي عمل شائن، ثم أمر أحد الأولاد الكــبار مــن أبناء أصدقائه بأن يكون معي دائما ولايتركني، كان يعلــم مــن أبي أنني كثيرا ما تأخذني قدماي إلى أي مكان، وأنني يمكــن أن أختفي بسهولة في أي مكان، وهكذا ظللت بصحبة عبد العزيــز ابن شيخ الخفر الحاج رمضان هذا الرجل الطويل للغاية الذي يطول بيده أفرع الأشجار العالية فيقتطف منها مايشاء، كنت أظــن بأنــه أطول إنسان رأيته في حياتي، الغريب أنه كان يعشق

الغـــناء على الرغم من عمله كشيخ للخفر، لكني لم أره يحرس أي شـــئ، كان يسحر جدي ورفاقه بغنائه الجميل، حتى أنني قضيت عدة أيام أنا وجدي لديه في بيته نستمع لغنائه كل ليلة، وكنت أنام علـــى صوته في حجر جدي في نهاية الأمر، وهكذا كنا نتنقل من مكـــان إلـــى آخـــر، أكلت الذرة المشوية وسنابل القمح الخضراء المشوية، وحبات البصل الكبيرة المشوية في الفرن التي كانت ذات طعم لذيذ مازال باقيا في فمي، كان كل شئ مختلفا عما أتيت منه، وكـــان أبوللـــو غائبا عني أغلب الوقت، لماذا لم أفكر فيه في تلك اللحظات، لاأعرف، كان المكان هادئا تماما، كل مافيه هادئ حتى الكلاب كانت هادئة تتمسح فينا أغلب الوقت، حتى تلك البقرة التي كانـــت تجر الساقية، وقد وضعوا على عينيها تلك القطعة الجلدية فتستمر في الدوران دون توقف، تطلعت إلى قاع الماء في الساقية، وشـــعرت بـــأن هناك عفريتا يختبئ بها، فجفلت بسرعة، وذهبت بعيدا مع عبد العزيز.

كانت متعتي الكبيرة هي أن أركب الحمار وأركض به بعد أن تعلمـــت كـــيف أمتطـــيه وكيف أسيره كيفما أريد، كما كنت أيضا استمتع باستيقاظي بين يدي جدي في الصباح الباكر بعد أن يكون قد صلى الفجر، ثم ينهضني لأكل البليلة باللبن أو الشعرية المقلية بالسمن والغارقة أيضا في اللبن، وحين حاولت ذات مرة العوم في التـــرعة الـــصغيرة بعـــد أن نزعت عني ملابسي ووقفت بلباسي الداخلـــي محـــاولا تسلق شجرة الجوافة لأقفز من فوقها إلى الماء

الـــذي كـــان يحمل أحيانا قطع قديمة من الأخشاب المشبعة بالماء وجــثث لــبعض الحــيوانات وأحيانا يكون رائقا للغاية كأن مسه ســحر، وقفت مترددا قليلا فوقها وكان عبد العزيز قد سبقني إلى التــرعة، لكنني فوجئت بصياح جدي لي فارتعبت منه لأول مرة، فنــزلت إلـــى الأرض وارتديت ملابسي على مضض وأنا أشعر بالخيــبة أمـــام عبد العزيز الذي كان في قفزة واحدة قد خرج من المـــاء وارتـــدى ملابسه هو الآخر، وأيقنت بأنني وإن كنت حفيده فإن هناك حدودا لما يمكن أن أقوم به هنا.

كان النوم مبكرا للغاية بعد أفول الشمس ولم أكن متعودا على ذلــك، وكنت أشعر بالدفء الشديد في غرفته التي عرفت أركانها كلهـــا، كـــان ســـريره من النحاس لامعا عاليا بشكل كبير، كانت أعمدتـــه تقترب من السقف، وكنت أحاول تسلقها، وكان هو يجلس علـــى الـــسرير ويضحك، وحين ينهكني التعب أذهب إلى حضنه الدافئ فأنام، وكان يلقي إلى بنقود كثيرة لأشترى ماأشاء وكنت قد أحبـــبت كيـــزان السكر البنية فكنت أبتاعها دوما من المرأة ذات الملابس السوداء المتربة الجالسة على ناصية الحارة التي بها بيت جدي، إلى أن كان هذا الصباح اللعين.

(٨٥)

كـــان الخـــريف قـــبل الحرب مباشرة ، حدث مالم يكن في الحـــسبان، كـــان ســـيد ترسة، عائدا من الصيد، وكان يجر أمامه عـــربة خـــشبية هـــو وبعض صبيانه فوقها ترسة كبيرة وأسماك كثيـــرة، وكـــنا إذا رأينا ذلك أدركنا أنه سيقوم بتوزيع هذا الصيد علـــى شـــقق عماراتنا المتجاورة في الشارع، وكثيرا مافعل ذلك، فكـــان يقـــوم بـــذبحها وسط صراخنا الطفولي، ثم يقوم بتقطيعها وتوزيعها علينا، فنالنا قطعة كبيرة من لحم الترسة، لم تكن تختلف كثيـــرا عن اللحم العادي، وبقيت أنا في الشارع بعد أن رأيته يقوم بتوزيع تلك الأسماك، لاحظت أولا أن رأس الترسة مازال صاحيا لـــم يمت، ثم لاحظت أوراق الشجر التي كانت تسقط بغزارة على الأرض، وكان الخريف في نهايته تقريبا، وكانت أوراق الأشجار تركض سريعا متدحرجة على أرض الشوارع ثم تختفي فجأة ولم أكـــن أعلـــم إلى أين تذهب، وكان المربع الذي بين عماراتنا الذي يفرشـــه الحـــشيش قد اصفرت حشائشه تماما وأوشكت أن تزول، وكان الليل قد بدأ يحبو على وجه المدينة حين بدأ الكثير من الناس يظهـــرون ومعهم تلك الخيرزانات الطويلة التي كانت تستخدم في

محاولـــة اصطياد الوطاويط السوداء التى انتشرت فجأة وكان يقال بأنها تلتصق بوجه الإنسان إذا أصابته فلاتتركه إلا بعد أن تمتص دمـــاءه، فتتركه بلا دماء، ويقال إنه يتحول إلى هيكل عظمي بعد ذلـــك، وكـــنا نـــرتعد جميعا من هذه الفكرة، خاصة أنني كنت قد شـــاهدت وطواطا ميتا، وكان قاتم اللون ذو وجه قبيح للغاية، كان وجـــه كلب على أنف خنزير رأيته كثيرا في المجلات التي يحتفظ بهـــا يانـــي، وله جناحان جلديان، كيف تم بناء هذه الأجنحة لهذا المخلـــوق العجـــيب؟ أليس من الممكن أن تكون لنا نفس الأجنحة حتـــى نستطيع الطيران؟ ومع ذلك كنت أفكر من ناحية أخرى بأن هـــذا الوطـــواط قد انسخط بسبب أجنحته، لكنني كنت أعود مرة أخـــرى وأتذكـــر بأن هناك كثير من المخلوقات بأجنحة ولكن لها وجـــه جمـــيل مثل كل الطيور، وعندما حدقت في وجه الوطواط أكثـــر لمحـــت أنيابه الكبيرة فلم أستبعد أبدا من رأسى فكرة مص الـــدماء، لـــذلك كـــان علينا أن نتخلص منها نهائيا، كنا قد خرجنا جميعا إلى الشوارع في موسم صيد الوطاويط التي كانت تطير في كـــل مكـــان، وكان سيد ترسة قد انتهى في ذلك الوقت من عملية توزيـــع بقايا صيده، أما جميع أهل المنطقة والمناطق الأخرى فهم مـــشغولون فـــي عملـــية صيد الوطاويط، وبعد أن ذهب سيد إلى شقته، ماهي إلا لحظات إلا وبدأ الصراخ يعلو منها، توجهنا جميعا ناحـــية منزله، خلق كثيرون، حتى لم يعد هناك مكان لقدم، رأيت ســـيد يمـــسك بخناق خالي مسعد، الذي بدا واقفا ببنطلون البيجامة

الخـــاص بسيد الكستور وفالنه حمالات ويرتعد بين يديه، أما القطة زوجـــته فكانـــت بالداخل ترقع بالصوت الحياني*، وكان الجميع يـــضحك علـــى هـــذه الجرسة، وفي الشارع تعرض خالي مسعد لـــضرب من سيد لم يأخذه حمار في مطلع، وكان الجميع يضرب إلـــى أن أصبح وجهه كله ممتلئا بالدماء ولم يتدخل أحد من أهلي ولا أنـــا فـــي الـــبداية ولما أحس أبي بأنه يجب أن يضع حدا لما يحـــدث، نـــزل إلى الشارع وسحب خالي مسعد من بين يدي سيد الذي كان يقسم بأنه سيقتله، وعده أبي بأن حقه سيصله، لكن يجب الهـــدوء أولا حتى يمكن التفكير في حل، كانت علاقة خالي مسعد بالقطة علاقة غامضة، كان يزورها بعد غياب سيد، ولم أفهم أبدا لم كان يزورها، ربما بعد ذلك بسنوات اتضح الأمر جليا لي، لكن عملـــه الأســـود وقـــف له بالمرصاد هذا اليوم، وأخيرا تركه سيد السماك، بعد أن رمي بيمين الطلاق على إمرأته التي أقسمت بأنه ليس بينها وبين خالي مسعد أي شئ فيما كان سيد يشخر لها، قالت بأنـــه كان يصلح لها الحنفية التي انفجرت فجأة فكاد البيت يغرق، كـــان الـــسؤال الذي تردد كثيرا، لماذا خالي مسعد وليس أى أحد آخـــر؟ فاضـــطرت القطـــة إلى أن تعطيه ملابس لسيد بعد ابتلال ملابسه، ولم ندر ماهي الحقيقة تماما في هذا الأمر، لقد حاول سيد الـــسماك قـــتلها عدة مرات لكنه لم ينجح، وكنت أعتقد بأنه لايريد

*الـــصوت الحيانـــي: أى كان صراخها عاليا، وربما كانت صفة الحياني هنا مأخوذة من صوت باعة البلح الحياني الذي كان باعته ينادون بصوت عال عند بيعه.

قـتلها فعلا وإنما كان يفعل ذلك دفاعا عن شرفه، وفي النهاية لم يجـد بدا من أن يرمي عليها يمين الطلاق، وأن يطردها إلى بيت أهلهـا فذهبت إلى علية القرص حيث مكثت لديها عدة أيام، لكنها عادت إليه بعد مضي عدة ليال بعد أن استطاع الجميع إقناعه بأن كـل ماقالته القطة كان حقيقيا وكان هو لديه الاستعداد للقبول بعد أن أحـضر خالي مسعد المصحف وحلف عليه أمامه، عادت إليه كـأن شيئا لم يحدث، أما خالي مسعد فكان قد ترك بورسعيد كلها وأقـام بـصفة شبه دائمة بالإسكندرية خلال تلك الفترة وبعد عدة أسـابيع لم يعد أحد يذكر شيئا من تلك الحادثة ، لكنني سمعت هذا الحوار في المساء قبل أن يرحل خالي مسعد بينه وبين أبي، وكان أبـي مصرا على أن خالي مسعد له علاقة بالقطة فيما كان خالي مـسعد ينفي ذلك، وفي النهاية اعترف بأنه يحبها منذ زمن طويل، وأنـه لايستطيع الابتعاد عنها، فنصحه أبي بالخروج من بورسعيد لأن المرة القادمة لن يفلت من خنجر سوف يتم غرزه في قلبه بيده هـو قـبل يـد سيد السماك، فارتعدت من هذه الفكرة، وسرعان ماغادرنـا خالـي مـسعد بضعة أسابيع، ثم عاد بعد ذلك، ونسي الجمـيع الأمـر، صحيح أنه كان يغادرنا لأيام لكنه كان يعود بعد ذلـك ويمكث لأيام، وتأكدت بأن السواحلية كلهم هكذا، يصيحون، دون أن يفعلـوا شيئا، ربما يصل الأمر للشكل وبعض الدماء لكنه لايـتعدى هـذا الأمر، كانوا يعلمون بأن عدوهم هو البحر وليس أصدقاءهم وجيرانهم مهما فعلوا، ومثلما كانوا يلعنون البحر بسبب

قسوته واختفاء بعض الأصدقاء منهم أثناء رحلات الصيد الطويلة فـــيه، فإنـــه كان ملاذهم أيضا في ساعات الضيق، كانوا يعيشون علـــيه ومنه، هكذا هم جميعا مترددون وغير حازمين فيما بينهم، يـــصيحون أكثـــر ممـــا يفعلون، لكن ذلك لم يمنعهم من التضحية بأنفسهم عندما يستشعرون الخطر الحقيقي الآتي من الآخر.

(٨٦)

فـــي الـــصباح استيقظت وكان الوقت متأخرا، استيقظت على صـــوت بكاء عماتي وبناتهن وكن جالسات متشحات بالسواد على الأرض، ولاحظـــت أن جدي لم يستيقظ في هذا اليوم أيضا، كان نائمـــا بجواري وكان مغطى تماما، حتى رأسه كانت مختفية تحت الغطـــاء وقـــد ظهر أمامي أنه طويل للغاية، وكن قد تركنني نائما بجواره، إذن طلعت روح جدي وهو نائم بجوارى، وكنت متعجبا من ذلك، رفعت الغطاء من على وجهه ، وصحت به:

-جدي.. جدي..جدي..

فـــيما ارتفعت صيحات عماتي وصراخهن وولولاتهن، مددت يدى نحوه أهزه وكان جسده دافئا للغاية، فتحت عينيه، أتطلع إليه، لم يبد أى حركة، إلى أن أتى واحد من أزواج عماتي ورفعني من

علـــى الـــسرير من جانبه، وقامت عمتى الصغرى بغسيل وجهى وكانـــت تبكي، ثم وضعت لي الإفطار وكان مختلفا هذه المرة عن الإفطـــار الذي كنت أتناوله مع جدي وأدركت أن جدى الثاني قد مـــات، وأن الوقت قد حان لتختفي كل جذوري، فهمت من الحوار الذي يدور حولي أن أبي قادم إلى القرية بعد الظهر من بورسعيد، خـــرجت أنـــا وزوج عمتـــى وعبد العزيز على المحطة لانتظاره وكـــان معـــنا أناس كثيرون، وحين هبط أبي من القطار، ركضت نحـــوه، كانت عيناه منتفختين من البكاء، وبعد ليلتين من البقاء في القـــرية، رحلـــنا أنـــا وأبي إلى بورسعيد مرة أخرى تاركين على المحطـــة جميع عماتي وأزواجهن وأبنائهن وكان أبي قد وعدهن بالعـــودة بعد عدة أيام لاقتسام الميراث، كان الوقت ليلا أيضا حين دخلـــنا المديـــنة، نـــسيت موت جدي بعد أن شممت رائحة البحر المـــالح، ولفح هواؤها الجميل رأسي، كنت أحلم بكل أماكنها التي تـــركتها، وكنت أتطلع في جميع الأركان ونحن راجعان أنا وأبي، أبحث عن أي شئ يكون قد تغير فيها، لكنني لم أعثر على مظهر واحـــد لأي تغييـــر يكـــون قد حدث، وكانت أضواء المدينة كلها تـــتلألأ، وكـــان باعـــة الـــسمنية والتمرية كما هم تتصاعد أبخرة مايعدونه أمامهم، وكانت الحناطير بجيادها تركض في كل مكان، وكانت النساء بملاءاتهن اللف وقد ظهرت منهن سمانات أقدامهن البيـــضاء مـــنها وهـــن يدرن في المدينة في كل مكان، كانت تلك المديـــنة التـــي أحببتها، استقبلتي ستي بالأحضان والقبلات وكذلك

أمــي وخالاتــي، وكــان أبي صامتا، وبكت أمي معه كثيرا بينما ســهرت أحكي لأخوتي عن كل مغامراتي بالقرية، وأخيرا انسللت مــن بينهم إلى حجرة ستي حيث نمت على ذراعها بعد أن حكيت لهــا كــل ماجرى، وحين أتى جدى بعد عدة ساعات أيقظني وقد أحــضر معــه قطــع السمنية والتمرية فالتهمتها بينما أخذ هو في مداعبتــي، وقــال لي قبل أن أعود للنوم مرة أخرى ستأتي معي للــصيد غدا، فقفزت عليه أقبله، فانطلق ضاحكا وهو يربت على ظهــري، وعدت للنوم مرة أخرى في أحضان ستي تحت لحافها القطني كأن شيئا لم يحدث.

(٨٧)

أتت كريستينا وكان غريبا أن أراها بدون اللباس الخاص بها الذي رأيته عشرات المرات من قبل، كانت ترتدي هذه المرة ذلك الفستان الأزرق العاري الكتفين، وكانت تبدو جميلة للغاية، جميلة هــذا الجمــال الساحر الغريب، الذي لاتملك إلا أن تتوقف أمامه وتتــساءل مــن أي جــنة أو أرض جاء، كنت أعتقد بأنه يوما ما ســينبت لهــا جناحان وستطير إلى أعلى، إلى هناك، إلى أبوللو، كنت أعتقد أيضا بأنه ربما يتزوجها، خاصة إذا علم بأنها جريجية وتتكلم لغته، وأنه لاينقصها الجمال على الإطلاق، كانت تسير مع

خالتـــي أم هاشم هي وهذا البحارالذي قالت خالتي إنها ستتزوجه، كانـــوا يتفقون على شئ ما، وكنت أنا غارقا مع هدى فى الركض علـــى الشاطئ وحفر تلك الثقوب في الرمال وإغراقها بالماء، كنا نبنـــي تلك القلاع والحصون، وكان ( ياني) جالسا تحت الشمسية يـــرتدي تلك النظارات السوداء وكان نائما يشخر، وبين قدميه تلك البطـــيخة الـــنمس الكبيرة، وأعلى الشمسية كان الراديو يذيع تلك الأغنـــيات الجريجية، كانت أقرب إلى السمسمية، كان يزداد يقيني بأنـــه هـــناك صلة قرابة غريبة بيننا وبين هؤلاء الجريج، أمسكت هـــدى في يدي، وتوجهت نحو كريستينا كنت أريد لها أن تعرفها، وبعـــد أن احتـــضنتها وقبلتها وأخذت تحدثها بالجريكية التي كانت تعـــرفها هـــدى أيـــضا، فجأة سألت كريستينا مالذي جعلها تخلع فـــستانها الأبـــيض وقلنسوتها البيضاء، فهمت من خالتي أم هاشم التـــي تـــدخلت شارحة الأمر لي بأنها قررت أخيرا أنها لاتصلح للعمـــل الدينـــي، ولأن ذلك لايتماشى مع حالات تمردها، ولم أكن أفهـــم كثيرا ماهو عملها، لكنني كنت أتابع ( ياني) أحيانا كل أحد وهـــو ذاهـــب إلى الكنيسة في بورسعيد وأحيانا في بورفؤاد، كان يقـــول إنه ذاهب إلى الكنيسة، وكان يرتدي تلك القبعة البارزة من الأمـــام التـــي تغطـــي مقدمة رأسه، ويمتطي بسكليتته ويأخذ في التـــصفير الخفـــيف بلحـــن يوناني يحبه، كان يذهب وحده ويعود وحـــده، كنا نراقبه من فوق سطح العمارة أنا وهدى أحيانا، وكنت أتـــساءل ماهـــي هذه الكنيسة التي يذهب إليها؟!، وكان غريبا لي

أيضا أن أراه راجعا في المساء بهذه اللفافة في يده التي كنت أعلم جيدا بأنه يخبئ فيها زجاجة منقوع الصرم الذي يشربه في المساء!.

لم تكن الإجابة مهمة، قال لي أبي إنها جميعها بيوت الله، وكنت أعتقد بأن هناك فرقا كبيرا بين الله وبين أبوللو، فالله هو الذي نعبده ونذهب إلى الجامع من أجله ونصلى له ونصوم ونقول التشهد، أما أبوللو فكان إلها من نوع خاص، إله خاص بي، إله انبثق من خيالاتي، وأكدته كثير من الأحداث، لماذا لم أكن أدعو الله الخاص بنا؟ كنت أدعوه فقط حين تمرض جدتي أو أمي أو أحد إخوتي، كنت أفكر فيه أحيانا، لكن أفكارى لم تذهب بعيدا كما ذهبت مع أبوللو، كان أبوللو مجسدا لي، فكنت أعتقد بقربه، أما الله الخاص بنا فكان في كل مكان كما قال لنا مدرس الدين، لكن مدرس الدين لم يستطع أن يثير انتباهي كما أثار الأستاذ عوض انتباهي، كانا شخصين مختلفين تماما، والحقيقة أنه أغلب الوقت لم يكن هناك مدرس دين في المدرسة، فكانت أسئلتي تتوقف، أما أسئلتي حول أبوللو فلم تكن تتوقف.

لم نكن نخوض في تلك المسائل الدينية لاعتبارات تتعلق بعدم الرغبة في إحراج أى شخص آخر من ملة أخرى كما قال لي أبي، قال أيضا بأننا جميعا إخوة مهما اختلف الدين، وكنت مقتنعا بذلك تماما، فكنت أحب ( ياني) وكريستينا أكثر كثيرا من أشخاص كانوا أقرب لي، فلم يرتكبوا نفس الأخطاء التي ارتكبها

هــؤلاء الأقرباء أو الأصدقاء، هكذا بدأت أفهم الدين، لكنني كنت مقتــنعا تمامـــا بأن أبوللو إله كبير لبلاد اليونان، وليس لنا، لكنني يمكــن أن أطلب منه ماأشاء هكذا قال لي الأستاذ عوض الحارثي مـــدرس التاريخ ولم أشك فيما يقول أبدا في أي لحظة، وقال عنه الكثير أيضا.

إذن فقد قررت كريستينا البقاء في بورسعيد لبعض الوقت بعد أن قـــررت تـــرك الكنيـــسة والتحول نحو العمل في القاهرة في الـــسفارة الجـــريجية، وأنها ربما تتزوج هنا أيضا، وأنها يمكن أن تـــستقبلني في البيت الذي استقبلتني فيه أول مرة في بورفؤاد إلى حين انتقالها للعمل في القاهرة، وكنت أعد نفسي لهذه الزيارة قبل الحرب مباشرة.

(٨٨)

كنت قد قررت أن أذهب مع لبنى مرة أخرى إلى هناك، إلى شـــاطئ الجميل، بين تلك الرمال، وكنت حذرا من أن يعرف الولد ســـيد الفحام بخبر ذهابي أنا وأخته، وأطلعت هدى فقط على سري فـــصممت على الذهاب معنا، وكان ذلك صباح الإجازة، فخرجنا نحـــن الثلاثة ومشينا حتى هناك، أحضرت لبنى تلك الساندويتشات الممتلـــئة اللحـــم والسمك، بينما أحضرت هدى ساندوتشات الجبن

الرومي وقطعة من البطيخ، وقطع من الجبن الرومي والكسبة، أما أنـــا فأحـــضرت كيسا به الكثير من سمك البربوني المقلي وثلاثة قطـــع حـــناجل وثلاثـــة أرغفة، وزجاجة ماء، أخذتهم من جدتي وخالتي حنان بعد أن أقنعتهم بأنني لن أغيب، وكانت خالتي جالسة تكـــتب خطابـــا لعمـــي حامد الفاروقي في اليمن قبل أن يعود إلى بورسعيد، كانت تقول له إنها أنجبت ابنته الأولى، وأنها تتمنى أن يـــراها، تركتها تكمل كتابة خطابها بعد أن أعطتني ماأريد، وقلت لهـــا أن ترســـل سلامي إليه وأكدت عليها ذلك، وكنت أضع تلك المجلـــة تحت قميصي، كانت مجلة أطفال تحتوى موضوعا كبيرا عـــن أبوللـــو، كنت قد اشتريتها من الكشك الذي يقع على ناصية كـــسرى من بقية النقود التي احتفظت بها معي والتي كانت عمتى الصغرى قد دستها في يدي قبل مغادرتنا، وهناك بين تلك التلال، اختـــرنا بقعـــة تقع بين تلين من الرمال فلا يرانا أحد، جلسنا نقرأ المجلة نحن الثلاثة

– تفتكروا أبوللو هو كده فعلا

–انت شاغل نفسك بسي أبوللو بتاعك ده ليه (سألتني لبنى)

–مش عارف حاسس انه يمكن علشان شبه جدى ويمكن شبه عبد الناصر..

–بـــس عبد الناصر مش كده خالص.. وجدك إبيض وعينيه زرقاء واقرع..

–مش عارف حاسس ان فيهم شبه من بعض..

-انت بتحبه قوي كده (سألتني هدى)

-مش عارف.. عايز أبقى زيه..

-يعني إيه تبقى زيه..

نهضت واقفا وقلت

- عايـــز أطير.. ألمس النجوم.. امسك الجنيات الصغيرين.. أحقـــق أحلامنا كلنا.. عايز أبويه يكسب انتخابات المصنع.. عايز جـــدي وستي يعيشوا على طول.. عايز تبقى عندي أجنحة وأروح جـــبال الجـــريك هناك.. عايز عمي حامد يرجع م اليمن.. عايز كريـــستينا ماتمـــشيش.. عايز بورسعيد تبقى جنه كلها.. مش لما المطـــرة بتنـــزل بورســـعيد بتبقى جنة.. حلوه شكل الجنة عندنا خـــصوصا لما تقرب الأرض تنشف منها.. مش عايز نكبر ونبقى عواجيز.. عايز نفضل صغيرين على طول.

حكـــيت لهـــم عن تلك الجنيات الصغيرة اللاتي يظهرن لي، وعن كل مافعله معي أبوللو، نهضت لبنى واقفة عقب انتهائي من المجلـــة وقـــد بـــدأت تخلع ملابسها وتشجع هدى على ذلك، وبعد دقائـــق كنا نحن الثلاثة في الماء، لحظات وكانت ضحكاتنا تجوب الفـــراغ، وطرطـــشات الماء تتصاعد إلى أعلى ثم تهبط في شكل موجات صغيرة لايمكن ملاحظتها بسهولة، وعلى البعد كنت أرى تلك المراكب الصغيرة.

(٨٩)

قال لي الضابط الكبير:

– أنــت الــيوم أحــسن.. كنت عاوز تروح فين.. لكريستينا قلت.. بس كريستينا زي ماكتبت في الضفة الثانية من القناة.. في بورفؤاد وماعادش فيه حد بيروح هناك، لكن هاأشوف طريقة.

كنت أتطلع إليه غير مصدق بأنه سيساعدني على الذهاب إلى هــناك، قال أيضا بأننا يمكن أن نذهب إلى هناك في أحد المراكب الــصغيرة في الليل، كنت جالسا طول النهار أحلم بما سأفعله حين أقابــل كريــستينا، وماذا سوف أقول لها، كنت أظن أنني يجب أن أقول لها أنني يجب أن أرحل معها إلى القاهرة إذا كانت سترحل، أو أظــل معها إلى أن أعثر على أهلي أو تنضم إلى عمي خضير للــبحث عــنهم، كــنت أعــتقد بأنني سوف أكون أكثر راحة إذا وجــدتها، كنت أريد العثور على كل من كان لي بهم صلة حميمة لينقذونـــي ممـــا أنـــا فـــيه، كانت الوحدة قد بدأت تطغي على كل أفكـــاري، وكـــنت متعجبا من ذلك، فكثير من الأيام كنت أغافلهم وأتـــركهم، لقـــد قـــررت أنني أبدا لن أبتعد عنهم بعد ذلك، كانت بورسعيد صغيرة للغاية، فإلى أين ذهبت سأعود.

في المساء أقبل الضابط وعلى وجهه تلك الابتسامة الواسعة، أخبرنـــي بأنـــه وجد مركبا صغيرا بمحرك سيقودها أحد عساكره وأنه سيذهب معي، وهكذا في قلب الليل كنت أنا وهو والعسكري، كان العسكري يوجه دفة المحرك في الظلام وكنت أحاول العثور علـــى أي ضوء في الطرف الآخر، يتراقص قلبي من الفرح، في كل مسافة تقترب من الضفة الأخرى تتسع أحلامي، سألقي بنفسي فـــي أحضانها، أما القمر فكان غير موجود.. غائبا أين لاأعلم، لم يكـــن أي شئ ليردعني عن عدم الذهاب حتى لو اضطررت إلى العوم للضفة الأخرى من القناة، وكانت المعدية أمامنا غارقة يبدو شبحها في الظلام الدامس وكانت هناك سفن أخرى غارقة ولم يكن هـــناك أي أحد، لقد ذهبنا من شاطئ بورسعيد إلى شاطئ بورفؤاد وبـــدأنا الـــرحلة الصغيرة قريبا من قاعدة تمثال دي ليسيبس، كان الـــوقت يمـــر بطيئا وكانت عيناي تدوران في كل مكان، وأخيرا كانـــت المـــركب قـــد وصلت إلى الضفة الأخرى حين هبطنا أنا والضابط الذي قال للعسكري أن ينتظرنا حتى نعود، كنت أريد أن أقـــول له بأنني لن أعود معه وبأنني سأنام تلك الليلة في أحضان كريـــستينا حتـــى لو رفضت الراهبة الكبيرة في السن، ربما كان يمكـــن أن أســـتخدم خـــاتم سليمان للعثور على كريستينا لو كنت وجدته أنا وجدي.

(٩٠)

قـــال لي جدي إنني يمكن أن أجد خاتم سليمان في أحشاء أي سمكة، وكنت أنا وهو قد خرجنا للصيد في قارب كبير وكان معنا كثير من الصيادين، كان البحر هادئا، وتم فرد الشراع على آخره، كانـــت الـــريح خفـــيفة وفي اتجاه الشرق، حتى وقفنا هناك قرب العـــريش، كـــنت جالسا على السطح أشاهد طيور النورس وهى تغـــوص إلى الماء تحاول التقاط الأسماك، فتوقفت المركب هناك، وألقـــت بـــشباكها، وحصلنا على كمية كبيرة من أسماك السردين، جلـــست علـــى الأرض أنتقي السمكات الكبيرة منها وأفتح بطنها بسكين جدي وأحاول البحث عن خاتم سليمان، وحين سألني جدى عما أفعله ؟ فأخبرته بما يدور في رأسي، ابتسم وتطلع في وجهي مليا، ثم هز رأسه قائلا :

– طب كفاية كده هاتبوظ السمك كله..

قلـــت لـــه إن هذه آخر سمكة سأفتح بطنها، ولما كانت خالية أيـــضا، فإنه قد أسقط في يدى فحاولت النهوض لتقفز هذه السمكة أمامـــي، فـــرفعت قدمى ودست على بطنها وفجأة وجدتها أمامي تلمع، كانت بيضاء كبيرة، لم أكن أتوقع على الإطلاق العثور على

تلـــك اللؤلــؤة حتـــى أنني صرخت، فالتفت إلى جدي وتطلع إلى اللؤلـــؤة التـــي كانت معلقة هناك بأمعاء السمكة الكبيرة، فانحنى علـــيها وأمسك بها يتفحصها، ثم انتزعها من الأمعاء وقام بغسلها وكنت واقفا بين يديه تملؤني أحاسيس شتى، لقد عثرت أخيرا على ماأريد، وأخذ يتطلع إليها، ابتسم وناولني إياها وقال.

-حلال عليك هذا هو فص خاتم سليمان..

فانشرحت أساريرى وكان جميع الصيادين يضحكون.

حملت لؤلؤتي إلى جدتي في البيت، وسألتها عن صحة ماقاله جـــدي فابتـــسمت هي الأخرى وقالت بأنه يضحك علي لكنني لم اصـــدقها، فانسللت من حجرها إلى الحمام حيث أخذت أدعك في الفـــص منتظـــرا أن يخرج لي جني سليمان لكنه لم يخرج، كان عنـــيدا تمامـــا، أو هكـــذا ظننت، وحين كلت يدي من عملية حك اللؤلـــؤة، تـــوقفت وأنا ألهث، وقررت إهداءها إلى كريستينا حين أراهـــا، ولـــم أدرى علـــى وجه التحديد لماذا؟! لماذا لم أفكر في إهدائها إلى هدى مثلا؟!.

(٩١)

كنت أنا وهدى ولبنى نلعب هناك في قلب الماء حين لاحظت تلـــك الطائـــرة الـــصغيرة القادمة من السماء، توقفنا عن السباحة

ونحـــن نـــتطلع إلـــيها، كانـــت فوقنا تماما، وخيل لي أنني رأيت طيارها، كان يرتدي تلك النظارة السوداء الضخمة، تمنيت لو أنني أقـــود تلـــك الطائرة، كنت أظن أنني يمكن أن أصل إلى أبوللو لو ركبـــتها، فانـــسللت مـــن الماء وتركتهما هناك وقلت إنني سأعود حالا.

ركضت إلى الشاطئ فارتديت ملابسى بسرعة وركضت نحو الـــبوابة الخاصـــة بالمطار حيث كان هؤلاء الجنود يقفون هناك، فـــوجدت أننـــى لاأستطيع الدخول، فتوجهت نحو السور الذى يقع ناحـــية البحر وحاولت الصعود فوقه، فوجدت نفسي عاجزا، كان عاليا للغاية، حاولت عدة مرات فلم أستطع، فعدت مرة أخرى إلى البنتين فخلعت ملابسي وقفزت إليهن مرة أخرى في الماء.

كان هذا آخر عهدي بالجميل لحظة إحباطي في تسلق السور، وأدركـــت كم أن قدراتي محدودة في الفعل الطبيعي، كان لابد لي من أجنحة أبوللو حتى أستطيع الطيران فوق المطار هناك ورؤية تلك الطائرات الصغيرة القابعة في أرض المطار.

خرجنا من الماء ثلاثتنا، أكلنا وفتحت المجلة لهما أريهما مرة أخـــرى صورة أبوللو وأقرأ لهما ماهو مكتوب وكانت لبنى تلعب فـــي أصـــابع قدمي غير منتبهة على الإطلاق لما أقوله، أما هدى فكانـــت مستغرقة معي في متابعة ماأقوله، انتهيت، ونهضت وهما معـــي خارجين إلى الطريق، كان الوقت ظهرا وكنا قد اقتربنا من منطقة الاستاد، فقلت لهما إنني سأذهب إلى الشاطئ فقررا الذهاب

معي، كنت محبطا للغاية، أشعر بأنني صغير، صغير للغاية، كما كانــت تــسميني ســتي أحيانا عقلة صباع، لم يكن بمقدور عقلة الصباع أن يفعل شيئا، عاجزا تماما.

لاحظــنا هذه اللمة من الناس ولما دخلنا بينهم أدركت أن في الأمــر مصيبة، كان سيد الفحام راقدا على الأرض لايتحرك فيما كــان أحد الرجال يحاول إخراج الماء من صدره، بكت هدى أما وجــه لبنـــى فكـــان جامدا للغاية أو هكذا ظننت، وأحسست بأنني عاجز للمرة الثانية عن أى شئ، لم أتمن له الموت على الإطلاق، توجهت هذه المرة إلى أبوللو، تمنيت منه أن ينقذ سيد الفحام على الأقــل من أجل أمه عليه القرص، فرغم كل مافعلته وتفعله، كنت أراهـــا امرأة مضحكة، فجأة سعل سيد على الأرض وأخرج ماء كثيـــرا مـــن فمـــه وبدأ يفيق، فانطلقت دموع عيني، وتطلعت إلى أبوللـــو هـــناك، كنت أشكره وحين استطاع سيد الوقوف، كان في حالـــة إعياء تامة، سار معنا حتى البيت ودخلت معه إلى شقتهم، جلـــست دقائـــق أنا وهدى ثم خرجنا لانلوى على شئ، جلست أنا وهـــي على سلم العمارة، كنا نتحدث عما جرى، احتضنتني فجأة وكانـــت تبكي في خوف، لا أدري لماذا احتضنتها أنا الآخر، كنت أشـــعر شـــعورا غريبا للغاية، كنت أعتقد بأنني أحبها، حبا مختلفا عـــن هذا الحب الذي أكنه لاخوتي، كانت محبوبتي السرية التي لم أستطع أن أبوح لأحد بما يكنه قلبي الصغير لها، كنت أراها حلما صـــغيرا، تركتنـــي وقالت لي لاتتحرك، دخلت شقتهم وعادت بعد

لحظات وفي يدها هذا الراديو الصغير الأخضر، أخذت تحرك المؤشر الذى أصدر شوشرة متقطعة، ثم توقفت على إحدى المحطات التي تذيع أغنية لأم كلثوم، كانت تغني "انت عمري" ولم أكن أفهم جيدا كل ماتقوله، وضعته على السلم بجانبنا، ثم تقدمت حتى التصقت بي وهي تمسك بذراعي، أحسست بدفء غريب، وبدأنا الاستماع في سكون عميق ونحن يتطلع كل منا إلى الآخر، ثم وبهدوء شديد وكانت كل الأصوات غائبة أو متوقفة سواء من السلم أو الشارع أو حتى العالم، انحنت نحوي تقبلني فأغمضت عينى وأنا أنتظر تلك القبلة الأولى الصغيرة للغاية.

(٩٢)

عدت إلى خالتي حنان وكانت قد انتهت من كتابة الخطاب، جلست بجانبها وأخذت أتطلع إلى هذا المخلوق الصغير تماما الذي أنجبته والراقد في هدوء إلى جانبها، ولم يكن أبوه موجودا بل كان يقاتل هناك في مكان ما بعيد اسمه اليمن، احتضنتني وهي تتحدث معي، قالت:

- فاكر عمك حامد..

- طبعا فاكر..

- فاكر أول مرة اتقابلنا فيها..

تطلعت بعيني إلى الصور التي على الحائط، كانت كلها صور للفرح وصور لعمي حامد وهو هناك في اليمن أمام تلك الدبابة هو وبعض أصدقاؤه، كان هناك أبي وأمي وجدتي وجدي وخالتي حنان والجميع، وكانت هناك أيضا تلك الراقصة وقد جلست على ركبتي عمي حامد، كنا جميعا نرتدي ملابس ثقيلة، شعرت حتى في تلك الصور بالبرد الذي كان يجتاح المدينة في هذا الشتاء.

عدت أتذكر المرة الأولى التي التقيته فيها، كنت مع خالتي أقبض على يد خالتي حنان ونحن راكبان المعدية إلى بورفؤاد وكان أبي وأمي معنا، حين قابلناه هناك، كان صاحبا لأبي من المصنع، ولم يكن هناك سبب واضح لذهابنا إلى بورفؤاد، وأدركت الآن أننا كنا ذاهبين للقائه، تقابلنا على المعدية فسلم على الجميع، وتوقف عند خالتي حنان كنت أشعر بأن هناك شيئا ما غريبا في تلك المقابلة، قالت لي جدتي إننا كنا ذاهبين لمقابلته، كان يود التعرف عليها قبل أن يتقدم لها، كانت هذه واحدة من تقاليد الزواج، ولم يكن يمكن أن يتم ذلك في المنزل لأنه قد تحدث اعتراضات من البعض، قضينا طول النهار سويا في الجناين، وكنت أتابع معه تلك السفن الضخمة التي تعبر القناة، وكان يحاول أن يقول لي وخالتي حنان ماهي جنسياتها وبلادها التي أتت منها، كنت أقف معهما طيلة الوقت حتى صاح في أبي بأن أتركهما،

فقبض على يدى عمي حامد وقال لأبي بأنه يجب أن يتركني معهما، فصمت أبي على مضض، وبقينا نتابع السفن وطيور البحر الساقطة بسرعة الصاروخ في الماء لتلتقط أسماكا صغيرة، تغدينا سويا وأصبحت منذ تلك اللحظة صديقا له، لم يمكث بعد الزواج شهرا، ذهب إلى اليمن وتركها حاملا في إبنتها، هبط مرة واحدة إلى بورسعيد مرة واحدة ليرى إبنته ويذهب إلى سيناء ليقاتل في هذه الحرب التي انهزمنا فيها، وذهب أبي معه في تلك الليلة إلى واحد من معتقلات مصر، لنفترق جميعا بعد ذلك.

## (٩٣)

لم يكن سيد الفحام مجنونا بل فاقدا لعقله، حين قرر أن يسرق تلك المرأة من شارع الحميدى، كنا سويا هو واللالي وسامبو وميمي وأنا ، حين لمح تلك المرأة وهى تخرج أموالا كثيرة من كيس نقودها، لاأدرى مالذي دفعه إلى أن يراهننا على أنه سيسرقها، لم يكن أحد منا قد فعل ذلك من قبل، ولم يخطر على بالي على الإطلاق أننا يمكن أن نقوم بذلك أو حتى نتخيله، كان في سيد الفحام شيئ مختلف عنا جميعا، توقفنا نتطلع إليه وهو يسير وراءها، تعقبها من الحميدى إلى التلاتينى ثم عادت مرة

أخـــرى إلـــى الشارع التجارى وحتى الإفرنج، ثم عادت ثانية إلى أوجينـــي لم تترك شارعا إلا دخلته، ولم يتوقف هو عن متابعتها، كان يتحين الفرصة التي يمكنه فيها أن يخطف كيس نقودها، كان ينتظـــر لحظـــة تسهو فيها عنه، كان متأكدا من أنها ستفعل ذلك، وكـــنا نـــتابعه من بعيد، كنا نريد التأكد من أنه سيفعل ذلك فعلا، تحـــداه سامبو واللالي بأنه لايستطيع أن يفعل ذلك، ابتسم في ثقة وهـــو يـــؤكد أنه سيخطفه منها، لكنه إذا نجح في ذلك فلن يريهما مليما مما سيحصل عليه، بينما لم أتدخل أنا أو ميمي، تركناه يفعل مايشاء، فقط كنا نراقب الأمر، كنت أعتقد بأنه غير قادر على فعل ذلك، لكنى كنت أشعر بأن الأمر خطير للغاية.

وأخيرا توقفت المرأة هناك لتبتاع خبزا من شارع كسرى قبل كـــراكون المتاخ مباشرة، وضعت الكيس على حجر الرخام لترفع الخبـــز، فقفز هو والتقط الكيس في سرعة وبدأ يركض، نسى أنه ســـمين للغاية وأن حركته ليست سهلة، أدركت المرأة بعد لحظات أن كيـــسها انـــسرق فـــرقعت بالصوت، ووقعت الملاءة اللف من وســـطها لتقف في كسرى بحذائها ذو الكعب العال وقميص البيت الـــذي يكـــشف عـــن ذراعـــين بيضاوين، فركض خلف سيد أحد الواقفـــين، كـــان قادمـــا في اتجاهما ذلك الحنطور، لم يره سيد، وصـــرخ عليه الرجل بل نحن أيضا، لكنه كان قد وقع هناك تحت حوافر الجياد.

توقفـــنا نلتقط أنفاسنا وكانت دماؤه تفرش الأرض، تطلع كل منا في وجه الآخر، لم نكن ندري ماذا نصنع، أمسك أحدهم بكيس الـــنقود، بينما حاول أحدهم حمل سيد الفحام من تحت الجياد وكان غارقا في دمائه، ولما لم يستطع الرجل فقد أتى رجل آخر ليحمله معـــه، تقدمنا نحن منه، كانت رأسه مفتوحة وكانت بعض أسنانه علـــى الأرض ولـــم ندر إن كان قد مات أم لا، تابعناه حتى ذهابه للمستـــشفى، وقـــررنا الصمت، لم يتحدث أحد منا في الأمر وفي اللـــيل لـــم أستطع السكوت فأخبرت ستي التي أخبرت أمي، التي أخبـــرت أبي الذي ذهب للمستشفى مع عبده الفحام وعلية القرص، بعـــد عـــدة أيام قيل لي بأن سيد الفحام أصبح مجنونا، فقد تركته الحادثـــة بلا عقل، مع حفرة كبيرة في الراس وكان قد فقد نصف أســـنانه، وكانـــت تلـــك المرة الأخيرة التى أراه فيها، كان يجلس بالبـــيت فلايخـــرج، كان يتحرك بصعوبة ويأكل بصعوبة وكنت مـــتأكدا أنه يوما ما سيتخلصون منه، خاصة لبنى فقد كنت أشعر شعورا غريبا بأنها لاتحتمله وكنت أتخيل بأنها يوما ستقطع رقبته أو تقذف به في مجرور ولا أدري لماذا؟!.

(٩٤)

كنا على شاطئ بورفؤاد من ناحية المتوسط، بدأنا نتحرك أنا والضابط في هدوء ناحية منازل الراهبات اليونانيات، لم أكن أعلم بأنـــنا نخوض مخاطر كثيرة أخذها الضابط على عاتقه، كان هناك شئ يدفعه إلى ذلك، لم يقل لي أبدا ماهو، هل كان إحساسه بالذنب أم أنـــه أراد التأكد من قصتي؟ أم ماذا؟ وهل صدق فعلا أن إسمي أبوللـــو زيـــوس؟ كـــنت قـــد أغلقت مسام عقلي، واستنفرت كل أحاسيسي في انتظار أن أجد كريستينا.

كـــان هـــناك بعـــض الجنود الذين يسيرون في الطرقات هنا وهناك، كنت أعلم الآن بأن الإسرائيليين موجودون ليس بعيدا عن المدينة، بورفؤاد هي المكان الوحيد الذي لم يستطيعون احتلاله في هـــذا الوقت رغم احتلالهم لكل ضفة القناة الأخرى، وقال الضابط إن بعـــض الجـــنود الـــذين نمر بهم ربما كانوا أيضا اسرائيليين متخفين، لم يقل لي أبدا أن الأمر سيكون بهذه الخطورة التي كنت أستـــشعرها في حركته وانخفاض أنفاسه، وفي تنبيهي عدة مرات بـــأن لاأحـــدث صـــوتا، كـــنا إذن أول العابرين بعد الحرب إلى بورفؤاد، كنا نتسلل إلى أرضنا كالغرباء، وبين المنازل والأشجار

والظـلام، وصـلنا أخيـرا إلى منزل كريستينا والراهبة العجوز، طـرقنا الـباب تلـك الطرقات الخفيفة، أخيرا فتحت الباب، كانت الـراهبة الكبيـرة، دخلـنا سريعا، وأغلقنا الباب خلفنا، لاحظتني ولمحـت شـبح ابتسامة خفيفة على وجهها، كانت قد رأتني ثلاث مـرات تقريبا عند كريستينا، أغلقت الأضواء، وأطلت من النافذة وهـي تـتوجس، ثم أغلقت النافذة، ثم دخلت إلى الغرفة الداخلية ونحن خلفها.

قـال لهـا الـضابط إنـه يريد أن يعرف إذا كانت كريستينا موجـودة أم لا، تـرددت قليلا قبل أن تجيب، لكنها أخيرا أجابت، وكنت أنا أتابع كلماتها، وكنت أحاول معرفة مايجري.

قالـت بأنهـا خرجت في ثاني أيام الحرب، كانت قد قررت الـرحيل، ركـبت دراجـتها، وكانت ترتدى هذا الفستان الأزرق العـاري الكتفـين، كانـت قد وقعت كل أوراق حريتها من الدير وودعـت الرهبنة ولم تكن نادمة، أخبرتها بذلك قبل أن تغادر، لم تمـش أربع خطوات، أربع خطوات فقط أمام المنزل حين سقطت فجـأة أمام المنزل، كانت خطوات أربع إلى الموت، سحبوها إلى الداخل، كانت الرصاصة قد اخترقت صدرها، لاأحد يعلم من أين أتـت، لـم تعـش كثيرا، ساعات وكانت قد انتهت ولم يكن هناك مايـنفع لإنقاذهـا، قالت لها بأن تقبلني حين تراني، وانحنت على وقبلتني قائلة بأن هذه كانت رغبة كريستينا.

لاأدرى إن كنت أبكي أم لا لكنها أقداري، كان الضابط يستمع غيــر مصدق، وكنت أنا قد بدأت أفقد ثقتي في كل شئ، لم أسألها عــن جثتها أو ماذا فعلوا بها، كان واحد من أحلامي يحترق وأنا أســتمع، أســتمع فقط أو أشاهد، لادخل لي ولا أستطيع، لو كان أبوللو موجودا لما حدث ذلك، كنت أشعر بأنه يتساقط أمام عيني، كيف سمح أبوللو بأن يحدث ذلك لكريستينا، احترق جدي من أمي وجدي من أبي أمامي، أما كريستينا فقد احترقت خلفي، ثم قيل لي إنها احترقت، ماتت، تهيأت لعرسها بهذا الدم، أين كان يختبئ كل ذلــك وفـــي أي أرض، أين كنت أنا وقتها وهي تموت؟ لو كنت حــضرت إلــيها يوم كنت هاربا إليها، هل كنت سأنقذها؟ لم أكن مــتأكدا تماما من أن ذلك هو الذي سيحدث،.. كان القدر قد أطلق رصاصته، وحين تنطلق فلايمكن لأحد أن يفعل شيئا، كنت أتذكر بأن الآلهة حين يأخذون قرارا لايعودون فيه، حتى زيوس نفسه لم يكــن يمكــنه ذلك، كنت عاجزا تماما ونحن عائدين، أبكي، أبكي فقــط، أتطلـــع إلى الفراغ، أتذكر كل مافعلناه سويا، كان يجب أن أهديها تلك اللؤلؤة، ربما كانت ستمنع موتها، كل خيالاتي تتداخل، الحـــرب قاتلـــة للجميع للمدن والبشر، للأحلام والخيالات، وكان الـــضابط يـــربت على رأسي، وكانت دموع عيني تتساقط لاأدرى مـــن أيـــن، إذ كنت أشعر بأنني جاف تماما من الداخل، فمن أين كانت تلك الدموع تأتي؟!!.

كريستينا أيها الملاك العزيز..

كريستينا أيتها القادمة من أرض أبوللو..

جـئت إلى هذه الأرض القاتلة لتقتلين برصاص لايفرق بين أحـد، جئت لتختطف أحلامك مثلما اختطفت أحلامي، جئت تاركة أرضك هناك بعيدا، لماذا جئت ياكريستينا، لماذا؟

لماذا؟!

لماذا؟!

أين ذهبت أحلامي معك.. أين؟ أين ياكريستينا!!!!!!!!!!!

(٩٥)

أمسكت باللؤلؤة الكبيرة أمام جدتى التي تفحصتها في دهشة، وأخبـرتها بـأن جدي قال لي بأنها جزء من فص خاتم سليمان، انطلقـت تضحك وأنا أتطلع إليها في دهشة، كنت مصرا على أنها جـزء مـن خاتم سليمان العجيب وبأنه من المؤكد أن جني الخاتم سـيظهر يـوما ما، ربما نحن في حاجة إلى الخاتم نفسه، وأخذت أتطلع في يدها كانت ترتدي خاتما ضخما عليه حجر من اللازورد الأزرق، قلـت لهـا بأنه يجب أن نستبدل هذا الحجر بهذه اللؤلؤة فـربما وقتها يتحرك سحر اللؤلؤة، فرفضت بشدة وقالت بأن هذا الخـاتم مـن ميراثها من أبيها ، وأنها لن تفعل ذلك أبدا، كنت قد

قــررت بينـــي وبـــين نفسي أن أخلع الخاتم من يدها وهي نائمة، وأخلـــع الحجـــر اللازوردى منه وأضع تلك اللؤلؤة، وهكذا ظللت مـــستيقظا إلى أن نامت ولكني كنت أظن بأنه سيمكنني السهر، فلم أجـــد إلا نفسي مستيقظا في الصباح معها، وهكذا ظللت عدة ليال أحـــاول أن أظل مستيقظا حتى تنام هي فأجد نفسي دائما أنام قبلها أو معهـــا، فأقلعـــت عن المحاولة، بعد عدة أيام وجدت جدى وقد أحضر لي خاتما كبيرا وضع اللؤلؤة فيه وأغلق عليها من أطرافها بـــذؤابات مـــن الحديـــد كانت تخرج من سطح الخاتم، كان شكله جمـــيلا، حاولت وضعه في إصبعي فوجدته كبيرا للغاية، فأخذت أدعكه عل الجني يخرج، لكنه لم يخرج أبدا، إلى أن أقنعتني جدتي ذات لـــيلة بأن هذا الخاتم ليس خاتم سليمان، وبأنه على أن أنسى الأمر برمته، وأن أترك الخاتم لأمي، وإذا أردت في يوم من الأيام اســـتخدامه فلامانـــع من ذلك، استسلمت أخيرا، وكنت أفكر بأنني يوما ما سأعثر عليه وأستدعي به هذا الجني، وإذا فشلت فيجب أن أكون سعيدا لأن أبوللو كان معي دائما لايغادرني.

(٩٦)

لايمكـــن لـــنا أن نحدد اختياراتنا بشكل دقيق، هناك لحظات نعتقد فيها بأن اختيارنا لأمر ما قد تم على خيرمايرام لكننا نكتشف

أنــه كـــان اختــيارا خاطــئا تماما، وبأننا نتجرع المر بسبب هذا الاختــيار، هــذا هو ماحدث تماما مع عمي خضير، إنه يعترف أحيانا بأخطائه في اختيار زوجته، وفيما فعله بحياته، وأنه عليه أن يعــيد الأمــور إلى نصابها فيعترف بهدى، وكان ( ياني) يقول له بــأن الخطـــأ تراكم فوق خطأ حتى أصبح مستحيلا إصلاح الخطأ الأول، وأن مجمــوعة من الأخطاء المتراكمة تشكل حالة غريبة مـــن الـــصواب، طالمـــا أصبح هناك قبول جمعي بها، كان عمي خضير يقتنع بذلك وهو مستيقظ وواع، أما حين يشرب هو وياني فإنه ينسى كل ذلك ويبدأ في الحديث إلى نفسه، بينما ( ياني) لايفقد وعــيه علـــى الإطـــلاق مهما شرب، فإنه يظل متيقظا تماما لكل مايقــوله عمي خضير وإن كان يسقط في النهاية غير متذكر لأي كلمة مما جرى.

هكــذا جــرى الحوار الذي كان بينهما للمرة الأخيرة قبل أن يخـــرج معـــي، لقد عاد إلى ( ياني) ليسأله للمرة الأخيره عما إذا كـــان مافعلاه صوابا أم خطأ، وبأنه حين يخرج ربما لايعود مرة أخـــرى، إذ لايعـــرف مايمكن أن يحدث، كان يريد قضاء بعض الـــوقت مـــع هدى قبل أن يخرج، هكذا حدثني حين صرنا وحدنا عائدين إلى طريق الملاحات باحثين عن أم أمل للمرة الأخيرة.

كان مصمما على العثور عليها بأي وسيلة، وكان يعتقد بأنها لايمكن أن تغادر دون أن تقول له إنها ستغادر، وكان متأكدا تماما مـــن ذلك، كيف خرجت؟ هل خرجت دون إرادتها؟ جميعا خرجنا

دون إرادتـــنا، لكنها كانت يجب أن تخرج معه، لقد كان معها قبل أربـــع لـــيال أو خمسة بعد الحرب،نام معها، وتحدثا طويلا حول ذلـــك، وعدتـــه بأنهـــا إن قررت الخروج ستخرج معه، وبعدها، لايمكن أن تغادر هكذا فجأة، لايمكن أن تتركه هكذا، كما أنه كان يلوم نفسه بأنه لم يذهب إليها بعد أن أخبرني بموت أمي، ولم يكن حتـــى متأكدا من أن أمي قد ماتت، كنا قد انتهينا من كل شئ هو وأنا ولم يبق إلا أن نغادر، ولكنه أرجأ ذلك للعثور على أم أمل.

## (٩٧)

اســـتيقظنا يـــوما علـــى هذا الصراخ، كان آتيا من شقة عليه القرص، وكان عمي حامد الفاروقي موجودا، نزلنا جميعا، لم يبق فـــي الشقة أى أحد، تجمعنا أمام شقة علية وعبده الفحام، وصلت حتـــى باب غرفة نوم عبده الفحام، كنت أحاول أن أرى تلك الجثة المعلقـــة فـــي سقف الغرفة، كانت جثة سيد الفحام، معلقة في هذا الحبل المتوسط السمك، كان الحبل مربوطا في إحكام إلى السقف، وكـــان سيد معلقا به من رقبته، وكانت لبنى هناك تقف بينما تخلو ملامحها من أى شئ، كانت ملامح طفلة جامدة الوجه، وكان عبده الفحام يلطم خديه، وكانت الأم تولول، وهى تقول بأنها رضيت به

مجنونا، لكنها رضيت به، كانت تخاطب أحدا في الأعلى لم أدرك من هو تماما، فلماذا خطفه منها الآن.

لايمكـــن أن أتخـــيل بـــأن لبنــــى هي من فعل ذلك، لكن من سيصدقني إذا قلت ذلك لأي أحد، كانت معي على البحر، جالسون هى وهدى وأنا، قبل الحرب بأيام، حين استوقفتني قائلة بأنها هي التي أقنعت سيد الفحام بأن يعلق رقبته في الحبل ، وأنها هي التي ربطـــته له، وأوقفته فوق هذا الكرسي، وحين تأكدت تماما من أنه معلق من رقبته، سحبت المقعد من تحت قدميه، كيف تعلمت ذلك؟ وأين؟ تعلق هو فى السقف وانتهى بعد دقائق، كانت واقفة تضحك بيـــنما كـــان "حنكه" مفتوحا تخرج منه تلك الرغاوي، كان يتطلع إلـــيها وعيناه مفتوحتان، واستمرت في الضحك، وقالت أيضا بأنها أخـــذت تـــتحدث إلى جثته بعد أن مات تذكره بكل مافعله فيها من قبل، وبأنها بخلاصها منه فإنها تشعر براحة شديدة الآن.

كـــنت أستمع في ذهول إلى ماتقول، كانت تتكلم كأن شيئا لم يحـــدث على الإطلاق، كأن الوجود كله كما هو لم يتغير فيه شئ، كـــنت أحسدها أحيانا على رباطة جأشها وقوتها، لكني كنت أخاف مـــنها أحـــيانا، كمـــا كنت أخاف من أخيها رغم أنني كنت كثير الـــشجار معه، لم تسترح إلا بعد أن قضت عليه تماما ليختفي من طـــريقها إلى الأبد، كان تفكيرا غريبا أمام عيني، كنت أعتقد دائما بأنهـــا أكبر من سنها بكثير، بكثير جدا، كانت تستعجل طريقها في كل شئ، تركتها هناك تلعب وحدها، بعد أن أمسكت هدى من يدها

خارجـا مـن الـشاطئ فـيما كانـت هي واقفة تضحك، وكانت ضـحكاتها تـصل أذني حتى بعد أن اختفت عن ناظري، أخذت أركـض خارجـا إلى المنطقة الأولى الشعبية ومنها إلى الحديقة الخالـية مـن الأشجار التي تقع أمامنا، ووجدت نفسي أخيرا أمام عمارتـنا، كانت ستي تطل من الشرفة حين شاهدتني فابتسمت لها وابتـسمت لى وهى تظن أننا نلعب، وكانت هدى تلهث بشدة وأنا أيضا وكان العرق يتصبب منا، هدأت قليلا ولم أعرف ماذا أفعل، ولا لماذ ركضت بهذه الطريقة الجنونية، كأنني كنت أريد الابتعاد عـنها بأى طريقة، لقد قامت بكل شئ دون أن يعلم أحد بما دبرته لسيد، لقد انتهزت فرصة عدم وجود أحد بالمنزل سوى جدتها التي كانـت نائمـة فـي غرفتها، حتى إنها بعد أن قامت بذلك خرجت تلعب في الشارع حتى عادت أمها وابوها، فدخلت معهم، قالت إن أمها علية أحيانا ماتشك فيها، لكنها تأخذ في الضحك معها والتودد إليها حتى تنسى.

فـي المـساء كنت في حضن جدتى قلت لها كل ماقالته لبنى لـي، كانـت تستمع إلى في شك ولم تصدق حرفا واحدا مماقلته، وقالت لي أخيرا بأن خيالاتي تصور لي الكثير، لاأدري لماذا قالت لـي ذلك في اللحظة التي أخبرتها للمرة الأولى عن الحقيقة كاملة، صـدقتني في كل كذباتي الصغيرة وشطحات خيالي ولم تصدقنيّ في هذه المرة أبدا، كنت متعجبا من هذا الأمر، وأنا أيضا لم أصر طـويلا علـى الاستمرار في قول هذه الحكاية لها، وأفهمتني بأن

ذلــك مــستحيل لأن لبنى كانت في الشارع مع أبويها، أردت أن أقــول لهــا بأنها فكرت في ذلك وخرجت بعد ارتكابها لهذه الفعلة الشنعاء مباشرة حتى تبعد أي شبهة عنها، لم تصدقني وتوقفت عن ســرد حكايــتها، كنت سعيدا بحضن جدتي، فيما كانت هي تربت علــى رأســى وتتمتم بتلك الكلمات التي لم أكن أفهمها، كنت قلقا، لكنني رغم ذلك رحت في نوم غويط في النهاية.

## (٩٨)

فــي تلــك اللــيلة وقبل رحيل عمي حامد بعدة أيام سقط في الحمــام مغشى عليه، وحاول أبي فتح الباب مرارا، حتى استطاع أخيرا كسر الباب الخشبي بكتفه، كان بخار الماء كثيفا في الداخل، حــيث شــاهدنا عمي حامد واقعا. هناك على الأرض، على بلاط الحمــام، وكــنا جمــيعا نصرخ، وبعد عدة دقائق فتح عمي حامد عينــيه، وابتــسم في وجوهنا، وكانت خالتي حنان تبكي في حرقة شــديدة، نهــض في تثاقل وهو يتساءل عما حدث، قال بأنها نوبة إغمــاء بــسبب التعب والإرهاق ربما، وربما بسبب كثرة التفكير فــيما سيحدث وربما بسبب رغبته في الانتحار التى انتابته كثيرا فــي اليمن، إنه يشعر بحالة من اليأس والقنوط كبيرة، صحيح أنه

حــصل على كثير من النقود بسبب وجوده في اليمن ، لكن كيف يبــتعد عــن حنان بهذه الطريقة وفي هذا الوقت، هاهى ابنته تولد وهــو غير موجود، وهاهى خالتي حنان حامل للمرة الثانية وهو لايعلم إذا كان سيكون موجودا أم لا، يصرخ فينا جميعا ويحاكمنا، لاعــنا كــل شئ، يبكي وتبكي خالتي حنان ويبكي أبي، ولم نكن ندرى ماذا نفعل، وأخيرا قال بأنه هذه المرة ذاهب إلى سيناء ربما سـيقاتلون الإســرائيليين، وهو لايعلم سببا لهذه الحرب المفاجئة، ربمــا كــان رافضا لفكرة الحرب، لكنه كان رافضا أيضا للتشتت غيــر المبرر من وجهة نظره، كان أبي يستمع إليه صامتا، تحدثا عن عبد الناصر وحبهما له، وبأن مايحدث خارج حتى عن إرادة عــبد الناصر نفسها، كان الجميع يحاول اغتيال الثورة ومنجزاتها كــان هــذا هو رأي أبي في النهاية، وكان علينا أن نقاتل في كل مكــان مــن أجل أن تعيش الثورة، وانتهى الأمر في النهاية بأن أصبحا هما الاثنان وقودا من وقود الثورة، هذا هو ماقاله لي عمي خضير أخيرا، وردد أيضا بأننا أيضا وقود للثورة، وأن الاستعمار لــن يتركنا نهنأ بحريتنا لأول مرة في تاريخنا، الجميع يتعقبوننا، يــرون أنه من الكثير على هذا الشعب أن يكون حرا، صحيح أننا لــم نكــن فــي حاجة إلى حروب جديدة، كنا في حاجة إلى أشياء أخــرى كثيرة ليس من بينها الحرب، على الإطلاق ليس من بينها الحــرب، قــال بأنه شخصيا يبحث عن الهدوء وعن الراحة، لكن علينا مواجهة الأمر جميعا، ولم يكن من السهل النكوص، كان كل

شئ على المحك، كان هناك من يرى بأن الحرية ليست جديرة بنا، كـــنا فـــي نظر هؤلاء شعبا يجب أن يظل بلا حرية، سلة لبطون الـــسلالة البيضاء فقط، لقد لعبنا هذا الدور في الماضي، وعلينا أن نلعبه في الحاضر.

## (٩٩)

قال لي عمي خضير بعد أن انتهينا تماما بأننا يجب أن نذهب إلـــى أم أمـــل، كنا نصعد طريق الملاحات نحو منزلها .هناك في القابوطـــي، لـــم نجد أحدا في الطريق سوى عربات الجيش التي كانـــت قد بدأت تتحرك في كل مكان وتحتل المدينة، كان كل شئ خالـــيا في تلك اللحظة من المعنى، أقسم عمي لياني طلاقا بالثلاثة بـــأن آخر ماسيفعلة هو الذهاب لرؤية ما إذا كانت أم أمل موجودة أم لا، كـــان مـــصرا على ذلك، سرت بجانبه أقضم هذا الرغيف المحـــشو بالجبن الرومي الذى أعطاني إياه الضابط بعد مغادرتنا، وكـــنت قد انتهيت منه حين أحسست بالعطش، في أول منزل خبط عمي الباب، خرج لنا رجل عجوز، طلبنا منه شربة الماء فأعطانا ماطلبـــنا ودعانا للدخول لكن عمي خضير رفض بادعاء أننا على عجل من أمرنا، ابتسم الرجل لنا وقال :

– أني موجود إذا احتجتوا أى حاجة من هنا..

ثــم دخل وأغلق الباب، وصلنا حتى بيت أم سناء، أخذ عمى ينادي لكن لم يجبه أحد، أسقط في يده، فأخذ يلعن كل شئ كالعادة، لكــنه كــر راجعــا إلى الرجل العجوز مرة أخرى، خبطنا الباب فخــرج إلينا سأله عمي خضير إن كان يعلم أي شئ عن أم سناء، قــال له بأنها رحلت أول أمس إلى المنصورة، وسأله إن كان هو خــضير، فلما قال له عمي إنه هو بشحمه ولحمه، قال له الرجل العجوز بأنها تركت له رسالة!.

كان خطابا من خمسة سطور تقريبا تقول له فيه بأنها تنتظره في عنوان محدد بالمنصورة، إذا كان يريد أن يأتي وبأنها انتظرته طــويلا؟! لكنه لم يأت، ضحك عمى خضير طويلا، وكنت أبتسم معــه، كان هذا أول ضوء لنا في هذا الليل الطويل، أخيرا نقترب من الباب للدخول أو الخروج، وعلينا أن نختار.

(١٠٠)

لــم يكــن عمي خضير يعلم أين أنا، فبقي لدى ( ياني) أربع ليال قلبا فيها بورسعيد بحثا عني، وأقسم بأنه لن يتحرك من مكانه حتى يجدني، كان لدى يانى الكثير من الخمر، فظلا يعبا منها ليل نهــار حتــى أتــى لهما عسكرى من الكراكون يخبرهما بمكاني، انطلــق عمي خضير ويانى ومعهما الصغيرة هدى إلى الكراكون

أولا، ثم إلى على الشاطئ، كانا قد اتفقا أخيرا على أن ينسى عمي خضير موضوع هدى ابنته، وأن يدعها تماما ليانى، كان ( ياني) كريما وعطوفا، وكان يعلم بأنه لن ينجب من المرأة التي تزوجها والتـــي كانت يوما ما عشيقة لعمي خضير، لأنه ببساطة لايستطيع الإنجـــاب، كان الأمر معقدا وعليهما هما الاثنان بأن يرضيا بكل ماجـــرى، وليس عليهما نكأ جراح قديمة لامفر من إغلاقها، لأن فـــتحها لن يفيد أحدا وسيزيد الأمور تعقيدا، ولم يكن عمي خضير يملـــك شـــيئا ليقدمه لها، كان على قناعة تامة الآن بأن خيار ابنته يجـــب أن يكـــون مع ( ياني) وليس مع أحد آخر، كانت الحرب وســـيلة لانـــدمال جروح عمي خضير، وكانت على العكس معي، كـــان يقبلها ويحتضنها وهو يعلم بأنه قد لايراها مرة أخرى، ولم يعلـــم أحد آخر في العالم بعدى بما تم، كان قد استسلم تماما لتلك الفكـــرة، وعلـــيه أن يعيد حياته ويبحث عن زوجته وبناته منها، وكـــان عليه أن يسير معي في الطريق، قال لياني إنه لم يعد لديه في الدنيا في تلك اللحظة غيرى، وأنه يجب أن ينتبه جيدا من الآن لما سنفعله هو وأنا، كان قد أخذ كفايته من اللهو في حياته، وعليه الآن أن يثبت للجميع العكس، كان قادما إلى المعسكر لدى الضابط الكبير يحمل كل هذه الكلمات إلي، أخبرني بها بعد أن خرجنا من بورســـعيد باحثـــين عـــن أهلـــنا، عن الجميع، كانت الطرق تبدو متفـــرعة، وكان علينا أن نختار هو وأنا من أين نبدأ المسير، كان

الأمـــر صـــعبا للغاية، وكنت متعلقا بأمل وحيد هو أن أرى أمي وجدتي ولم أطمح في أي شئ آخر بعد ذلك.

(١٠١)

لـــم يكـــن هناك مفر أمامي من أن استسلم أخيرا لفكرة موت كريـــستينا، لقـــد فقدت الكثيرين، ولم يبق لي سوى أبوللو، وعمي خـــضير، الـــذي كان الضابط قد أخذ يبحث عنه بعد أن كتبت له بأننـــي جئت معه وأنني تركته عند ياني، فاتصل بالكراكون حتى أتي ( ياني) وعمي خضير وهدى كانت معهما، احتضنتني كثيرا، وبكـــى عمـــي خضير، وكان يتوقع بأنني قد مت، أما ( ياني) فقد أخذ يربت على رأسي وهو يردد.

– الحمد لله..

وكـــنت أتطلـــع إليه بدهشة وهو يقول ذلك، وحين قال عمي خـــضير بأننا يجب أن نرحل لكنني أخبرته بأن ينتظر، طلبت من الـــضابط زجاجـــه فارغة بفلينه من زجاجات منقوع الصرم التي كانـــت لديه، وجلست هناك وكتبت خطابي الأخير لأبوللو، لم أكن أريـــد مـــنه أي شئ هذه المرة، كان قلبي قد أصبح مشطورا بين موت كريستينا وربما موت أمي، إذ لم أكن أعلم الحقيقة بعد، كان

الـوقت ليلا وكنت قد قاربت على الانتهاء من كتابة رسالتي إلى أبوللـو، وكـان عمي خضير قد اتفق معي بأننا سنخرج الليلة من بورسعيد إلى القاهرة أولا للبحث عن أبي، وربما نذهب للمنصورة أولا أو لأبـو زعبل فربما يعلم إخوة أبي شيئا عنه، وكان الضابط يحاول إجراء بعض الاتصالات لمعرفة موقع أبي، لكنه حين علم بأنـه معـتقل توقف عن المحاولة قائلا بأنه من المستحيل في هذا الوقت معرفة مكانه، كما أنه تردد كثيرا قبل أن يقبل بفكرة ذهابي وأنـا علـى هـذه الحالة، لكنه قال أخيرا بأن علاجي في القاهرة سيكون افضل.

كـنت قـد انتهيت من كتابة رسالتي الأخيرة ووضعتها داخل الزجاجة البيضاء، وقمت بتمزيق الملصق الذي كان عليها، وبدأت أتقـدم نحـو المـاء، وكانت هدى وياني وعمي خضير والضابط يتابعونني.

(١٠٢)

كان علي أن أقترب من ماء البحر، كان الليل قد فرش المدينة بظـلال عميقة تزداد سوادا مع الوقت، كنت أمسك بتلك الزجاجة الفارغـة وقد وضعت خطابي الأخير فيها، لم يكن مهما ماقلته له هـذه المرة، كتبت كثيرا، ولم أستطع أن أتذكر ماكتبته إلى الآن،

قلت ربما إنني خائف من أن يموت وينتهي شأنه شأن الآلهة الكثيرة التي عاشت من قبله ومن بعده، قلت له إنني شاهدت جبل الأوليمب في السينما، واكتشفت أنه مرتفع عادي، ربما الأهرام أعلى منه، ربما بعض التلال التي رأيتها في تلك الجزيرة خلف بورسعيد كانت أعلى منه، وأيقنت أنه من المستحيل أن تعيش الآلهة في هذا المكان المرتفع قليلا عن الأرض، ومن المستحيل أن يصعد إليه كل هؤلاء البشر، إنهم يصعدون في جماعات ويهبطون، هناك في الأعلى لم يكن يوجد شئ، هل آمنت أنا بما هو غير موجود، وبما صنعه خيالي، وبما عشت معه سنوات طويلة، ربما علي أن أقلب الأمر من الناحية الأخرى، أن أؤمن بأنه موجود في مكان ما، فوق تلك السحب هناك في أثينا في بلاد الجريج، وبأنه ترك مكانه منذ زمن طويل فوق جبال الأوليمب، ولكنني كنت متأكدا بأنه ساعدني كثيرا من قبل، لكنني أيضا احتجت إليه في أوقات لم يظهر فيها، كنت في أشد احتياجي إليه، حين مات جدي وحين ماتت أمي إذا كان كلام عمي خضير صحيحا، ولم أكن متأكدا حتى من أن هذا صحيح!!.

أيقنت بأنني أعبث بأفكاري وبكل معتقداتي القديمة عنه، كيف يمكنه الآن أن يثبت لي بأن كل أفكاري عنه غير صحيحةظ وهل كنت أنا الذي يفكر أم كان أحدا آخر؟ وكيف تشعبت أفكاري لتذهب إلى هذا المنعطف؟ أليس بسبب احباطاتي المستمرة حيث شعرت بأنه ربما.. ربما لم يكن موجودا منذ البداية، ربما لم يكن

موجــودا فعــلا مــنذ البداية وأنني أنا الذي خلقته بعقلي، ألم يكن عــوض الحارتي مجنونا ليقنعني بأنني يمكن أن يكون اسمي ابن أبوللــو زيــوس، ألــم يدفعني من طرف خفي إلى أن أقول ذلك للضابط؟ ولكن لماذا غير الضابط رأيه فجأة فيما كان يفعله معي، لماذا؟ ولماذا ظهر العربي فجأة لي في الجبانات حين كنت وحيدا؟ ولماذا أصيب سيد الفحام في رأسه وقدمه وكنت وحدى أنا وأخته عاريان في الماء؟ ولماذا ولدت في الماء أنا وحدي دون الكثير من الناس، ولماذا كانت جدتي تحكى لي تلك الحكايات الغريبة؟ ولماذا اخــتطف ملاك الموت جدي فجأة أما عيني، وكانت السيجارة في فمه؟ ولماذا مات جدي الآخر بجانبي على السرير؟ أليس كل ذلك يــبعث علــى الحيرة، هل كان على أن أفكر في ذلك؟ لكنني كنت أعود للابتسام حين أتذكر أفعاله الحقيقية في أكثر من موقف، حين كانــت تغلق كل الطرق أمامي ليفتحها فجأة، يفتحها ويخرجني من الظلمــات التــي كانــت تــتكاثف فجأة، وكان خيالي دائما مطلق السراح، كان ذلك لغزا لا يمكنني حله، أليس ذلك من صنع إله، أم أنه قانون الصدفة، على أن أخرج قانون الصدفة من حساباتي إذا أردت أن أســتريح وأن أقفــل باب عقلي على ذلك، لكني أبدا لم أفعل ذلك، تاريخ تلك الأشياء يبقى كما هو لايتغير.

(١٠٣)

أقتــرب من الماء حاملا تلك الزجاجة التي أودعتها رسالتي الأخيــرة لأبوللو، كان البحر عريضا للغاية، كأنني لم أره عريضا مــن قبل، كنت أسير تتساقط أمام عيني كل قناعاتي السابقة التي كــنت حتى الآن أتشبث بها، كانت الحرب قد انتهت تماما بخروج الجمــيع من المدينة،.. وظننت أنه لم يبق بها سوى عمي خضير ويانى وزوجته وهدى وأنا والعربي وزوجته وبعض الجنود وهذا الضابط الكبير، أمشى بخطوات ثقيلة نحو الماء، أحاول أن أنصت لهــسيس الموج وفقاقيعه التي تنفجر توحي لي بأشياء شتى، لكنني لاحظــت أن هسيس الماء انقطع وأن الموج وانفجارات الفقاقيع لم تعــد تقــل لــي شيئا، كان الرباط السري الذي يربطني بالماء قد انقطــع تمامــا، ولم تبق معى سوى تلك الزجاجة الفارغة إلا من رســالتي الورقــية بهــا، وكان الضابط واقفا يتطلع إلي هناك هو وعمــي خضير، كنت مصرا على إلقائها في الماء، وكنت أدعي بــأن هذه هي رسالتي الأخيرة لأبوللو، ربما في زمن ما يحقق لي جمــيع أحلامي الضائعة، دخلت إلى البحر حتى أصبح الماء حتى صدري، كنت أتطلع إلى الأمام في تصميم، قبضت على الزجاجة

في عنف ثم رفعت يدي واطحت بها إلى أقصى مسافة، دارت في الهـــواء دورات عديـــدة ثم سقطت، وقفت ألاحظها وهي تسقط ثم تنـــسحب مع الجزر، ثم اختفت تماما فقفلت راجعا، إليهما وكانت عيناي قد امتلأت بدموع كثيرة لاأدري من أين؟؟.

(١٠٤)

هل يمكن أن أتخيل للحظة أن أبوللو من لحم ودم، كانت تلك الـــبقعة مـــن الأرض غريبة هناك بالقرب من الملاحات، فقد كان لـــون الملـــح أزرق لازورديـــا، وكانـــت على سطحه تتناثر تلك الأحجـــار الساخنة التى تلوثت بالدماء، أحجار ذات أحجام مختلفة، وكـــان هناك أيضا جواد يموت نائما على جانبه، كان فاتحا عينيه وصـــوته يتـــردد في هدوء، يغلق عينيه ويفتحهما، كان يحاول أن يتكلم كنت ألاحظ ذلك وكنت فاغرا فمي من تلك الدهشة الممزوجة بـــالألم التي تعتريني، أما الجواد الثاني فكان ملقى بلاحراك وكان الـــدم يسيل من فمه، كان الأول أبيض اللون وكان الثاني بنيا إلى درجـــة الاحمرار، وكانت بقايا عربة حنطور سوداء ذات خطوط ذهبـــية وحمـــراء ملقاة على جانبها ولم يكن هناك شئ آخر، وقد فقـــدت عجلاتها التي كانت على مبعدة من المكان، كنت أفكر في

ذلــك، وأيقــنت في تلك اللحظة أن هذه الدماء لأبوللو، وأنه ربما يكــون قد مات أو أصيب أو جرح جرحا كبيرا، وأنه اختفى ربما هــنا أو هــناك يبحث عن ما يدرأ به جرحه، وربما يكون قد فقد قدرتـــه كإله تماما، وتحول إلى بشر مثلي، وربما يكون قد اختفى للأبــد، وربمـــا لن أستطع رؤيته بعد الآن، ربما انقطعت علاقتنا نهائـــيا، ربمـــا قـــرر الانـــتحار أو يتركني ظانا منه أنني كبرت واســـتطيع الـــدفاع عن نفسي، كانت هناك آلاف الإجابات، ولكن الـــسؤال كـــان واحدا ، أين ذهب أبوللو إلى الأبد؟؟! كانت نفسي تحدثني أيضا بأن هناك شيئا ما سيحدث لعبد الناصر، لم أكن أجد فرقا كبيرا بينهما أحيانا، كان خيالي يسمح بهذا التجاوز لما هو إله ولمـــا هـــو بـــشر، وكـــنت أخلط أحيانا بينهما، كانت دماء أبوللو المتناثرة توحي لي بأن هذه دماء عبد الناصر أيضا، إذن لقد نالت الهـــزيمة مـــن الاثنين أخيرا، كنت أعتقد بأن الحياة ستعطيهم كل شـــئ، لكـــن الحـــياة هكذا تأخذ بقدر ما تعطي، وهج الأسماء ثم انطفائهـــا، كـــل الأبراج العالية التي صنعتها داخلى انهارت كأنها كـــتل مـــن الرمال والطين، ألم يحدثني الماء بذلك من قبل، ليس المـــوج وإنمـــا تلك الفقاعات الصغيرة التي كانت تهمس لي بكل ذلكّ ! ألم يحدث ذلك من قبل في التاريخ، لماذا مرتبط أنا بالتاريخ علـــى هـــذا الحـــد؟ أتذكر اللقاء الأول مع عبد الناصر كأنه اللقاء الأول مـــع أبوللـــو، حين رأيته على جانب الرئيس اليوغوسلافي تيـــتو، لماذا أتخيل أنني رأيت أبوللو في نفس اليوم، هل كان ذلك

حقيقـيا أم مـن صـنع خيالي، أين تكمن خلايا الخيال في عقلي الصغير، قال لي عوض الحارتي أنها الخيالات التي تصنع البشر تـرقد هـناك فـي سـراديب تلك الجمجمة الصغيرة التي تعتلي رؤوسنا، أين موقعها على وجه التحديد، كانت هي السبب في كل هـذا الـيأس الذي يتملكني، وكل الابتهاجات التي عشتها دون أن تكون حقيقية!.

..

مـشيت حتى المعدية وكان عمي خضير يغني أغنية صباحية لفيـروز لم يغنها من قبل، وكان مستيقظا تماما وهو يقبض على يـدي بقوة فاضطر للقفز معه في كل حركة من حركاته، وكانت قاعدة تمثال دليسيبس خلفنا، وكنت أرى المعدية غارقة في القناة، وكـنت أعلم بأنني ربما فقدت الكثير من أحبائي إلى الأبد، وكان أولهـم أبوللـو، لكنني كنت أمني أحلامي وأنا أسير بأنه يوما ما سـوف يعود كل شئ كما كان، وكذلك كان الحال بالنسبة لأبوللو، ولم أكن منزعجا من مسألة فقداني لصوتي، كنت أعلم أنه سيعود، فقط كنت أتسائل متى؟، وكنت أيضا أحاور في تلك اللحظة جنياتي الـصغيرات، ولـم أشك أبدا بأنهن غير موجودات، كنت قد بدأت أكلمهـن فـي العلن، ولم أكن أهتم كثيرا بما يقوله الناس، تركت نفـسي لمـا أريد أن أفعله، ولم أعد أهتم كثيرا، تاركا لهم السؤال عـن سبب كلامي إلى نفسي، لكن تركت لنفسي سؤالا واحدا عن مكان أبوللو وهل مات أم لا؟!

كانت جنياتي الصغيرات يضحكن ويتراقصن حول رأسي أو في تلك النجوم البعيدة، وكانت وجوه من أحبهم تملأ السماء، كنت أعلـــم أيضا بأن تلك النجوم البعيدة ستظل تدور، وأنها لن تتوقف عـــن الدوران بسبب موت أحبائي أو موت أبوللو، فهكذا الحياة!.. يمـــوت فيها الانسان والآلهة والمدن كل يوم، لكنهم في مكان آخر من جديد يخلقون.

**عوض الحارثي**



" أنى أعرفك من زمان .. بس انت ماتعرفنيش .. أنى من مصر.. بلد الفراعنة.. أنى مش طالب منك كتير.. كل اللى عاوزه بس جناحين.. شفت حاجه صغيره قوى .. عايز أطير.. ولو مش قادر تدينى جناحين.. خللينى أطير معاك مرة.. كمان أنى عارف انك بتتعبد هناك فى بلاد الجريك.. ولا بطلوا يعبدوك.. لأنى فاهم انك اله قديم قوى.. وعلى فكرة أنى عارف أبوك زيوس.. وعارف انه بيشرب منقوع صرم ومابيبطلش جرى ورا النسوان.. لو مش قادر يعنى..يعنى لو مش قادر.. ممكن أركب معاك عربيتك الدهب ونلف لفه كده فى السما.. أرجوك حققلى الأمنيه دى.. أنى صحيح صغير وممكن تشوفنى [illegible] قد عقلة الصباع.. بس برضه أنى بحبك قوى.. أنى عاوز العيال في ال[illegible] الوله سيد الفحام واخته يصدقوا إني عارفك ويشوفوني معاك.. ولو ماشا[illegible]..

ملحوظة: انا ياما استنيتك فى شارع كسرى بالذات وقت الظهر [illegible].. علشان بيتهيألى إنه صاحبك.. تعرفه من زمان ستى قالتلى كده.. و[illegible] اهو تتعرف عليه عندنا هنا فى بورسعيد..

والسلام ختام"






تصميم الغلاف: احمد مراد



ميريت